"كل القتلة في الروايات رجال. أم هل تستطع النساء القتل أيضًا؟"

مكتبة
Telegram
Network
2020

جريمة في إسطنبول

أسمهان أيكول

ترجمة: هند عادل

العربي للنشر والتوزيع

روايات مترجمة

مكتبة

Telegram Network

«المكتبة النصية»

قام بتحويل رواية:

(جريمة في إسطنبول)

لـ «أسمهان أيكول»

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

تنسيق

ماجدة

جريمة في إسطنبول

أسمهان أيكول

ترجمة: هند عادل

العربي للنشر والتوزيع

جريمة في إسطنبول

رواية من تركيا

أسمهان أيكول

ترجمة: هند عادل

تحرير: هدى فضل

مراجعة لُغوية: محمد حامد

الطبعة الأولى: 2018

رقم الإيداع: 13063/2018

الترقيم الدولي: 9789773194215

الغلاف: إسلام علَّام

© جميع الحقوق محفوظة للناشر

60شارع القصر العيني 11451 – القاهرة

ت 27954529 - 27921943

فاكس 27947566 –

www.alarabipublishing.com.eg

First published in Turkish as Kelepir Ev by Everest YaylnlarI, Istanbul, 2003

Copyright © 2003

by Esmahan Aykol

Copyright © 2004

by Diogenes Verlag AG Zűrich

All rights but Turkish reserved

(1)

قالت وهي تُقلِّب الـ«كابتشينو» بأناقةٍ تتعارض مع رغبتها في قتل أي أحدٍ:

- سأتَّصل بالمافيا الصينية لتزيلهم من على وجه الأرض.

- المافيا المحلية رخيصة وتُنهي المهمة دون شُبهات. لماذا نستأجر المافيا الصينية؟

أجابت:

- لأنهما غادرا إسطنبول يا عزيزتي. سافر «تشيتين» إلى نيويورك ليُتمَّ إجراءات الطلاق، وبالطبع ذهبت معه والدته لأنه ابنها الحبيب المُدلَّل.

ثم أضافت بحزم:

- ستتولَّى أمرهما المافيا الصينية في نيويورك.

كنت أُدلِّك الجلد المُترهِّل قليلًا تحت ذقني بسبَّابتيَّ ووُسطاي، وهي عادةٌ اكتسبتها مؤخَّرًا. وقُلتُ:

- يجب أن يخاف الرجال من انتقام النساء بالفعل. أنتِ تُفكِّرين في قتل الرجل المسكين وأُمِّه.

- بل العكس. حماتي هدفي الأساسي، وليس زوجي السابق.

نظرتُ لها بدهشةٍ لم أستطع إخفاءها، فقالت وهي تضع يدها على يدي اليُمنى، فاليُسرى أُدلِّك بها ذقني:

- أعلم أنكِ تظنِّين الأمر مجرد منافسة بين زوجةٍ وحماة، لكن صدِّقيني، الأمر ليس كذلك.

على مدى نصف الساعة التالي، ظللتُ أُدلِّك ذقني، بينما أستمع إلى «أوزلم» وهي تتحدَّث عن علاقتها بزوجها السابق وحماتها.

بصراحة، لم أكن مستعدة للانشغال بمشاكل أصدقائي في ذلك الوقت. فلديَّ كثير من المشاكل التي تزداد يوميًّا بالفعل. وأقلها مشكلة الجلد المُترهِّل.

لك أن تتخيَّل صعوبة الباقي.

أنا امرأة تقترب من منتصف الأربعينيات، لكن مظهرها لا يتعدَّى الخامسة والثلاثين، ولديها وظيفةٌ رائعة.. بمعنى آخر، ما الذي ينقص في حياة امرأة تحب قراءة القصص البوليسية وتمتلك مكتبة لبيع روايات الجرائم التي تكسب منها رزقها، وتعيش في مدينةٍ تعشقها، بالإضافة إلى حبيبٍ جذَّاب على الرغم من كرشه الصغير؟ أو بالأحرى تراه جذَّابًا بسبب هذا الكرش الصغير؟ ظللت أسأل

نفسي هذا السؤال، لكن في كل مرَّة أفكر في الأمر يزداد شعوري بالسوء. كما تقول «فاطمة» هانم: «فقط في تركيا!».

إن كنت تتساءل عن معنى ذلك عزيزي القارئ، فأنت لا تعرف كثيرًا عن تركيا. بعدما تنقَّلتُ كثيرًا بين دولٍ مختلفة، أصبحت لا ألوم الناس على جهلهم بما يقع خارج حدود دولتهم. في الواقع، لا أحتمل البقاء أكثر من خمس دقائق في قراءة أخبارٍ عن البلد الذي أعيش فيه، فما بالك بمتابعة أخبار المدينة التي أسكنها. على كل حال، لقد قابلت الشخص المناسب ليشرح لك معنى «فقط في تركيا».

«فقط في تركيا» - حيث تدفع الإيجار بالدولار الأمريكي أو اليورو - أن تكون مستأجرًا يعني أن تعطي المالك تعهُّدًا بالإخلاء شهد عليه مُحامٍ. هذه الوثيقة - كما يوحي اسمها - تلزمك بعد مدةٍ محددةٍ بمغادرة الشقة التي استأجرتها. في يوم المغادرة لن يسعفك إن كان حبيبكَ مُحاميًا، وعليك مغادرة الشقة التي عشت فيها أيامًا حلوة ومُرَّة وبكيت وضحكت ومارست الحب.

في الواقع، هناك خيارٌ آخر، وهو دفع الإيجار الإضافي الذي يطلبه المالك. على الأقل هذا لن يجبرك على الانتقال وترك ذكريات شرب القهوة في البلكون صباحًا، والسيفون الذي لا يعمل جيّدًا، وبقايا الطلاء التي تسدُّ حوض المطبخ، وأبواب غرفة المعيشة التي لا تنغلق بإحكام. والأهم، أنك لن تضطر للرحيل إلى المجهول.

إن كانت طفولتك تشبه طفولتي أيها القارئ العزيز، بمعنى الانتقال من مدينةٍ إلى أخرى، ومن بلدٍ إلى آخر، إذًا ستفهم تمامًا ما أعنيه. أنت تعرف أن تكلفة الانتقال لا تُقاس بالمال، ولا أحد يقرر الانتقال بسبب بعض اليوروهات.

هذه هي المشكلة. لم تكن تلك اليوروهات الإضافية وحسب. إن مالكة عقاري الفقيرة أرادت زيادة الإيجار مائة وخمسين يورو. هل تتخيَّل ماذا يساوي هذا بالنسبة لامرأةٍ كادحة ونزيهة تملك مكتبةً صغيرةً؟

إنه يساوي ثروة.

باختصار، إما أن أستسلم وأدفع المائة والخمسين يورو الإضافية، وإما أن أجد مكانًا آخر للعيش.

وهكذا، قررت أن أجد مكانًا آخر إن استطعت بالطبع.

لم أستطع فعل شيءٍ حتى انتهت «أوزلم» من شرح خططها الجهنمية، لذلك أمضيت ثلاث ساعاتٍ ثمينة في أمورٍ لا تتعلَّق أبدًا بالبحث عن سكن، لكن قبل دفع الفاتورة، اتصلت بسمسار عقارات في شارع «أكارسو».

أعرف أنكم قُرَّاءٌ أذكياء، وستلاحظون في الجملة السابقة أنني أصبحت أمتلك موبايل. تنازلتُ وابتعتُ واحدًا منذ ستة أشهر. لم يكن جديدًا أو غاليًا، ونظام شحنه بالكارت. ينظر إليَّ الناس باستخفافٍ حين أعطيهم رقمي، أو حين يرونني أتكلم في الموبايل، لأن الأتراك في دائرتي

الاجتماعية يغيرون موبايلاتهم وسياراتهم بالموديلات الأحدث دومًا. تعرفون أنني لا أزعج نفسي بهذه الأمور، وهذا يناسبني.

قبل أن تكملوا القراءة، عليَّ إخباركم بأمر جدَّ على حياتي. لقد صبغت شعري. سابقًا كان لونه «كستنائي»، لكن منذ عشرة أيامٍ صبغته باللون البرتقالي. لا أبالغ، جعلته برتقاليًّا حقًّا.

أحبَّ «سليم» و«لالي» و«يلماز» اللون الجديد، ولم أهتم برأي «فوفو». بأي حال، هو لم يره، ولم يرني.

لمن يهتم بالتفاصيل ولم يقرأ روايتي السابقة، سأشرح له. كان «فوفو» زميل سكني وأقرب أصدقائي، إلى أن وجد حبيبًا وتركني. إنه إسباني ترك شريكه وأصدقاءه وعائلته ليلاحق بعض الرجال. اسمه الحقيقي «خوان أنطونيو». هل هذا يهم؟ ربما لا، لكنه يريكم أن التجديد في حياتي لا يتعدَّى كونه موبايل جديدًا وصبغة شعر. أما بالنسبة للكوارث، فكلها تتعلَّق بالبحث عن سكن.

كرهت موضة الكعب العالي التي انتشرت منذ بداية الربيع. أعني أحذية الكعب العالي الملتوية عديمة الشكل. ليس سهلًا أبدًا السير في شوارع إسطنبول غير الممهدة، والآن صار عذابًا بهذه الأحذية الغريبة. لكنني لن أتنازل أبدًا عندما يتعلَّق الأمر بالموضة. وهكذا ارتديته على الرغم من أنه يجعلني أبدو كبطةٍ عرجاء، وسرت بألمٍ حول ميدان «تقسيم» ومن شارع «سيراسيلفيلر» إلى حي «جيهانجير»، حيث يقيم «رستم» سمسار العقارات في 26 شارع «أكارسو».

في ذلك الوقت كانت كلمة «عقارات» أو «سمسار» تجعلني أقشعرُّ. ظللت أبحث مدة أسبوعين من بداية اليوم حتى المغرب عن سكنٍ، وكأنها ورديات عملٍ إضافية. لا عجب في أنني صبغت شعري! كلما مرَّت امرأة بأزمةٍ ما صبغت شعرها أو غيَّرت تسريحته، صحيح؟ لا تسخر من هذه الأمور المُبتذلة، فهي انعكاسٌ للواقع. أنا أعلم الجميع أننا الألمان بُخلاء ومتعبون وصارمون، ولدينا نزعة تسلُّط وكراهية تجاه كل من هو ليس منَّا.

نهض «رستم» سمسار العقارات فور دخولي. وهذا طبيعي، فلو استأجرت إحدى شققه المتهالكة التي أراني إياها سيحصل على 12% عمولة. بالتأكيد تتوقعون أن ألوم الناس الذين يقبضون عمولةً في سمسرة العقارات أو أولئك الطفيليين الذين يجنون المال دون جهد، لكنني قُلتُ كل هذا لحبيبي ولأصدقائي، والآن سأقول فقط إنني أشعر بالتوتر.

غادرت المحل مع مساعد «رستم»، إنه «موسى» الذي سيريني شقةً بغرفتين في شارع «أوزوغول». قال:

- إنها تطل على منظرٍ خلاب يا سيدتي، لكنها بحاجةٍ إلى بعض التشطيب.

أومأتُ برأسي.

لم أكن قلقة من العمل بنفسي في الشقة. فعلى الرغم من العيش في إسطنبول أربعة عشر عامًا، وكوني مواطنة تركية، فإنني ما زلت ألمانية، وسأعمل بنفسي لأوفر النفقات. لا مشكلة لديَّ في أن

تكون هذه الشقة أصغر من التي أعيش فيها حاليًا. سأتخلّص من بعض أغراضي.

ما يقلقني هو السُّمعة التي اكتسبها شارع «أوزوغول» في حي «جيهانجير». إنه طريقٌ مسدود، ويطل على منظرٍ جميل، يتصل بحي «فِندقلي» بسلالمٍ عند مستوى سطح البحر، لكنه لم يشتهر بسبب المنظر، بل بحوادث النشل المتكررة. على مدى سنوات، سمعت قصصًا عن نساءٍ يتم جرُّهنَّ على الأرض عندما يُقاومن النَّشَّالين الذين يسرقون حقائبهنَّ. أعرف أن النساء لا يمكنهُنَّ السير هنا وحدهُنَّ ليلًا، وأن سيارات الأجرة تكره دخوله لأنه طريقٌ مسدود.

وهكذا، أصبحت معرفتي بحي «جيهانجير» عن ظهر قلب عائقًا لي في رحلة البحث عن شقة بدلًا من كونها عاملًا مساعدًا. لو كنت أعيش في إحدى الشقق الضيقة في المساكن المُريعة على الضفة الآسيوية، حيث يلمس رأسك السقف إن وقفت، لأعجبت فورًا بشارع «أوزوغول»، لكن في اللحظة التي دخلت فيها الشارع، وجدت نفسي أتلفَّت حولي بقلق، بينما أتخيَّل النَّشَّالين وهم يهبطون تلك السلالم للهرب إلى حي «فِندقلي».

عُدتُ إلى منطقة «كوليديبي» ومكتبتي الحبيبة وأنا غارقة في التفكير. حاول «سليم» وأصدقائي إقناعي بأن هناك كثيرًا من المناطق في إسطنبول غير «جيهانجير»، وأنه عليَّ توسيع آفاقي. لكن الشيء الوحيد الذي أصر عليه هو المنطقة التي أعيش بها. لو كنت في برلين بدلًا من إسطنبول، لما سكنت في منطقة «زيهليندورف» الأنيقة المليئة بالأشجار أو منطقة «برينزلوير بيرج» العصرية، بل سأكون سعيدةً للغاية بالعيش في منطقة «كرويزبرج» والاختلاط في الشوارع الجانبية مع الشباب الأتراك كثيفي الحواجب الذين ينظرون باستخفاف ويبصقون على الأرض من سياراتهم الحديثة.

لم أسكن في «جيهانجير» لأن كل ما فيها رائع. ما المميز في ذلك؟ النخبة المثقفة التركية يتفاخرون بحبهم لموسيقى «باخ»؟ لماذا يحتمل شخصٌ غير مسيحي تعذيب الذات العلني بالجلوس على مقعدٍ خشبي في كنيسةٍ «بروتستانتية» والاستماع إلى موسيقى؟ في حين أنه يمكنهم الاسترخاء على أريكةٍ مريحة في غرفة المعيشة المطلة على مضيق البوسفور وينسون الهموم. إن كانوا يستمعون حقًّا ولا ينزعجون كثيرًا، فلماذا يتفاخرون بذلك؟ يسمعون «باخ»؟ ويستمتعون بهذا العذاب على الرغم من أنهم ليسوا من «البروتستانت»؟

في الواقع، ليس لديَّ خيار سوى العيش في حي «جيهانجير»، وإلا أين سأعيش؟ في «نيشانتاشي»، حيث تتسوَّق النساء بشعورهنَّ الشقراء المصبوغة في الشوارع طوال اليوم؟ أم «مودا» المعروفة بكثرة الزلازل؟ أم أحلم بالعيش على ضفاف البوسفور بميزانيتي الضئيلة؟ كما أنه عليَّ السكن بالقرب من مكتبتي. فلياقتي لم تعد كما كانت، ومن الأفضل السير صباحًا بدلًا من قيادة السيارة. يقول العلماء إن السير بمعدةٍ خاوية يساعد على حرق الدهون الزائدة.

كما قُلتُ، عُدتُ إلى المكتبة غارقة في التفكير في الاحتمال المحبط من ألَّا أجد أبدًا سكنًا مريحًا. كانت مساعدتي «بيلين» جالسة على مكتبها كالعادة. لا تزال غاضبة لأنها تشاجرت مع حبيبها منذ

ثلاثة أيام، وبالطبع تضمن الأمر تحطيم بعض الأطباق. يبدو أن كل ما أفعله يثير أعصابها، لذلك لم أقل شيئًا كي لا أزعجها.

أعددتُ بعض الشاي بالأعشاب. تظن كلتانا أن رائحته سيئة. فكرة أن اللون أهم من الرائحة غير صحيحة. لا تهتم، فشاي الأعشاب مفيدٌ لك.

جلست على الكرسي الهزَّاز ممسكةً بكوب الشاي وأهتز للخلف والأمام، بينما نظري ثابتٌ على نقطةٍ محددة أعلى واجهة المكتبة الزجاجية. أنا أهتز وأشرب الشاي، بينما «بيلين» جالسة على مكتبها تشرب الشاي أيضًا.

هكذا كان حال المكتبة عندما جاءت تلك المرأة.

كانت ترتدي بنطلونًا أسودَ وتيشيرت وحذاءً أنيقًا جدًّا ذا كعبٍ سميك. إنه ليس متعبًا في السير بالتأكيد، بعكس الأحذية في موضة هذا العام. عندما استدارت، رأيت كلمة «Heart's Youth»، وهي تعني أن المهم هو «شباب القلب»، وليس السن. كانت مطبوعة على ظهر التيشيرت.

إنها صديقتي «كاندان» التي تملك مكتبة في «باي أوغلو»، وهي من رشحت لي «بيلين» إحدى موظفاتها السابقات.

سألتها:

- ما سبب قدومك؟

إنها لم تأتِ إلى مكتبتي منذ حفل الافتتاح قبل أربع سنوات، لكنني لم أذكر لها ذلك.

قالت:

- أبحث عن كتابٍ لـ«باربرا فاين». ظننت أنني ربما أجده لديكِ.

كانت تمزح بالتأكيد. ففكرة أن «كاندان» خرجت تبحث عن كتاب سخيفة في حد ذاتها، لذلك ضحكت.

- تعلمين بالطبع أن «باربرا فاين» هو اسم الشُّهرة لـ«روث ريندل»، صحيح؟

لا، لست أنا من قال هذا، بل «بيلين» موظفتها السابقة. وصمتت تمامًا حين رأت نظرتي النارية لها.

لكن «كاندان» ابتسمت وتبادلنا بعض التحيات المهذبة. هل ذكرت لكم كم أحب هدوء الأعصاب الذي تتمتع به سيدات الأعمال المحترفات؟

ذهبنا لمقهى «جينيفيز» على الجانب الآخر من ميدان «كوليديبي» لنكون وحدنا بعيدًا عن «بيلين» الغاضبة، ولنشرب بعض الشاي اللذيذ. ناقشنا كل شيء حتى وصلت إلى مشكلة البحث

عن سكن. ليس سهلًا أبدًا أن تشرح لشخصٍ ثري أنه عليك الانتقال كي لا تدفع إيجارًا زائدًا 150 يورو في الشهر.

هذا ما حدث..

أولًا، استمعت إليَّ صديقتي في صمت لأنها تخشى أن تقول كلامًا غير مناسب. ثم عجزت عن مواصلة الصمت، فقالت:

- لماذا لا تشترين شقة؟

كيف؟ من أين لي بالمال لشراء شقة؟ أقوم بالانتقال لأني لا أستطيع دفع الإيجار الزائد. هل تتعمد إغاظتي؟

يمكنك أن تتحدَّث عن الأدب أو المقالات الصحفية أو الناس أو السياسيين مع أصدقائك ذوي التفكير المتشابه، لكن المال هو سبب الخلافات الرئيسي. بينما يحاول شخصٌ ما تدبير أموره بصعوبة، يقوم آخر بإعطاء الكوافير 150 يورو «بقشيش». إنه المبلغ نفسه الذي يسبب لي المشاكل.

ثم لاحظت تعابير وجهي وفهمت ما أريد قوله، فأضافت بسرعة:

- اشتري شقةً رخيصة.

لم أعلق على ما قالته، بل أجبت:

- لا أريد الانتقال من هذه المنطقة. أريد شقةً قريبةً من عملي.

- نعم، أتحدث عن شراء شقةٍ رخيصة بالقرب من هنا. هل تعرفين البناية التي أسكن بها في حي «جيهانجير»؟ حسنًا، إنها ملكٌ لجمعيةٍ خيرية خاصة بالأقليات، ولديها عددٌ من الشقق للإيجار والبيع في «كوليديبي» و«جيهانجير». أخبرني شخصٌ أعرفه في هذه الجمعية أن لديهم شققًا للإيجار في هذه الأنحاء، فأتيت لألقي نظرةً على إحداها.

ضحكت وأمسكت ذراعي وهي تضيف:

- ربما سأفتتح مكتبةً في «كوليديبي» وأنافسكِ.

تجاهلت تعليقها، وسألت:

- هل تريد هذه الجمعية بيع شقة؟

- ربما لم أكن واضحة. الجمعية تؤجر بنايات وتبيع شققًا بمجرد أن تتسلَّمها وزارة المالية.

- لحظة، اشرحي لي الأمر بالتفصيل الممل.

وفعلَت.

الأمر ببساطة هو أنه إذا هاجر عددٌ من الأقليات من تركيا وتركوا ملكيات لا يمكن نقلها، ستحكم المحكمة بعد فترةٍ من الزمن أنه لا صاحب لها، ويتم تسليمها إلى وزارة المالية. وعندئذٍ يمكن للوزارة الاحتفاظ بالملكيات أو بيعها. عادةً يتم بيع الملكيات في مزادٍ علني بمبلغٍ أقل من سعر السوق. ويتم اعتبار الأرباح دخلًا قوميًّا. كل ما عليكم معرفته هو موقع هذه الشقق وموعد المزاد. هذا يعني إيجادٍ شخصٍ في هيئة الإسكان، وتتم تسمية هذه العملية بـ«البحث عن الرجل المناسب»، ثم تتم رشوته. لا تعلم «كاندان» كم المبلغ بالضبط، لكنها تدعي أنه يمكنها إيجاد شخصٍ يعمل في الهيئة ليريني بعض الشقق المراد بيعها.

لأول مرَّة منذ فترةٍ طويلة أذهب في النوم هذه الليلة بمجرد أن لمست رأسي الوسادة.

قضيتُ العطلة الأسبوعية أنتظر بفارغ الصبر يوم الإثنين، فلم أستمتع بموعدي صباح السبت مع «يلماز» ولا بالسوشي الذي تناولته مع «سليم» ظهر الأحد.

(2)

بينما أسير إلى المكتبة صباح الإثنين، وجدتُ نفسي أقيّم المنازل بدقَّةٍ طوال الطريق بعين مُشترٍ. بصراحة، حتى ذلك الوقت لم أكن أهتم أبدًا بالسكان السابقين لمنطقة «تشوكوركوما»، فهي منطقةٌ مليئة بالمحلات المتهالكة التي تحاول أن تبدو مثل محلات التحف القديمة. لم أهتم كذلك بسكان «كوليديبي» التي ينتشر بها الارتباك بسبب تعدد الجنسيات بها. كما لم أهتم بالناس الذين بنوا هذه المباني القديمة الجميلة.

كل ما أعرفه هو أن منطقة «كوليديبي» كان يسكنها فقراء اليهود حتى خمسينيات القرن العشرين. بعد قيام إسرائيل، هاجر كثير من اليهود، وجاءت أفواجٌ من سكان الأناضول للاستقرار في المنطقة؛ لذلك انتقل معظم من تبقى من اليهود من «كوليديبي» إلى مناطق أخرى في إسطنبول.

بعيدًا عن «واحة السلام» - أكبر معبد يهودي في إسطنبول - هناك معبدٌ آخر أصغر، لكن أجمل، وهناك محل جزارةٍ صغير يذبح على الطريقة اليهودية. لم يبق أثرٌ ليهود «كوليديبي» الذين عاشوا هنا في الماضي. هناك بالطبع البيوت والمحلات التي هجرها أصحابها وصارت بلا ملكية كما عرفت منذ ثلاثة أيام.

يعيش في «كوليديبي» الآن العائلات التي جاءت من الأناضول تجرُّ أطفالها. ولا ننسى بالطبع أصحاب الأعمال في «جيهانجير»، مثل تجار الجُملة والكهربائيين. في الواقع، إن دقَّقنا النظر سنلاحظ تغييرًا تدريجيًّا على مدى الأعوام الأخيرة. لقد بدأ طابع المكان بالتغير منذ بدأ الناس في شراء البيوت وتجديدها. مكتبتي هي أوَّل محل يبيع شيئًا غير النَّجف في الحي، والآن هناك عديد من البارات والمقاهي وبعض الفنادق المكلفة. افتتحت امرأة إسبانية مطعمًا للوجبات الخفيفة يقدم المقبلات يوميًّا وأكلة الـ«باييا» مرَّة كل شهر، وهي أكلةٌ إسبانية تتكون من الخضار واللحوم، وهناك نادٍ لموسيقى الجاز يرتاده المثقفون.

عندما حلت الظهيرة اتصلت بـ«كاندان» على أمل أن تكون قد عرفت المعلومات المطلوبة. لم تصل «بيلين» للعمل بعد، وكنت أمنع نفسي بصعوبةٍ من الاتصال بها.

إحدى مشاكل العمل مع الشباب هي الاضطرار إلى تحمل تقلبات حياتهم.

عرفت «كاندان» اسم ورقم أحد العاملين في الهيئة، يا لها من امرأةٍ رائعة. اسمه «قاسم» بك، ورقمه 05383184454. أخبرتني أن أقول له إن «فارول» من الجمعية الخيرية ترسل تحياتها.

ازدادت نبضات قلبي بينما أطلب الرقم.

كانت محادثتي مع «قاسم» بك قصيرةً ومباشرة. من الواضح أن هذه الأمور لا تُناقش في التليفون. اتفقنا على اللقاء في حديقة «دوفرديبي» في ميدان «السلطان أحمد» بعد العمل. أنهيت المكالمة،

ونسيت أننا لم نتفق كيف سنعرف بعضنا. تساءلت إن كنت أستطيع التعرف على موظفٍ حكومي مُرتشٍ من مظهره. سيكون اختبارًا جيّدًا لي بصفتي شخصًا يزعم بمعرفته التامة للأتراك.

صدقوا أو لا، بعد ترددٍ بسيط، شققت طريقي بين عشرين طاولة في الحديقة إلى أن وصلت مباشرةً، حيث يجلس «قاسم» بك. هذا الاختبار أظهر بوضوحٍ أنني على درايةٍ جيدة بالأتراك. لكن، لا أنكر أن عوامل خارجيةً ساعدتني.

عديد من الطاولات كان يجلس عليها شبابٌ مرتبطون يريدون قضاء أمسيةٍ رومانسية في هذه الحديقة على أنغام موسيقى الأرابيسك التركية التي تشبه مواء القطط.

طاولات أخرى كانت محجوزة من عائلات تركية تقضي مساءها خارج المنزل، وكل عائلة تتكون من والدين وأربعة أبناءٍ على الأقل.

سياح من شمال أوروبا كانوا يجلسون على طاولات من دون مظلة، ويعرضون أذرعهم وسيقانهم لحرارة الشمس المتلألئة، وينظرون باهتمامٍ كبير إلى تفل القهوة في أكوابهم. أراهن أن أحدهم في النهاية - وسيكون ألمانيًّا - سيطلب ملعقة ويبدأ بأكل تفل القهوة. الألمان هم الشعب الوحيد الذي لا ينسى أبدًا قصة الطفولة التي تقول إن بقايا الطعم تبكي إذا تركناها، حتى البالغين منهم.

تبقى أربع طاولات، يجلس على كلٍّ منها رجلٌ وحيد. أحدهم كان شابًّا وسيمًا يقرأ بتركيز، فلا يمكن أن يكون «قاسم» بك. إنه أجمل من أن يكون حقيقيًّا.

الرجل الجالس على ثاني طاولة تعدَّى سن التقاعد بالنسبة لموظفٍ حكومي.

أما الجالس على الطاولة الثالثة فربما يكون «قاسم» بك.

وكذلك صاحب الطاولة الرابعة.

فكرت في السؤال الذي يظهر دومًا في المجلات النسائية، وهو «أي جزءٍ من الرجل تنظرين إليه أولًا؟». وجدت نفسي أنظر للرجلين الجالسين على الترابيزتين رقم ثلاثة وأربعة. لا تسئ فهمي، كنت أنظر إلى ساقيهما!

«قاسم» بك هو من يرتدي جوربين أبيضين وصندلًا بُنيًّا.

قميصه كحلي اللون ومكوي بعناية.

فقط عندما وقفت بجانبه شممت رائحة عرقه الكريهة.

نهض وصافحني.

ذلك المساء خرجت مع «سليم» وبعض أصدقائه المحامين وزوجاتهم ذوات الشعر الأشقر المصبوغ. ذهبنا إلى مطعمٍ إيطالي في «زنجرلي كويو»، أو ربما هي «إسينتيبي». هذه الأحياء

الراقية في إسطنبول كلها متشابهة ولا تجذبني أبدًا. يؤسفني القول إنني لا أعرف التمييز بين «زنجرلي كويو» و«إسينتيبي».

هناك جرسونات وموظفون في المطعم أكثر من عدد الزبائن. أعددت الزبائن فوجدتهم عشرين فقط. انزعج الجالسون بالقرب منا عندما بدأت التحدث عن مظاهر البطالة الخفية والثورة الاجتماعية الناتجة عنها. أخذوا ينظرون لبعضهم بينما أتحدث ظنًّا منهم أنني لن ألاحظ. ثم قاطعنا الرجل الأصلع الوسيم الجالس مقابلنا ليمتدح لغتي التركية. لم تكن سوى محاولةٍ وقحة لتغيير مجرى الحديث، فغضبت. ولأنتقم قُلتُ له:

- حقًّا؟ ولغتك التركية سليمةٌ أيضًا.

بصراحة، لم يكن الرد من تأليفي، بل قرأته في رواية.

أكره الظن بأن الرجال أذكى من النساء، لكن الرجال فقط هم من يضحكون على دعاباتي المسروقة.

ومع ذلك لم يستسلم الأصلع الوسيم، وسأل:

- أين تعلَّمتِ التركية؟

قررت أن أوقف محاولة انتقامي عندما لمحت «سليم» ينظر إليَّ بغضب، وأجبت الرجل:

- في تركيا.

ثم أضفت:

- لقد وُلدت في تركيا. أمي ألمانية كاثوليكية، وأبي ألماني يهودي هربا من ألمانيا الفاشية واستقرا في تركيان حيث عاشا حتى بعد نهاية الحرب بوقتٍ طويل. ولدت في إسطنبول، وقضيت فيها أوَّل سبع سنواتٍ من عمري.

لبقية الأمسية تجنبوا المواضيع غير السارة مثل الثورة الاجتماعية والبطالة وزيادة الضرائب والانتخابات المقبلة، وفضلوا الضحك على أمورٍ مثل السعر السخيف لزجاجةٍ من نبيذ «كيانتي» البغيض.

لا أقول إنني أكره الرأسمالية، لكنني أكره الأثرياء ما عدا حبيبي وأصدقائي. بالنسبة لأي قارئٍ يظن أنهم يكرهونني كذلك، عليه ملاحظة أن الأصلع الوسيم ظل يعلق على كلامي طوال الأمسية مع وجود زوجته و«سليم».

بمجرد أن ركبنا السيارة، تشاجر معي «سليم» وكأنها غلطتي. تحريًا للدقة.. عليَّ القول إنه كان صامتًا تمامًا. لم يكن يحب الشجار، وبالطبع لن يبدأ وحده، لكن صمته يثير جنوني ويجعلني أتحدث حتى أبدأ أنا الشجار.

هكذا سار الأمر.

- ألا ترى أن الناس غريبة؟ أعنى كلامهم.

لم يرد «سليم».

- أي موضوعٍ جاد يعتبرونه محرمًا.

ما زال صامتًا.

- هل يمكن شرب نبيذ «كيانتي» بهذا السعر؟

لا يجيب.

أريد أن أخدش وجهه.

أريد أن أحطم الزجاج بقبضتي.

أود أن أركله في عينه بكعب حذائي العالي.

وأن أحشر أعقاب السجائر في فمه.

وأسحق مخه.

ثم أرمي بقاياه للقطط الضالة.

كرهت نفسي!

- أوقف السيارة، سأنزل.

توقف مباشرةً! هل فهمتم قصدي؟ وكأننا نمثل مشاجرة عشاقٍ في فيلمٍ فاشل، حيث تنزل الفتاة من السيارة وتغلق الباب بقوةٍ، ثم تركب مواصلات، وفي النهاية يتم اغتصابها أو يقع لها حادثٌ شنيع.

تردد كثير من السباب في عقلي بالألمانية والتركية.

ما كنت لأسب «سليم» بصوتٍ عالٍ بالطبع.

ما زالت معدتي تهضم سمك القاروس الذي كان سعره خمسين دولارًا. يعلم الله من أي بحرٍ أتى، لكن اسمه كان فخمًا في قائمة الطعام ودفع ثمنه حبيبي الذي يُعتبر المحامي صاحب أعلى نسبة ضرائب هذه السنة. أخرجت لفةً من النقود وتركتها على مقعد السيارة بينما أخرج. إن الدفع بالليرة التركية يحتاج إلى كثير من الورق النقدي لأن قيمتها ليست عالية. لن أغلق الباب بقوة، فالموقف درامي وكارثي ومثيرٌ للشفقة بما فيه الكفاية.

مد يده، وأمسك ذراعي قبل أن أغلق الباب، ثم تمتم:

- لا ترسمي هذا التعبير البشع على وجهك.

كلماته كانت صفعةً على وجهي.

لو قال شيئًا آخر مثل «لا تكوني سخيفة»، أو «هل أنتِ مجنونة؟»، لكان أفضل.

أغلقت الباب.

فجأة، فقد كل شيءٍ أهميته؛ البحث عن سكن، وضريبة جمع القمامة التي نسيت دفعها منذ سنوات، والحذاء عالي الكعب السخيف.

قال:

- هلا عدتِ للسيارة من فضلك؟

خرج من السيارة ووقف بجانبي وهو يمسك باب السيارة الذي أغلقته للتَّو، وانتظر. انتظرني لأركب السيارة. ما زالت النقود على المقعد. لو دخلت سأضطر إلى أن أستعيد المال وأضعه في حقيبتي.

لهذا السبب فقط ركبت تاكسي. فقط كي لا أستعيد المال.

لديّ موعدٌ مع محاسبي في العاشرة صباحًا. قبل خروجي من المنزل، تأكدت إن كانت «بيلين» قد وصلت المكتبة أم لا. لم تأتِ بالأمس، لكنها أتت اليوم. لا نتصل كثيرًا ببعضنا، ولا نريد ذلك حتى.

وضعت كريمًا على وجهي لتقليل الانتفاخ حول العينين، لكن لا داعي لإضاعة الوقت في دهن جسمي كله أمام المرأة، لذلك تجاهلت شوائب البشرة وارتديت نظارتي الشمسية الكبيرة، ثم شربت قهوتي التركية السادة في مقهى «فيروز أغا» القريب مني.

من هناك ركبت تاكسي إلى مكتب المحاسب. تشاجرت مع السائق بسبب سرعته الجنونية. الأتراك متهورون في القيادة. جميعهم يسرعون لأعمالهم المهمة دون لحظة تمهل. وكأن الإسراع سيغلق الفجوة التي حفروها بينهم وبين العالم المتحضر. تم تركيب عدادٍ رقمي في إشارات المرور لإظهار الثواني الباقية حتى تغيير الإشارة. تَعِد إشارة المرور الثواني تنازليًّا 20، 19، 18...، 9، 8، 7... وهكذا. نحن نحيا في مدينةٍ، حيث لكل ثانية أهميتها الخطيرة! معظم المارَّة ربَّات بيوتٍ وعجائز.

بمجرد أن يلمح هؤلاء المارَّة أنه بقي سبع ثوانٍ مثلًا على الضوء الأحمر، يبدؤون بالإسراع وكأنها نهاية العالم، فقط لكي لا ينتظروا الضوء الأخضر مجددًا. ماذا سيستفيدون من توفير إحدى وخمسين ثانية؟

كان سائقي أسوأ من المارة. سائقو التاكسي مجانين في العادة. حتى لو لم يكونوا كذلك في الأصل، سيصبحون مجانين بجدارةٍ بعد عامٍ واحد من القيادة في إسطنبول.

من الجيد أنني لم أقد سيارتي وركبت تاكسي هذا الصباح. هدأني جدالي مع السائق. حتى تعليقاته الوضيعة أراحتني كجلسة تدليكٍ ياباني، أو علاجٍ بالعطور، أو «جاكوزي» بالزيوت المعطرة. ربع ساعةٍ في «جاكوزي» دافئ، يليها دهن الجسم بالزيوت المعطرة، فينتعش بالروائح الزكية، وتهدأ أعصابي.

أعطيت السائق بقشيشًا، وهو شيءٌ لا أفعله عادةً أبدًا.

بحلول الساعة الثانية ظهرًا بدوتُ كامرأة جديدة بفضل كريم العيون. جلست مع «بيلين» أدخن في صمت. يا له من يومٍ غير مثمر. بعنا فقط ثلاثة كتبٍ رخيصة.

قررت الاتصال بـ«لالي» إن لم تحدث معجزة ما تمنعني من هذا خلال نصف الساعة المقبل. هاجمني صداعٌ نصفي فتناولت قرصين من الأسبرين. فأنا لم آكل شيئًا منذ سمك القاروس مساء أمس، فشعرت بمعدتي تزمجر جوعًا. ولم يرحني الأسبرين من صداعي النصفي.

أردت حقًّا أن أكون امرأةً عادية أكبر مشاكلها هي البحث عن حضانةٍ مناسبة لابنتها ذات السنوات الخمس في مدرسةٍ مرموقة مثل المدرسة الثانوية الألمانية. أردت أن أجري كثيرًا من الاتصالات بحثًا عن واسطة. هذا هو نوع المشاكل الذي أريده في حياتي، مشاكل تناسب سني.

وددت لو كنت زوجةً ذات شعر مصبوغ تشتكي من شخير زوجها، وترتدي أحذيةً مريحة وخفيفة، وتصوت للحزب الديمقراطي الاشتراكي، وتعيش في مجمعٍ سكني بحمَّام سباحة.

أردت أن يكون هدفي هو خسارة كيلو واحد من وزني. وأن أدخن السجائر النسائية الرفيعة الطويلة ذات الورد في الفلتر، وأن أقرأ روايات رومانسية للكاتبة «دانيال ستيل»، وأشتكي لصديقاتي من زوجي لأنه لم يعد يمارس الحب معي. كما أردت البكاء على أغاني «ماريا كاري».

رنَّ موبايلي مرَّة واحدة ثم توقف.

بحثت في سجل المكالمات الفائتة في الموبايل بحماسٍ بالغ ومحرج، وكأنني أبحث عن كنزٍ ما. وجدت رقمًا واحدًا. ليس «سليم»، لأنه يُفَعِّل خاصية الرقم السري فلا يظهر أبدًا على الشاشة. أما ما وجدته فكان رقمًا ظاهرًا.

أعدت الاتصال برجفةٍ واضطراب.

اتضح أن المتصل هو «قاسم» بك موظف الحكومة المُرتشي من هيئة الإسكان.

سواء أحببته أم لا، إن التليفون يصل الناس بالحياة. شعرت بتحسنٍ بعدما تحدثت إلى «قاسم». اتفقنا على اللقاء هذا المساء في المكان والزمان نفسيهما. إن اللقاء مع أي شخص يحسن مزاجي. أكلت ساندويتشين محمصين من الجبن، وشربت بعض الشاي، ثم ذهبت إلى الصيدلية لشراء

أسبرين لعلاج الصداع النصفي. لم أتصل بـ«لالي»، فهي مكتئبةٌ بما فيه الكفاية، لذلك رحمتها من مشاكلي. والآن عدت لأحب أصدقائي، وأستمتع بالمكياج المتكلف، وأحتفل لأنني لستُ أمًّا لفتاة في الخامسة، ولست مضطرة لدهن جسمي كله بالكريم، كما أحببت كوني غير متزوجة ولا أعاني مشاكل في ممارسة الحب.

سرت من «كوليديبي» إلى ميدان «السلطان أحمد» لأقابل «قاسم» بك، وسط الشوارع التي أنعشها المطر منذ بضعة أيام. أعشق ميدان «السلطان أحمد»، و«القصر المغمور» الذي هو عبارة عن خزان ماءٍ تحت الأرض. اعتدت الذهاب إلى هناك عندما أكون مكتئبةً جدًّا، أكثر حتى من هذا اليوم. المياه المتساقطة من السطح تريحني، لكن أليس هذا نوعًا من العذاب؟ هل يمكن استخدام أي شيء لتعذيب الناس؟ هل يتكون العذاب من شيءٍ يسعد الناس عادةً؟

ذات مرَّة تحسست بيدي جدران الخزان الخارجية البارزة على الرصيف، وكأنها تضم مكانًا مقدسًا أو ضريحًا. نظر الموظفون إليَّ بغرابةٍ وهم يحاولون غلق الأبواب أعلى السلالم التي تدور وتلف وكأنها تنزل للأسفل إلى ما لا نهاية.

كنت أنا و«قاسم» بك نشرب الشاي ونتحدث عن الانتخابات المقبلة. حاولت تخمين الحزب الذي سيصوت له، ولكنني لم أسأله. لا ينزعج الأتراك من هذه الأسئلة ولا من السؤال عن المرتب. ظل «قاسم» بك يشكو من صعوبات المعيشة بمرتبه الحكومي الزهيد، وهي مقدمةٌ واضحة لطلب رشوة. أخيرًا، طلب مبلغًا وقال إنه لن يأخذه وحده، بل سيوزعه على آخرين لقضاء المصلحة. يعني سيتقاسمونه جميعًا. أما أنا فحولت المبلغ إلى يورو. لم يكن كثيرًا. طلب ثلاثمائة يورو، أي ضعف الإيجار الإضافي الذي طلبته مالكة العقار. إنه مبلغٌ بسيط وقليل. سأدفعه على أي حال لأنه سيعطيني فرصةً لشراء شقةٍ والهرب من جبروت مالكات العقارات للأبد. إن فشل الأمر سأعتبره مقامرةً خاسرة.

ذهبت لسحب بعض المال من البنك، وانتظرني «قاسم» بك في الحديقة. معه قائمة بأربعة عناوين في «كوليديبي» أوشكت أن تتسلَّمها وزارة المالية.

قال:

- ما زالت المحكمة تدرس الوضع، وعندما تنتهي سيتم عرض الشقق للبيع. تفقديها كلها يا آنستي، وسنختار ما تعجبك أكثر.

قبل عودتي إلى المنزل، ذهبت إلى مقهى «كاكتوس»، حيث انهرت على أقرب كرسي مثل متشردٍ عجوزٍ ووحيد، ثم أكلت سلطة، أشعر بأنها مضادة للاكتئاب ومريحة للأعصاب.

لكن مثل كل المتع البسيطة، لم تدم لذة السلطة طويلًا.

كنت أفضل حالًا وأنا عزباء دون «سليم» وقبل أن يدخل حياتي. لأنه كان لديَّ أملٌ خفي في بدء علاقةٍ أبدية. كما خرجت في بضعة مواعيد مع قليلٍ من الرجال.

بالتأكيد لم أكن معذبة ومتألمة مثل حيوانٍ جريح.

وضعت يدي على قفصي الصدري وكأنني أعاني ألمًا جسديًّا. هل يمكن أن يشعر القلب المجروح عاطفيًّا بألمٍ حقيقي؟ هل نسيت كل آلامي من فترة العزوبية؟ هل نسيت كيف تتردد كلمةٌ واحدة في عقل الإنسان مثل أسطوانةٍ مشروخة؟ فتحت فمي على وسعه وكأنني أصرخ بصمت. كما كنت أفعل وأنا صغيرة. مثل الصرخات التي كنت أطلقها تحت أغطية السرير.

لماذا تبدو هذه المشاجرة مهمة؟ لم يكن شجارًا فعليًّا.

لا أريد التحدث عن كيفية قضائي لهذه الليلة. تربيت على مبدأ أن يعتمد الإنسان على نفسه وقت الأزمات ولا يظهر هزيمته أبدًا. إنه تفكيرٌ برجوازي سخيف زرعوه بداخلي. أو ربما يتعلَّق بالوراثة، وليس التربية.

شعرت بتحسنٍ في الصباح، وهذا أدهشني. الحياة مليئةٌ بالمفاجآت! ألا يدهشك أن الناس لا يمكنها تنبؤ حالتها المزاجية عند الاستيقاظ؟ شعرتُ وكأنني قضيت أعوامًا أتأمل مع رهبانٍ صلع في معبدٍ بوذي، حيث تنسج العناكب خيوطها على الأبواب. شعرت وكأنني أطير، وكأن وزني أصبح سبعة عشر كيلوجرامًا فقط، لكنني تمالكت نفسي قدر المستطاع.

ارتديت ثيابًا ملونة تتكون من بلوزةٍ خضراء لها فتحة رقبةٍ واسعة، وجيبةٍ صفراء بلون الرمال ومفتوحة قليلًا من الخلف، وحذاءٍ أحمر بكعبٍ سخيف. شعرتُ بأنني عدت للحلبة مجددًا، لكن هذه المرَّة بشعرٍ برتقالي. وأحسست أن الشعر البرتقالي أعطاني فرصةً أكبر في إيجاد رجلٍ يظل معي للأبد.

بمجرد خروجي من المنزل أدركت أنني لست متماسكة بما فيه الكفاية. هذا واضح، لأنني بالكاد أقف باستقامة.

شعرت بالدم يندفع عبر ساقيَّ بينما أسير إلى سيارتي. كان سائلًا دافئًا ولزجًا. شعرت بالقلق، فتحسست ساقيَّ بيدي. إنه مجرد عرق. عرق! رد فعلٍ جسدي على معاناةٍ عاطفية أو جسدية. كلما كنت في هذه الحالة، شعرت بأنني أنزف. لكن هذا لم يحدث أبدًا بالطبع.

ركبت السيارة وضغطت على الفرامل. هناك أربعة عناوين سأذهب إليها. يجب أن أركز على الشقق. سأجد ما أريد. أحد العناوين التي أعطاني إياها «قاسم» بك بالأمس ربما يكون منزلي المستقبلي. وإن لم يعجبني أيٌّ منها لن يضيع مالي بالطبع، لأنه سيبحث لي عن غيرها حتى أجد ما يعجبني.

قال بكل صدق: «نحن لسنا مخادعين يا آنستي». هل يمكن تصديق موظفٍ حكومي مُرتشٍ؟ لا أعرف بصراحة. فأنا لست معتادةً على الرشاوى. ليس لديَّ ما يدفعني لذلك. لماذا قد تحتاج صاحبة مكتبةٍ صغيرة إلى دفع رشوةٍ لأي شخص؟

على عكس المتوقع، لم تضطرب معدتي خوفًا وأنا أسلمه الرشوة. لم أشمئز من نفسي عندما أعطيت المال لـ«قاسم» بك. كثير من معارفي يدفعون رشاوى، ربما هذا هو السبب.

«سليم»!

بذلت جهدًا خارقًا لأمنع نفسي من التفكير في هذا الاسم فقط. أحتاج إلى أن أجد شقةً لأستجمع أفكاري. شراء شقةٍ يعني أن أنفق كل أموالي وأبيع سيارتي وأقترض مالًا من أمي وأخي. نعم، لشراء شقة.

انظروا إليَّ، هل فكرت أبدًا في شراء شقةٍ؟ ألم أكن أبحث عن شقةٍ للإيجار؟ كيف مِلت بسرعةٍ إلى فكرة شراء شقة وتكديس الديون واكتساب معارف في المدينة؟!

لم أكن في مزاجٍ يسمح لي بالبحث عن مكانٍ أركن فيه مجانًا، لذلك تركت سيارتي في جراجٍ صغير بالقرب من حديقتي المفضلة في «كوليديبي». من هناك بدأت السير لأبحث عن العناوين. بدا أوَّل مبنيين مخيبين للآمال من الخارج، لكن الأول كان أفضل من الثاني. كان الأول منزلًا منفصلًا، بابه الأمامي بارزٌ وله حديقةٌ خلفية على الأرجح. أتحدث عن منزلٍ حقيقي وليس شقةً في بناية. كانت تعيش فيه عائلة كثيرة الأطفال، ما يعني طردهم منه لو اشتريته.

كان العنوان الثالث خلف الثاني بالضبط في شارع «باباغان»، وهو أحد الشوارع التي تطل على ميدان «كوليديبي». لقد مررت به كثيرًا، ليس الشارع وحسب، بل البناية نفسها. وفي كل مرَّة كنت أنظر لها بإعجاب. كيف لم أدرك أن أحد العناوين في قائمة «قاسم» بك هو تلك البناية؟

كدت أنهار وأبكي أمام الباب.

كانت هذه مفاجأةً أخرى.

يا لها من حياة!

لم أستطع رؤية شقتي المستقبلية لأن أحدًا لم يفتح الباب، لكنني رأيت الشقة التي تحتها عندما عُدتُ بعد عشر دقائق. قُلتُ للرجل الذي فتح الباب كلامًا سخيفًا بلهجةٍ مقنعة عن أنني سمعت عن شقةٍ للبيع بالقرب من المكان، وسألته إن كان يعرف واحدةً في البناية.

كانت ملامحه منغولية تشبه ملامح التتار، وبدا منزعجًا من ثرثرتي أكثر مني.

رد بجدية:

- تأخرتِ يا سيدتي. لقد بيعت هذه منذ شهر.

- أنت تمزح.

- ولماذا أمزح بهذا الشأن يا سيدتي؟ كانت للبيع ثم جاء مُشترٍ ودفع اثنين وثلاثين ألف دولار. أعطانا الملاك الجدد مهلة ثلاثة أشهرٍ كي نغادر. لا أعرف ماذا ينوون أن يفعلوا بها. أظنهم

سيعيشون فيها. ازداد إقبال الناس على هذه المنطقة مؤخَّرًا. أنت تعرفين ذلك بالطبع بما أنك تبحثين هنا أيضًا.

قُلتُ:

- حسنًا، لكن هل يمكنني إلقاء نظرةٍ سريعة بالداخل كي آخذ فكرةً عن الأسعار؟

فتح الرجل الباب على وسعه، لكن قبل دخولي قال إنه يظن أنه رآني من قبل.

قُلتُ له:

- نعم، نحن جيران نوعًا ما. فأنا أملك المكتبة في شارع «لوكوم».

سأل الرجل:

- وأين شارع «لوكوم» هذا؟

هكذا هم الأتراك، لا يعرفون اسم شارعٍ على بعد بضعة أمتارٍ منهم. لذلك يصفون الشوارع بالمباني القريبة منها، مثل جامعٍ، أو صيدليّة، أو سوبر ماركت، أو مدرسة، أو مستشفى.

أجبته:

- إنه الشارع الذي يمتد حتى المدرسة الثانوية النمساوية.

قال:

- فهمت، هل هناك مكتبة؟ لم أنتبه لها من قبل. هذا غريب، فأنا أحب القراءة، لكني لا أملك الوقت حقًّا بسبب العمل وكل شيء آخر. تعرفين مشاغل الحياة.

تمتد البناية بطول الشارع مثل «ليموزين» فاخرة تدور في منحنى حاد. تطل النوافذ الخلفية كلها على مضيق البوسفور، وهذه ميزةٌ نادرةٌ جدًّا. المنظر من الطابق الأول كان خلابًا. يمكن رؤية البوسفور حتى من نافذة الحمَّام. كما يمكن رؤية قصر «توبكابي» في منطقة «سراي بورنو» على التل في الخلف. لو أملت رأسك يمينًا، سترى المبنى الذهبي لمحطة «سيركيجي» التي كانت المحطة الأخيرة لقطار الشرق السريع قديمًا. كما سترى المآذن التي حولت كاتدرائية «آيا صوفيا» إلى جامع، وعبَّارة سيارات تنتظر عند الشاطئ، وعبّارة أفراد تحاول الخروج من رصيف الميناء في منطقة «كاراكوي»، وناقلة نفطٍ داكنة اللون، وقوارب صيدٍ صغيرة بدت كأشواكٍ طافية على الماء. أما على مرمى البصر يسارًا، فيوجد جسر البوسفور الذي تتدفق عليه السيارات. يا لعجائب إسطنبول!

لا بد أن المناظر من الشقة المعروضة للبيع ستكون أكثر روعة، فهي أعلى من هذه، تقع في الطابق الثاني. مساحة الشقق 220 مترًا مربعًا، بها ست غرفٍ بالإضافة إلى غرفة معيشة. لم أخطئ بالكتابة. إن مساحتها حقًّا 220 مترًا مربعًا، وبها ست غرفٍ، إضافةً إلى غرفة معيشة. لا

توجد حمَّامات بالطبع، فعمر المبنى مائة وخمسون عامًا. سقفه عالٍ جدًّا! نعم، كانت حالته متهالكة، لكن هذه أقل همومي الآن.

(3)

اتصلت بـ«قاسم» بك بمجرد أن عدت للمكتبة. قال إنه لم يسمع شيئًا عن بيع الشقة، لكنه سيسأل محامي الجمعية ليعرف منه كل شيء، ثم سيتصل بي في أقرب وقت.

سألته:

- لم يفتح لي أحدٌ الباب، لذلك لم أرَ الشقة من الداخل. هل يمكنك مساعدتي؟

- كوني صبورةً يا آنسة، لا تتعجلي. فالصبر مفتاح الفرج.

لكنني لستُ صبورةً بطبعي. لم أكن كذلك أبدًا. أريد رؤية بيتي الجديد اليوم، أو غدًا على الأكثر. لا أستطيع الانتظار حتى أرى الشقة، وأخطط كيف سأفرشها، وما اللون الذي سأدهنها به، وأي غرفةٍ ستصبح الحمَّام.

على مدى العامين السابقين أدركت أنه لا فائدة من الجلوس وانتظار الزبائن، فخرجت من المكتبة لقضاء مشوار.

ليتني لم أفعل، وليتني لم أتشاجر مع «سليم»، فهذا جعلني أنشغل بموضوع شراء الشقة كوسيلةٍ لتخطي الأزمة. ليتني كنت هادئةً وصبورة وانتظرت اتصال «قاسم» بك.

لكن هذا ليس ما حدث.

على الإطلاق.

لم يكن هناك تحذيرٌ من الكارثة المقبلة.

بل حلَّت فجأة.

أوَّلًا، دُرت حول البناية. يا إلهي، إنها ساحرة! لها جمالٌ يهز روحك، ثم وقفت أمامها لأقيس مساحتها، وحاولت أن لا أثير الشُبهات. لا بُدَّ أنها تزيد على تسعةٍ وثلاثين مترًا. غير معقول!

دخلت وصعدت السلالم الرخامية لأرى بيتي المستقبلي. ما زال الباب الأمامي مغلقًا. بالطبع لا يوجد سبب ليظل الباب مفتوحًا في شقةٍ بلا ساكن، لكن بما أنني عشت بوضع اليد في مبانٍ كثيرة عندما كنت طالبة في برلين، أظنني أملك الخبرة اللازمة في هذه الأمور. وأنا متأكدة من أن هناك من يعيش في هذه البناية بوضع اليد. على الأرجح عائلة لديها سبعة أو ثمانية أطفال. طرقت الباب مجددًا، لكن بإصرارٍ أكبر هذه المرَّة.

وضعت أذني على الباب متوقعة سماع الخطوات المتثاقلة لأمٍّ متعبة لديها سبعة أو ثمانية أطفال. بعد قليل طرقت مجددًا بينما أبحث عن جرس. ليتني سألت الساكن في الطابق السفلي عمَّن يسكن

هذه الشقة. حاولت ثانيةً، لكن هذه المرَّة طرقت بقبضتيَّ الاثنتين.

صاح أحدٌ من الداخل:

- مهلًا! الصبر.

ثم انفتح الباب فجأة.

وجدت نفسي أمام رجل. لم أعرف ماذا أقول. هل أقول له لماذا طرقت الباب؟ لم يجد الرجل ما يقوله أيضًا. أوَّلًا، تفحصني بنظره من أعلى لأسفل، ثم مال للأمام لينظر جيِّدًا إلى فتحة البلوزة الخضراء. كان أنفه كبيرًا، وبشرته داكنة تكاد تكون بلون الباذنجان. هناك شيءٌ جذَّاب بشأنه. إما هذا، وإما إنني ما زلت غاضبة بسبب شجاري مع «سليم».

قُلتُ:

- مرحبًا، أخبروني أن هناك شقة للبيع في هذه البناية، هل هذه هي؟

قال وهو يغلق الباب:

- لا، ليست هذه.

سألته:

- هل هذه شقتك؟

- نعم، هي كذلك.

من الواضح أنه يكذب.

وضعت يدي على الباب لأمنعه من غلقه وقُلتُ:

- هل يمكنني الدخول ورؤيتها؟

لوَّح بيده في الهواء بعدم اقتناعٍ بكلامي، وقال:

- لقد أخبرتك بالفعل أنها ليست للبيع. ما فائدة رؤيتها؟

لو كنت من النوع الذي يهاب المُتنمِّرين، لبقيتُ في المنزل لا أفعل سوى التطريز أو الخياطة.

سمعت صوت رجلٍ بالداخل يقول:

- هيا يا «عثمان»! لا أستطيع الانتظار أكثر.

رد «عثمان» بفظاظة:

- أنا قادم.

ثم أغلق الباب في وجهي.

لا أمارس ألعاب القوى، ولم أزعم أبدًا أنني قادرة على تحطيم دستة من ألواح الرخام بقبضتي. باختصار، مستحيلٌ أن أمنعه من غلق الباب. خياري الوحيد هو أن أضع قدمي بالداخل وأحشر جسدي بين الباب والإطار، وهذا ما فعلت.

اختفى التهذيب الذي سمعته في صوته للتَّو وقال:

- ماذا تفعلين؟ ماذا تريدين؟

كان منزعجًا، وكذلك أنا. بأي حال، كنت أبحث عن أي شخصٍ أتشاجر معه ليدخل السجن.

قال:

- مهلًا، ألا أعرفكِ؟

لم أرد. كنت منشغلة بالتفكير في الخطوة التالية التي سأقوم بها. أدرك تمامًا أنني أتصرف كالمجانين.

قُلتُ بعصبية:

- أريد رؤية الشقة.

- لماذا أنتِ مزعجةٌ هكذا أيتها المرأة الغريبة؟

أمسك بذراعي وحاول دفعي للخارج.

أما الرجل الذي بالداخل لم يزعج نفسه حتى بإلقاء نظرةٍ على ما يحدث في الخارج.

كررت كلامي:

- أريد فقط رؤية هذه الشقة.

نقر بسبَّابته على أذنه وقال:

- قُلتُ لكِ إنها ليست للبيع. هل أنتِ صماء؟

قُلتُ:

- لا، لست كذلك. كيف لأحمقٍ مثلك أن يعرف إن كانت الشقة معروضةً للبيع أم لا؟

- ماذا قُلتِ؟

- قُلتُ: أحمق، أحمق لعين!

أمسك الأحمق بعنقي وبدأ يعتصره. ليس بشدة، أعني لم يخنقني بقوةٍ كافية لقتلي. لكن اللحظة التي تركني فيها بدأت أصرخ. ما زلت في ذلك الفراغ بين الباب والإطار وظللت أصرخ:

- أريد الشرطة! الشرطة! النجدة!!

لا بد أننا بدونا سخيفين. غطَّى الرجل أذنيه بيديه وبدأ يصيح:

- اصمتي! اصمتي بالله عليكِ!

على الرغم من الضوضاء والجلبة، لم يخرج الرجل الذي في الداخل. شعرت بالدهشة حتى أثناء صراخي.

وفكرت بغرابة الأمر أكثر فيما بعد.

جاء لمساعدتي ذلك الرجل الذي يشبه التتار من الطابق السفلي، كما أسرع إليَّ بعض العمال الرومان الذين يعملون في الطابق العلوي، لكن الرجل «التتاري» هو من أنقذني. دعاني لدخول شقته وطلب لي بعض الشاي.

دخنت نصف سيجارتي حين سألني:

- ماذا حدث يا سيدتي؟

- أردت رؤية الشقة من الداخل، لكن الرجل غضب بلا سبب.

- لماذا؟ لقد رأيتِ شقتي منذ وقتٍ قصير، وباقي الشقق لها التصميم نفسه. إذًا لماذا؟ لماذا أردتِ أن...؟

- الشقة العليا على وشك أن تُعرض للبيع. من الواضح أنها بلا مالك. كانت ملكًا لإحدى العائلات اليهودية التي عاشت في «كوليديبي». العقارات التي بلا مالك تنتقل إلى وزارة المالية ويتم بيعها بعد فترة.

ضحك قائلًا:

- عزيزتي، هل تظنّين أن هؤلاء الرجال سيتركونكِ تحصلين عليها؟ هل تعرفين من هم؟ إنهم ليسوا مثلنا. بالتأكيد تفهمين قصدي!

- ماذا تعني بأنهم ليسوا مثلنا؟

رفع ساقي بنطلونه بحرص ليجلس أمامي مباشرةً وقال:

- الجميع يعرف ذلك. تعرفين الجراج المجاور للبقال، صحيح؟ منذ متى تعيشين في «كوليديبي»؟

- أكثر بقليلٍ من أربع سنوات.

- فهمت، في تلك الحالة لا تعرفين عن المبنى الذي تم هدمه هناك، فهذا حدث منذ ست سنوات. هل تريدين مزيدًا من الشاي؟ سأطلب المزيد حالًا. لقد مررتِ بشجارٍ للتَّو والشاي سيهدئ أعصابك. اعذريني قليلًا، سأطلب الشاي وأعود.

يبدو أني قابلت رجلًا «تتاري إسطنبولي» مهذبًا في هذا المكان الغريب.

عندما عاد رفع ساقي بنطلونه بحرص مجددًا ليجلس دون أن يتكسر سيف البنطلون المكوي، ثم قال:

- حسنًا، ماذا كنت أقول؟

- الجراج.

- نعم.

ضم شفتيه وهزَّ رأسه قليلًا، ثم واصل الكلام:

- منذ ست سنوات، كان هناك مبنى تاريخي في مكان الجراج. لا أعرف إن كان له مالك، لكن حتى لو كان لديه فلن يصنع فارقًا. هؤلاء الرجال لا يزعجون أنفسهم بمالك عقار. كوني شاكرة لأنكِ نجوتِ. لا بُدَّ أنكِ سمعتِ ما حدث في «أورتاكوي». لقد أحرقوا مدرسةً ضخمة. ليس الرجال أنفسهم بالطبع، لكنهم في المجال نفسه. إنهم يحرقون المباني ليصنعوا جراجات. لا بُدَّ أنك سمعتِ عن المدرسة التي أحرقوها لأن الناظر لم يسمح لهم بتحويل الملعب إلى جراج.

- لم أعرف بهذا، فأنا لا أقرأ الصحف.

أومأ برأسه في فهم ولم يعلق. مرَّر سبَّابته على الطاولة المجاورة له ونظر بتمعُّن ليرى إن كان هناك غبار، ثم حكَّ سبَّابته وإبهامه معًا.

مال برأسه وبدا محرجًا قليلًا وهو يسألني:

- عذرًا، لكن هل يمكنني أن أسألك سؤالًا؟

يا للهول، ترى ما الذي يريد أن يسأله ويسبب له هذا الحرج؟

أجبته:

- بالطبع.

- هناك لكنةٌ خفيفة في كلامك، وقد أثارت فضولي. هل أنتِ مهاجرة؟

تنفَّست الصَّعداء وقُلتُ:

- نعم.

- ربما من البلقان؟ أتمنى ألَّا يزعجكِ سؤالي.

- من ألمانيا.

- هل أنتِ ابنة أحد العمال؟ لو كنتِ كذلك، فلا تعتبرين مهاجرة.

هل بدا مُحبَطًا؟ قُلتُ له:

- والداي ألمانيان وليسا تركيين.

قال وهو يفتح ذراعيه حتى ظننت أنه سيعانقني، ولكنه لم يجرؤ على ذلك:

- تقصدين أن لغتكِ الأم هي الألمانية؟ ومع ذلك تتحدثين التركية بطلاقة؟ أنت تتحدثينها أفضل من بعض الأتراك، في حين أن ملامحك بالتأكيد أجنبية، لكن هناك أنواعًا مختلفة من الأتراك.

بالطبع يجب أن يتفوه هذا الرجل بهذا التعليق بالذات.

أردت إنهاء الحديث وحسب، فقلت:

- نعم، أنت محق. عليّ العودة إلى مكتبتي. يمكنكزيارتي في أي وقت إذا سمح أردت.

- لا يمكنكِ المغادرة بعد، لقد طلبت الشاي بالفعل. سيصل في أية لحظة. اجلسي، لن أدعكِ ترحلين هكذا. ما زلتِ مصدومةً مما عانيتِ.

لا أعرف كم كوب شاي كنت سأضطر لشربه إن لم تتصل بي «بيلين» على الموبايل.

علمت أنه سيكون يومًا غريبًا حتى قبل أن أستيقظ. في تلك الحالة بين اليقظة والنوم، لم أحتمل فكرة عدم وجود رجلٍ في حياتي. بدأت أبكي في نومي، لكنه لم يكن حلمًا، بل حقيقة.

لكنني لن أخبر أحدًا أبدًا. مستحيل.

ذهبت للمكتبة مكتئبة ولم أتأنَّق. لم أجد «بيلين» مجددًا، ولم أغضب من ذلك. في الظهيرة دخل زبونان. أحدهما اشترى أشياء كثيرة. كان ذاهبًا في إجازة وقال إنه دومًا يقرأ روايات الجريمة عندما يسافر لتصفية ذهنه. بصراحة، لم يبدُ من النوع مشغول البال، لكنني احتفظت بأفكاري لنفسي بالطبع. لن أتجادل مع كل شخصٍ يتبادل معي بضعة كلمات، بالذات لو كانوا زبائنَ.

رنَّ التليفون ثلاث مرَّات، لكن أيًّا منها لم يكن اتصالًا صامتًا مثلما يفعل الأتراك عند نهاية العلاقة، هذا بحكم خبرتي. فهم يتصلون بعشاقهم السابقين ثم يغلقون الخط دون كلام، فقط ليتأكدوا من أنه لم يتم نسيانهم بعد. من الواضح أن «سليم» ظن أنه لا داعي لأن يذكرني به، وهو مُحقٌّ.

أمضيت الوقت بالجلوس على الكرسي الهزَّاز ووضع المكياج حين انفتح الباب بصخب، فكادت فرشاة الماسكارا تفقأ عيني.

إنه الرجل التابع لعصابة الجراجات. الرجل الذي اعتصر عنقي.

نهضت فورًا وصحت:

- ماذا تريد؟

أدركت فيما بعد أن عجلتي جعلتني أوقع فرشاة الماسكارا وأدوس عليها.

قال الرجل بغضب:

- اللعنة، من تظنِّين نفسكِ؟

صحت به:

- لست في مُلكك الآن أيها الوقح! لذلك حاذر ألفاظك.

أدهشتني شجاعتي الجنونية في هذا الموقف. بالطبع، لم يكن الموقف يحتاج إلى شجاعة حقيقية، فالقهوجي «ريجاي» ونصف سكان المنطقة يحتشدون خارج المكتبة، وأعلم أنهم سيتدخلون إذا لزم الأمر.

فكرت في مناداة الشرطة مجددًا لأقلق الرجل. لكن هذه المرَّة قد تحضر الشرطة بحق، وأنا حقًّا أكره الشرطة بقدر كرهي مالكي الجراجات أو المقاولين.

اندفع الرجل نحوي وكأنه ينوي خنقي مجددًا، لكن الوضع يختلف هذه المرَّة، فلو سمحت له بتكرار فعلته ستنهار هيبتي التجارية في المنطقة. عليَّ التصرف بسرعة، لذلك اتخذت قرارًا متهورًا.

لا داعي للمماطلة، التقطت طفاية السجائر السيراميك وضربته بها على رأسه.

سمعت صوت تهشمٍ وكأن صخرتين اصطدمتا ببعضهما.

كان صوتًا غريبًا جدًّا.

ضربته بالطفاية فوق أذنه اليسرى، فبدأ ينزف.

لا أعرف إن كان النزيف من أذنه أم رأسه، لكنه ينزف بغزارة، ما ترك بُقعة دماءٍ ضخمة حول ياقة قميصه الأصفر. دخل «ريجاي» ورفاقه فورًا، ونظروا برعبٍ إليَّ وإلى الرجل الذي بدا مصدومًا وكأنه رأى طبقًا طائرًا، ثم نظروا للدماء التي تقطر من يده التي رفعها إلى رأسه. أما أنا فوقفت صامتة. ماذا أقول؟ تمنياتي بالشفاء العاجل؟

هل السبب هو أفلام الأكشن التي أشاهدها؟ هل أثرت في أفلام مثل «نادي القتال Fight Club»، و«ماتريكس The Matrix»، وجرعة مكثفة من أفلام «جيمس بوند»؟ أم هذا بسبب روايات الجريمة؟ هل قادتني روايات «روث رندل» و«باتريشيا هايسميث» البوليسية إلى هذا التصرف؟ ربما ما كان ليحدث هذا لو كنت مثل باقي النساء، أشاهد أفلامًا، مثل «الشاي والتعاطف Tea and Sympathy»، و«ذهب مع الريح Gone with the Wind»، وأقرأ «وداعًا أيها السلاح Farewell to Arms» لإرنست همينجواي. لماذا لم أفتتح مكتبةً لبيع الروايات الرومانسية؟

تمالك الرجل نفسه وخرج وهو يهدد ويتوعد. أسرع سيد «فيسيل» النجار إلى المطبخ ليحضر لي كوبًا من الماء. أجلسوني وأعطوني سيجارةً وأشعلوها. الطريقة التي ربتوا بها على ظهري أظهرت أن هيبتي تضاعفت في المنطقة.

طبعًا ريجاي» كان أوَّل من سعى لإرضاء فضوله، وسألني:

- ماذا حدث يا آنسة «كاتي»؟

- لقد رأيت ما حدث.

- هل أراد شيئًا منكِ؟

- لماذا لا تسأله يا «ريجاي»؟

قال السيد «فيسيل»:

- علينا العودة لأعمالنا الآن يا آنسة.

- بالطبع. أشكركم جميعًا.

غادروا واحدًا تلو الآخر.

بعد ذلك بقليل، عاد السيد «جعفر» من مطعم الوجبات الخفيفة، وقال:

- لا تسيئي فهمي يا آنسة «كاتي»، لكنني أشعر بأنه عليَّ قول هذا. فنحن جيران منذ سنواتٍ طويلة وبيننا أعمال...

في الواقع، إنه عملٌ من جانبٍ واحد. أنا أدفع له مقابل الساندويتشات التي أشتريها منه، لكنه طوال هذه السنة لم يشترِ مني كتابًا واحدًا، لكنني قُلتُ له:

- بالطبع يا سيد «جعفر».

هؤلاء الرجال بلطجية. أنتِ تعرفين ذلك. تأكدي من أن لا تتركي المكتبة خالية من الآن فصاعدًا، فهي مصدر رزقك. يقول الناس إنه من الأفضل سرقة مالك بدلًا من قتلك، لكنهم يقولون أيضًا إن

المال مفتاح الحياة. من واجبي قول ذلك لأنكِ مثل ابنتي.

قُلتُ له:

- شكرًا يا سيد «جعفر». شكرًا جزيلًا.

لست غبية، وكنت أفكر بالطبع فيما يجب عليَّ فعله. فأنا مجرد امرأةٍ ضعيفة تعود لمنزلها مساءً. ستكون الشوارع فارغة، والمكتبة خالية.

ستكون المكتبة خالية، لكنَّ هناك تأمينًا! هاها! تأمينًا ضد الهجمات الإرهابية والعنف والفيضانات وقطع الكهرباء والزلازل والحرائق وكثير من الأشياء الأخرى، سواء كنت في المكتبة أم لا. إن بوليصة تأميني التي أجددها سنويًّا ولا أبخل عليها تنتظرني.

في طريق عودتي إلى المنزل، خططت لقضاء الأمسية كلها وأنا أتناول آيس كريم الفراولة وأحلم بمبلغ التأمين. سئمت من البحث عن سكن، ومن الرجال الأتراك، ومن محاولتي بيع منتجٍ غير استهلاكي للناس، مثل اللحوم والبطاطس في بلدٍ يُعاني أزمة اقتصادية.

بالطبع، يمكنني العيش في برلين، لكن لا شيء أسوأ من هذا!

أم هناك ما هو أسوأ؟

هل ستكون حياتي أسوأ في برلين حقًّا؟ حيث يمتد الشتاء ثمانية أشهر، ويسقط الثلج في أكتوبر، وتكون الشوارع مهجورة، ويبدو الناس كئيبين ولئيمين وغير راضين؟

شردت في التفكير حتى رنَّ جرس الباب بلا انقطاع.

إنها «بيلين». بدت في حالةٍ يُرثى لها. قبل أن تدخل الشقة سألتني إن كان يمكنها البقاء معي. نظرت إلى حقيبتيها الضخمتين فأدركت أنها لا تعني بالتأكيد قضاء ليلةٍ واحدة. طبعًا ما كنت سأرفض طلبها أبدًا حتى لو أرادت قضاء مائة ليلة. فما زال هناك خيرٌ في الدنيا.

لم تبدُ راغبةً في الحديث، لذلك أخبرتها بما حدث لي. وأفهمتها بوضوحٍ أن الأمر كان سيختلف لو تفضلت بالحضور إلى العمل هذا اليوم.

قالت «بيلين» بضيق:

- إذًا، لم يعد لديَّ حبيبٌ أو وظيفة.

كيف تقول ذلك؟ إن عملي الذي تعبت وشقيت من أجله ينهار، وهي لا تتعاطف معي حتى.

قُلتُ لها:

- ربما تشعرين بتحسُّنٍ لو أخبرتكِ أنني انفصلت عن «سليم».

- ستتصالحان.

فكرت بكلامها. هل تظن حقًّا أن «سليم» يحبني بهذا القدر؟

سألتها:

- لماذا تقولين ذلك؟

- لقد انفصلتما مؤخرًا، صحيح؟ لم يمضِ أسبوع واحد.

نظرت للأسفل وقُلتُ:

- الأمر مختلف هذه المرَّة.

- قُلتُ إنه مختلفٌ المرَّة السابقة أيضًا. لا ينفصل الأحباء إلا إذا دخل طرفٌ ثالث بينهما. أمَّا إذا تشاجرا وحسب، فهما يتصالحان دائمًا.

من الممل أن تتفلسف فتياتٌ في سنها عن العلاقات. هذا يغيظني.

سألتها:

- هل هناك فتاةٌ أخرى في حياة «دينيز»؟

- المطربة التي تغني في فرقته، اسمها «نورتن». إنه ينكر بالطبع. هذه خطة الرجل التقليدية، إنكار كل شيء حتى لو كشفته في السرير مع امرأةٍ أخرى.

- ربما ينكر لأنه لا يوجد حقًّا أي علاقةٍ بينهما.

- لقد اتصلت بها.

- يا إلهي! ماذا فعلتِ؟!

- اتصلت بها.

- ثم؟

- كان الأمر مريعًا.

- ماذا تعني؟ ماذا قُلتِ لها؟

- سألتها إن كانت تعرف أن «دينيز» لديه حبيبةٌ بالفعل.

- رائع! وماذا قالت؟

- قالت إن الأمر ليس جدِّيًّا، بل مجرد علاقةٍ جسدية!

وضعت يدي على صدري من الصدمة، فهذه العلاقات العصرية متحررة أكثر من اللازم حتى بالنسبة إليَّ.

قُلتُ:

- هذا مُريعٌ بالفعل.

- أخبرتكِ.

- ماذا سيحدث الآن؟ ماذا ستفعلين؟

- لن أفعل شيئًا. انتهى الأمر. ستساعدينني إن سمحتِ لي بالبقاء معكِ حتى أجد مكانًا أعيش فيه. عليَّ أن أحزم أمتعتي من منزل «دينيز»، وأن أستقل بحياتي.

ثم جمعت شعرها فوق رأسها، وأضافت:

- والآن عليَّ البحث عن وظيفةٍ أيضًا على ما يبدو.

سألتها:

- هل تريدين بعض آيس كريم الفراولة؟

(4)

ما زالت المكتبة موجودة؛ سليمةً، وراسخةً. لقد انشغلتُ بالفعل في فكرة الحصول على مبلغ التأمين. لا أعرف هل أبكي أم أضحك. لقد تحضَّرت نفسيًّا لحزم أمتعتي في الظهيرة والسفر إلى جزر «الباهاما»، أو جمهورية «الدومينيكان»، أو حتى إلى مدينة «أنطاليا» الساحلية بجنوب تركيا. والآن، بما أنني لا أستطيع مغادرة إسطنبول، عليَّ نسيان هذه الخطط والبحث عن مسكنٍ وحبيبٍ من جديد. كما عليَّ إخبار «قاسم» بك أنني تخلَّيت عن الشقة الواقعة بشارع «باباغان»، وعليه أن يجد لي غيرها. وربما أستطيع التصالح مع «سليم»، وأيضًا يجب أن أدفع ضريبة جمع القمامة المتراكمة عليَّ. إن أعباء الحياة ثقيلةٌ جدًّا على كتفيَّ الضعيفين.

دخلت المطبخ لأعد بعض الشاي، ثم سمعت الباب ينفتح. ظننت أن «بيلين» استيقظت أخيرًا وجاءت للعمل، لأنه من غير المرجح أن يكون زبونًا. أي تركي هذا الذي سيلجأ إلى الكتب ليعرف كيفية مواجهة أزمة البورصة مثلًا؟

نظرت خارج المطبخ.

مستحيل! لا يمكن!

إنه «باتوهان».

لم أستطع إخفاء دهشتي وأنا أقول:

- مرحبًا!

- لماذا أنتِ مندهشة؟ أليس منطقيًّا أن أكون أوَّل من يطرق بابكِ حاليًا؟ أم لم يخطر ببالك أنهم سيكلفونني بهذه المهمة؟

نظرت له بحيرة. ما الذي يتحدث عنه؟ لا أفهم حرفًا. أم هل يتحدث عن حادثة أمس؟ هل بدأت المباحث الجنائية في التعامل مع حالات الاعتداء الشخصي؟ ماذا يقصد؟

كنت أبحث عن سببٍ لأنفث عن غضبي بأي حال، فسألته بحِدَّة:

- أي مهمة؟ وأي باب؟

- ألا تعرفين أنكِ المشتبه به الرئيسي في قضية قتل «عثمان قرقاش»؟

- ماذا؟ هل هذا أحد مقالب «الكاميرا الخفية»؟ من «عثمان قرقاش» أصلًا؟

ضحك بأسفٍ وقال:

- ليته كان مقلبًا حقًّا، لكنه ليس كذلك. عليكِ مرافقتي إلى قسم الشرطة.

- لا تكن سخيفًا يا «باتوهان».

- أنا جاد. قُتِل «عثمان قرقاش» مساء أمس. رآكِ حشدٌ من الناس تتعاركين معه، وقال إخوته إنكِ عدوته الوحيدة.

أدركت أن «عثمان» هو بلطجي الأمس، وكررت:

- لا تكن سخيفًا.

- لو قُلتِ «لا تكن سخيفًا» مرَّة أخرى، فسأتهمكِ بسب ضابط شرطةٍ أثناء تأدية عمله. فلتعرفي أنه مهما كان ما حدث بيننا سابقًا، فهو لن يمنعني من القيام بعملي.

أردت أن أصرخ قائلة: «توقف!!!! توقف! توقف!». هل يظن هذا الأحمق أن شيئًا حدث بيننا أصلًا؟ إنه يستحق لفظًا أكثر وقاحةً من «أحمق» بسبب طريقة كلامه، لكنني لن أكون فظَّة.

- هل تظن حقًّا أنني قتلت أحدهم؟ هل هذه مزحة؟

- لا، إنها ليست مزحةً بالتأكيد. وجدنا «عثمان قرقاش» ميتًا هذا الصباح في مكتبه في شارع «باباغان». وهناك رصاصةٌ واحدة في ساقه.

ثم أضاف بابتسامةٍ حزينة نوعًا:

- لكنكِ بالطبع تعرفين كل هذا أفضل مني.

منعت نفسي من تكرار «لا تكن سخيفًا»، وقُلتُ له:

- اجلس من فضلك.

- علينا الذهاب إلى قسم الشرطة لأخذ أقوالكِ.

- حسنًا، لكن اجلس قليلًا ثم سنذهب.

جلس.

عندها انفتح الباب ودخل زبون.

قُلتُ له:

- المكتبة مغلقة.

- ماذا تقصدين بأنها مغلقة؟ إنها مفتوحةٌ بالطبع، فأنا أقف داخلها الآن.

كانت امرأة. بهذه الطريقة سأصبح كارهةً للنساء مثلما أصبحت كارهةً للرجال مؤخَّرًا. قُلتُ لها:

- لم نفتح للعمل، بل لجرد البضاعة. أعتذر، ويشرفني لو عدتِ وقت الظهيرة.

كيف حافظت على هدوئي أثناء الكلام؟

رحلت المرأة وهي تغلق الباب وراءها بعنف.

انهرتُ على الكرسي الهزاز، وغطَّيت رأسي بيديَّ. قُلتُ له:

- إذًا، لنبدأ من البداية. الرجل الذي تعاركت معه بالأمس تعرَّض للقتل، صحيح؟ أقصد ذلك الرجل من مافيا الجراجات، صحيح؟

أومأ برأسه مؤكدًا.

- وقال إخوته إنني عدوته الوحيدة. هل أخطأت في فهم شيءٍ حتى الآن؟

- لا، فهمكِ صحيح.

ضممت قبضتيَّ حتى لا أقذف رأسه بطفاية السجائر.

- يا إلهي! هل يُعقل أن بائعة كتب ستكون هي العدوة الوحيدة لمجرمٍ من عصابة جراجات؟

وقف وأخرج علبة سجائر من جيبه وعرض عليَّ واحدة.

- لا أعرف. ما زال الوقت مبكرًا على الحكم. لا دليل لديَّ يدعم هذا الكلام. أنا فقط أقول ما أخبرونا به.

بعد بضع دقائق، اتصلت بالمنزل. كانت «بيلين» بالخارج، فاتصلت بها على الموبايل لأخبرها أن لا تتأخر، وأن تأتي إلى المكتبة مباشرةً. ثم طلبت من «باتوهان» أن ننتظر وصول «بيلين».

طلبوا لي الشاي في قسم الشرطة. كتب شرطيٌ أقوالي وقرأها، ثم طلب مني توقيعها. كانت مليئةً بالأخطاء الإملائية، لكنني وقَّعتُها.

جاء إخوة «عثمان» أيضًا للإدلاء بأقوالهم. اندفع أحدهم نحوي وكأنه سيضربني. وهناك آخرٌ بدا في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة على الأكثر. كان العاقل الوحيد في عائلة القتيل؛ لم يندفع مهاجمًا إياي، بل تحدث أولًا.

زمجر قائلًا:

- هذه المرأة هاجمت أخي. جعلته ينزف من أذنه. قال لنا أخي «عثمان» أن ندعها وشأنها لأننا لا نؤذي النساء أبدًا. حدث هذا في المساء. لم يعد إلى المنزل ليلتها.

علمنا فورًا أن مكروهًا أصابه. هذه المرأة مجنونة.

أما الأخ الذي اندفع نحوي منذ قليل، سار بهدوءٍ إليَّ وهمس في أذني حتى لا يسمع رجال الشرطة:

- من سيحميكِ الآن أيتها الحمقاء؟

همست له:

- أبي وزير الداخلية الألماني، هو من سيحميني أيها المغفل.

جحظت عيناه من الصدمة.

أفرجوا عني بعد ساعتين، لكنني بالكاد استطعت التحرك. شعرت وكأن الدماء قد جفَّت من جسدي.

كان «باتوهان» منتظرًا بجوار الباب. أمسك ذراعي بودٍّ وأبعد خصلةً من شعري سقطت على وجهي. من الواضح أنه معتوه. لقد كان يستجوبني بشأن جريمة قتلٍ هذا الصباح!

- هل أنتِ بخير؟

- ما كل هذا الهراء!

- دعيني أدعُكِ لتناول الطعام من أجل الأيام الخوالي. أعرف مطعم كبابٍ شهي في «لالالي».

قد يوحي تصرف «باتوهان» أننا كنا في علاقةٍ من قبل، لكنني أقسم أن هذا غير صحيح. قابلته أوَّل مرَّة حين كان يحقق في قضية قتلٍ ارتبطت بإحدى صديقاتي منذ أكثر من عام. كدنا ندخل في علاقةٍ، لكنني أنهيت الأمر وأحبطته. لم يكن الأمر نزوةً حتى. ماذا تتوقعون من نزوةٍ بين ضابط شرطةٍ وامرأةٍ تكره رجال الشرطة مثلي؟ ومع ذلك، كان الأمر محبطًا.

استغللنا سلطة الشرطة - وهو شيءٌ يفعلونه بتهورٍ في تركيا - وقُدنا في شوارع كثيرةٍ ممنوع دخولها، ثم توقفنا فجأةً أمام مطعم الكباب. لم أكن راغبة في تناول الكباب، ولستُ واثقة إن كان يمكنني حتى تناول بعض الشوربة.

ظللنا صامتين تمامًا حتى قُلتُ أنا:

- إذًا، تم قتل الرجل في مكتبه.

رماني «باتوهان» بنظرةٍ أغاظتني. لا أمزح حين أقول إنني شعرتُ برغبةٍ في استخدام العنف. منعت نفسي بصعوبةٍ من لكمه في وجهه الواثق من نفسه ذلك. بعد ذلك لن أقرأ شيئًا سوى «مرتفعات ويذرنج».

قُلتُ له:

- اسمع. إن كنت تظنني قاتلةً حقًّا، فلا داعي لتناول الكباب معًا. اجمع كل ما لديك من أدلَّةٍ واعتقلني. أنت تعرف عنوان بيتي ومكتبتي.

ثم أخذت حقيبتي، ونهضت تاركة الطاولة.

أمسك بذراعي وابتسم ابتسامةً واسعة. أين مبادئ هذا الرجل؟ يجب أن يتمسك بموقفه على الأقل! لكن لا، عقول الرجال لا تعمل هكذا.

قال:

- اجلسي، اجلسي. لا تغضبي بسرعة. لماذا أنتِ حساسةٌ هكذا؟

لم أحب أن يصفني بالحساسة. كدت أفقد أعصابي حين سألني لماذا أنا حساسةٌ؛ اليوم فقط وُجهت لي تهمة قتل. اشتعل غضبي. شعرت بغصةٍ في حلقي فورًا، فحاولت التحكم في نفسي والسيطرة على غضبي حتى لا ينفجر. ينصح الخبراء بسحب أنفاسٍ عميقةٍ أثناء الانزعاج. سحبت أربعة أنفاسٍ مليئةً برائحة الكباب.

لم يُجد الأمر على الإطلاق. نهضت وذهبت إلى الحمَّام.

أريد أن أجعل هذا الرجل يندم على يوم ولادته، ولا أرغب في رؤيته مجددًا. لن يكون أوَّل من أبعده عن حياتي. نظرت إلى وجهي في المرآة. ما الذي يحدث لي؟ لماذا كنت مزعجةً إلى هذا الحد؟ لن يبقى شخصٌ في حياتي على هذا الحال. لقد توقف موبايلي عن الرنين بالفعل. هل أبدأ بتناول مضادات الاكتئاب؟ عليَّ إيجاد وسيلةٍ لتخطِّي هذه المرحلة بأقل خسائر ممكنة، سواء بمضادات الاكتئاب أو من دونها. سأسأل «أوزلم» عن طبيب نفسي ماهر حين أكلمها.

تمالكت نفسي عندما عدت للطاولة. كان «باتوهان» قد انتهى من طبق الكباب الخاص به ويضع لنفسه بعض البقلاوة. يا لشهيته المفتوحة! حاول أن يضع في فمي بعض البقلاوة، لكنني رفضت بحجة أنني أتبع نظامًا غذائيًّا. لدى الرجال طريقةٌ مختلفة في معاملة النساء الذين يتبعون نظامًا غذائيًّا. وهو لم يُفوِّت الفرصة.

قال:

- هكذا إذًا. الآن عرفت لماذا أنتِ حساسة. ذلك النظام يؤثر في مزاجك.

تظاهرت بأنني لم أسمع كلمة «حساسة». أما هو فاستمر بالثرثرة.

- لا تحتاجين إلى نظام غذائيٍّ، فأنتِ نحيفةٌ بالفعل. ليس جيِّدًا أن تزدادي نحافة. بأي حال، تعرفين أن الأتراك يحبون المرأة الممتلئة.

منعت نفسي من الاندفاع قائلة: «ومن قال إنني أريد أن يُعجب بي أحد الأتراك؟»، لكنني ابتسمت بدلًا من ذلك.

أحسن شيء يمكن عمله عندما يشتبه رجل متوسط الذكاء في ارتكابي لجريمة قتل هي أنني الآن أمتلك عذرًا للاتصال بـ«سليم». هناك أملٌ في عودة علاقتنا على ما يبدو.

عدتُ إلى البيت لأقوم بالاتصال قبل أن أذهب إلى المكتبة، لكنني تراجعت بمجرد أن دخلت. لا أريد أن ألاحقه أو ألاحق غيره. إن اضطررت، سأدفع أموالي على مضضٍ لتأجير محامٍ. بهذه الطريقة، لن أفوّت فرصة توبيخه قائلة: «لقد تخلَّيت عني وقت الضيق».

حاولت أن أضع خطة. لم أكن مستعدةً للجلوس في المنزل منتظرة الشرطة التركية أن تنهي التحقيقات. لقد أثبتُّ قدرتي على حل قضايا القتل ذات مرَّة، وأنا مستعدةٌ تمامًا للتحقيق في مقتل «عثمان قرقاش» مثل أي محققٍ محترف.

بعد الاستحمام، ارتديتُ ثيابًا أنيقةً لأرفع من معنوياتي. عندما خرجت كان الحماس يندفع في عروقي.

بينما أطرق باب جار القتيل «عثمان قرقاش»، أدركت أنه عليَّ مناداة هذا الرجل الطيب باسمه. لقد أنقذني. بالتأكيد سأنزعج إن ظل الناس ينادونني بـ«أيتها الألمانية» بدلًا من اسمي، لذلك لن أناديه بالـ«التتاري» وسأناديه باسمه.

عندما رآني «يوجل» بك وضع يده على الجدار ليستند عليه ويمنع نفسه من السقوط. من الواضح أنه تفاجأ بشدة.

- سيدتي العزيزة، هل أطلقوا سراحكِ؟ سمعت أن الشرطة قد ألقت القبض عليكِ. فيم كانوا يفكرون؟ سيدةٌ مثلكِ.. تفضلي بالدخول. عذرًا لأن مكتبي غير مرتبٍ قليلًا. لقد وجدتُ مكانًا جديدًا، لكنني لم أوقع العقد بعد. لذلك فكرت في ترتيب أوراقي. هل تودين بعض الشاي؟ أم تفضلين مشروبًا باردًا؟

لم أحظَ بفرصةٍ للتحدُّث سوى الآن، لذلك لم أفوّتها. قُلتُ له:

- لن أشرب شيئًا، شكرًا لك. لكن إن سمح وقتك، أريد التحدث معك.

- حتى لو لم يسمح وقتي، سأتفرغ مخصوص لسيدةٍ مثلكِ. تفضلي. سأرتب ملفاتي غدًا. ما الذي تريدين التحدث عنه؟

- هل رأيت مسرح الجريمة؟ هل تعرف الحالة التي وجدوا عليها الجثة؟

- نعم، لسوء الحظ. لم يكن مشهدًا لطيفًا أبدًا. لقد صعدت إلى الطابق العلوي بسبب الصراخ الذي سمعته، بالإضافة إلى الحادثة المُريعة التي وقعت معكِ. عدا هذا ما كنت لأصعد، فأنا لستُ من النوع الفضولي أبدًا ولا أتدخل في شؤون غيري. في العادة لا نسمع صوت عراكٍ هنا. والآن وقعت حادثتان في يومين. ما زلتُ مصدومًا. بصراحة، لقد خفت أن يكون الأمر متعلقًا بكِ.

- ماذا رأيت يا «يوجل» بك؟ أخبرني أرجوك.

- كان ممددًا على الأرض وميتًا. اسمه «عثمان»، وهو الأخ الأكبر لإخوةٍ كثر. أعرف منهم خمسةً فقط، ولا بُدَّ أن هناك مزيدًا. إنهم من الشرق، لكن لا أعرف من أي مقاطعة. أظن أن

جميعهم يعتبرون «إسطنبوليين» الآن. سمعت أنهم هنا منذ خمسة عشر عامًا. أعني في «كوليديبي». على الأرجح كانوا يعيشون في منطقةٍ أخرى في إسطنبول قبل ذلك. أريدكِ أن تشربي شيئًا. هذا لا يصح. هل أطلب بعض الشاي؟ لنشرب الشاي.

أومأت موافقة لأرضيه. طلب الشاي عبر تليفون العمارة الداخلي، ثم عاد ليجلس على الكرسي المقابل لي. وكالعادة رفع ساقي بنطلونه بحرصٍ قبل الجلوس. كان طويلًا وقويًّا، في الستين وله شعرٌ خفيف. تساءلت أين يعيش. أين يعيش رجلٌ مثله في إسطنبول؟

- هل تعيش بالقرب من هنا يا «يوجل» بك؟

- لا يا سيدتي. وهل هذا المكان يصلح للعيش؟!

ثم نظر إليَّ وأضاف:

- أعني.. هذا المكان لا يصلح لأشخاصٍ مثلنا. أسكن في شارع «فاتان». كان لدينا بيتٌ من طابقٍ واحد وله حديقة، لكننا بعناه للمقاولين. لا أعرف ما أصابنا. فامتلاك حديقةٍ كان رائعًا. يدرك الإنسان قيمة بعض الأشياء مع تقدم العمر. ما زلنا نملك بيتًا وحديقة في ضاحية «سيليفري». المكان أشبه بالجنة هناك. نزرع بعض الخضراوات في الحديقة، ونأكل منها الطماطم. ابني الأكبر مهندسٌ زراعي، لذلك هو مهتمٌ جدًّا ب...

قطع كلامه ليذهب لفتح الباب، ثم عاد مع صبي القهوجي الصغير الذي أحنى رأسه في تحية. من الواضح أن «ريجاي» لا يعمل في هذه المنطقة.

- آسفٌ على ما حدث يا آنستي.

- ماذا؟

- آسفٌ على ما حدث. سمعنا أنهم قبضوا عليكِ.

- شكرًا.

أحنى الصبي رأسه مجددًا ورحل.

قُلتُ:

- واو، لقد أصبحت مشهورة.

بدا «يوجل» بك متوترًا لأن صبي القهوجي رآني عنده في مكتبه وتعرف عليَّ. أخرج منديلًا ضخمًا من جيبه ومسح جبينه.

قُلتُ:

- سأرحل إن أحببتِ.

كان يحك شامةً بنيةً عند أنفه وهو يفكر. بدا أنه لم يسمعني. فكررت:

- سأرحل إن أحببت.

طرف بعينه ونظر إليَّ قائلًا:

- ماذا قُلتِ؟

- إن كان التحدث معي سيسبب لك مشكلة، فيمكنني الرحيل.

- لا، لا. لا تقولي كلامًا غريبًا. لماذا قد يصبح التحدث معكِ مشكلة.

صمت قليلًا مفكرًا، ثم أضاف بحزم:

- بالطبع لا. لماذا ترحلين؟

عندها أشرت إلى الملفات الواقعة على الأرض وقُلتُ:

- حسنًا، في هذه الحالة لن آخذ كثيرًا من وقتك.

- دعيني أخبركِ بما أعرف. إن كان هذا يناسبكِ.

أشعلت سيجارةً فيما واصل كلامه:

- آتي إلى هنا يوميًّا في الثامنة والنصف صباحًا. العمل في انحدارٍ مؤخرًا بسبب الأزمة الاقتصادية. لا توجد طلبات، ولهذا لا يوجد موظفون حاليًا. عندما كانت الأعمال جارية كان هذا المكان يوفر رزقًا لعشرة أشخاص. أما الآن، أفكر في إنهاء العمل والتقاعد.

- وماذا تعمل هنا؟

- نصنع مغلفات بلاستيكية للملابس حسب الطلب. لحظة سأريكِ. هذا مثلًا مغلف قميص.

نهض وأخرج من الدولاب لفةً من الأغلفة المصنوعة من مادة البولي إيثيلين البلاستيكية، ثم ناولني بعض المغلفات المكتوب عليها «قمصان «كينزو» أصل الجودة وقال:

- نصنع أشياءَ كهذه.

كتمت ابتسامتي فيما واصل هو:

- كما نغلف الهدايا مثل هذه.

وأخرج «يوجل» بك علبةً بلاستيكية طويلة رفيعة وشفافة مكتوبًا عليها «ربطات عنق جافر»، ثم وضعها في يدي وقال:

- سأبيع بعض المعدات. يمكنني العمل في مكانٍ أصغر الآن. أحتاج فقط إلى بعض الطلبات من حينٍ إلى آخر لدعمنا. لديَّ بنسيون صغير، والأولاد يساعدونني.

لكننا لا نريد الإثقال عليهم. نحن نملك الشقة التي نعيش بها، كما أن احتياج الناس للمال يقل مع التقدم في العمر يا عزيزتي. سنتدبر أنا وزوجتي أمورنا.

أردت العودة للموضوع الأساسي فقُلتُ:

- أنا واثقةٌ بأنك مُحقٌّ. هل تمانع إن دونت بعض الملاحظات بينما تخبرني ما حدث ذلك اليوم؟ فلا يمكنني حفظ كل شيء.

- بالطبع، يمكنكِ يا عزيزتي. هل أسبب لكِ الملل بثرثرتي؟ آسف، فبمجرد أن أبدأ الكلام لا أستطيع التوقف. خاصةً حين أتحدث إلى شابةٍ جميلة مثلكِ.

ابتسمت وشكرته. من يرى ابتسامتي الآن لن يصدق أنني المرأة نفسها التي قذفت طفاية سجائر على رأس «عثمان» بالأمس.

- كما قُلتُ، أنا أصل يوميًّا في الثامنة والنصف صباحًا. وهذا الصباح لم يختلف. أخرجت كل ملفاتي من الدواليب فور وصولي، وبدأت ترتيبها. إن لم أكن مخطئًا، لقد سمعت خطواتٍ بالأعلى بعد التاسعة بقليل، ثم بدأ أحدهم يصرخ في التليفون. تعرفت على الصوت. كان «موسى»، الأخ الذي يلي «عثمان» في العمر. كانت النوافذ مفتوحةً بالطبع، لكنني لم أستطع سماع ما كان يقول. لكنه كان بالتأكيد غاضبًا وبشدة. بعد قليل، رأيت أخوين آخرين يسرعان بالصعود.

ثم أضاف بحرج:

- شعرت أن شيئًا غريبًا قد حدث. فواربت بابي أثناء صعودهما.

فأومأت برأسي بمعنى أني أقدر تصرفه الحذر.

- ثم سمعت صرخةً مدوية، فصعدت.

تحمَّست فسألته:

- ثم؟

كان «عثمان» راقدًا على الأرض أمام الباب. يبدو أنه زحف إلى هناك. رأيت بركًا من الدم الجاف في كل مكان..

غطَّى فمه بيده وهزَّ رأسه وامتلأت عيناه بالدموع وهو يقول:

- كان مثل ابني، كنا صديقين منذ سنوات.

نظرت بعيدًا حتى يهدأ ويكمل القصة.

- لمكتبينا التصميم نفسه. ويبدو أنه زحف من الغرفة الخلفية حتى باب الشقة. لقد أصابته رصاصة. هل تعرفين كيف يكتب القتيل اسم قاتله بالدم في الأفلام؟

حسنًا، تتبعت أثرًا من الدم قادني إلى الغرفة الخلفية، فألقيت نظرة. وجدت كثيرًا من الدماء. كان الإخوة مصدومين بالطبع. كان الأخ الأصغر «أوزجان» على الأرض يبكي ويعانق جثة أخيه. أما «موسى» فكان جالسًا القرفصاء يدخن سيجارة. ظننت أحدًا لم يرني أدخل لغرفة الخلفية، «نيروز» رآني لأنه جاء خلفي. لهذا لم أستطع البقاء طويلًا. أظن أن عراكًا عنيفًا حدث في تلك الغرفة. كل شيءٍ كان مقلوبًا رأسًا على عقب. الكراسي كانت مقلوبة، والأوراق متناثرة في كل مكان.

كانت الغرفة في فوضى شاملة.

قُلتُ بلمحةٍ ساخرة:

- أظنك لم تستطع التأكد من وجود اسم القاتل مكتوبًا بالدماء؟

الاحتمال ليس مستحيلًا. قال:

- مستحيل! لقد وصلت الشرطة خلال عشر دقائق ولم يسمحوا لأحدٍ بالدخول. دخل حشدٌ من الناس البناية، لكن الشرطة أبعدتهم، فهذا ليس موقع تصوير فيلم. هناك كثير من العاطلين في هذا البلد. اجتمع كل تجار المنطقة. من الأفضل أن يجدوا شيئًا أفضل يفعلونه، أليس كذلك؟

- هل تحدث معك رجال الشرطة؟

- نعم، شرطي شاب. أخبرته ما أعرفه، لكنه ليس بكثير كما ترين.

- لقد عرفت تلك العائلة لفترةٍ طويلة؟

- نعم، إن خمس عشرة سنة وقتٌ طويل. يمكنكِ القول إنني ساعدت «عثمان» على تحسين حياته. كان يقدم الشاي في المقهى وهو صبيٌ صغير. عرفت والده أيضًا، كان يعمل حمَّالًا. اعتدت أن أوفر عملًا له كلما استطعت. تُوفي الرجل المسكين صغير السن، وبقي الأولاد بلا أب. وقتها عاشوا بالقرب من هنا، لكنهم انتقلوا لاحقًا إلى منطقة «باغجيلار»، حيث عاش أقاربهم وأصحابهم. هذا ما أخبرني به «عثمان». هناك شيءٌ آخر. عندما تُوفي الأب، تزوجت أمهم أحد أعمامهم.

قُلتُ لنفسي وقتها: «أي تقاليدٍ هذه؟». لقد كان صبيًّا! بالكاد أكبر من «عثمان». لا يزيد على الخامسة عشرة. في خلال سنة تزوَّج «عثمان» أيضًا واحدة من بنات أعمامه. فهم لا يزوجون بناتهم لغريبٍ أبدًا. دعونا لحفل الزفاف، لكننا لم نحضر. فزوجتي لا تحب الزحام، خاصةً إن كانوا أشخاصًا لا نعرفهم. بصراحة.. لم أشعر برغبةٍ في الذهاب أيضًا. لا أعرف لماذا. إنهم صبيةٌ صالحون. هم طيبون ومهذبون ومحترمون. هكذا هم شعوب الشرق. كما يحترمون الكبار جدًّا. هم

من وجدوا هذا المكتب لي. كان لديَّ مكانًا في منطقة «توفاني» حتى عشر سنواتٍ مضت. كان «عثمان» عاملًا مكافحًا. عمل جرسونًا في المقهى وبذل أقصى جهده. أُعجب به «عبدول» أفندي صاحب المقهى العجوز.

أضاف «يوجل» بك متنهدًا:

- لقد تُوفي أيضًا.

ثم واصل السرد:

- كان للرجل العجوز ابنًا مدمنًا للهيروين ومات أيضًا. ذات يوم وجدته في قبو ورشتي يلف قطعة قماشٍ حول ذراعه ويحقن نفسه. قُلتُ له: «ألا تعرف كم تعذب أباك يا بني؟ هذا الإدمان سيقتلك»، لكن عينيه كانتا زائغتين. يا إلهي، ينتابني شعورٌ فظيع كلما تذكرت ذلك المشهد. تُوفي بعد ذلك بوقتٍ قصير، كان طويلًا ونحيلًا كفروع شجر الصفصاف، وكان وجهه الضعيف مصفرًّا بسبب ذلك السم. قال الناس إنه اعتاد على ضرب أبيه ليحصل منه على المال، لكنني لم أرَ ذلك أبدًا.

أما «عبدول» أفندي المسكين، فبعد وفاة ابنه ودفنه، عامل «عثمان» كابنه وأعطاه المقهى. عمل «عثمان» جاهدًا وسدد كل ديونه. قال لي: «لقد سددت كل ديوني يا عم يوجل». اعتاد مناداتي بالعم «يوجل». سارت أموره على ما يرام لبعض الوقت بعدما امتلك المقهى، لكنه تورط في بعض الصفقات المشبوهة بشكلٍ أو بآخر.

يقول المثل «الحلو لا يكتمل»، أليس كذلك يا سيدتي العزيزة؟ قُلتُ له: «لا تسئ فهمي يا بني. نحن نعرف بعضنا منذ مدةٍ طويلة، وأشعر بأنني مثل والدك. إن الأعمال التي تتورط بها لا تنتهي على خيرٍ أبدًا». فقال «عثمان»: «ما باليد حيلة يا عم «يوجل». عليَّ إطعام خمسة عشر فردًا». اتضح أن عمهم زوج والدتهم شخصٌ كسول، وواجه «عثمان» صعوبةً في تدبر الأمور. لذلك اضطر الفتى المسكين إلى التورط في هذه الصفقات المشبوهة.

- هل تعني تحويل المباني إلى جراجات بعد أخذها بوضع اليد؟

- بدأ بأمورٍ بسيطة قبل أعمال الجراجات. اشترى الجراج منذ ست سنوات. أو بالأحرى.. أحرقوا ذلك المبنى. وصلنا ذات صباح فوجدنا المبنى قد مُحِيَ من الوجود.

لم أفهم ما حدث بالطبع. كيف سأخمن أن أحدهم يحرق المباني لبناء جراجات؟ فإسطنبول لم تكن أبدًا مليئةً بالمجرمين. جئت من قرية «صالحلي» بالقرب من مدينة «إزمير». جئنا إلى إسطنبول وأنا ولدٌ صغير منذ أكثر من ستين سنة، لذلك أذكر الزمن القديم وجماله. ما كانت الناس تمشي في «باي أوغلو» من دون بذلة وربطة عنق. لقد تغيرت إسطنبول تمامًا.

- إذًا، هل تغير «عثمان» بعد امتلاك المقهى؟

- اشترى لنفسه سيارةً خلال عامين أو ثلاثة، وكان متعطشًا للمزيد. كان يقول: «أنا أعمل على صفقة»، لكنني لم أعرف أبدًا أي نوعٍ من الصفقات. كان يتجاهل الإجابة. فتى ذكى لكن...

توقف فجأة ثم وضع يده على جبهته وقال:

- لكنه توفي. يا له من مسكين. ما زلت لا أصدق. أشعر بأنني أغتابه، لكنني لا أقصد الإساءة. إنما أخبركِ كيف كان الوضع، صحيحٌ يا عزيزتي؟

- بالطبع. بالإضافة إلى أن ما قُلتُه سيساعد كثيرًا. هل أخبرت الشرطة؟

- لا يا عزيزتي. فهم لم يسألوا. هل تظنّين أن ما قُلتُه قد يكون مفيدًا؟

- بالتأكيد.

- أخبريني، كيف بدأ العراك؟ هل ذهب «عثمان» إلى مكتبتكِ؟

أومأت بالإيجاب، وقُلتُ:

- أظنه أراد تهديدي.

- حسنًا، لقد دفع الثمن. لم يكن «عثمان» شريرًا، لكنه لم يتقبل الخسارة قط. إنها طبيعته.

أومأت مجددًا.

- ما نوع العمل الذي تورط فيه «عثمان»؟

- بصراحة.. لا أعرف، لذلك كل ما أقوله قد يكون كذبًا. هناك كثير من الإشاعات. قال بعض الناس إنه كان... لا أحب قول ذلك لكن... سمعت أنه كان قوَّادًا. قال آخرون إنه كان يبيع مخدراتٍ في المقهى. كما قالوا إنه يدير جلسات قمارٍ في القبو. سمعت لاحقًا أن لديه جراجًا في الشوارع الخلفية لمنطقة «باي أوغلو»، بالقرب من حي «تارلاباشي». لا أعرف نسبة الحقيقة وسط هذه الإشاعات. مهلًا، سمعت أيضًا أنه يأخذ إتاوات من أصحاب المحلات ويرسلها إلى منظمةٍ إرهابية. لكن لا تصدقي كل ما أقول، لأنني لم أرَ أيًّا من هذا بعيني. أيًّا كان عمله فقد أكسبه مالًا وفيرًا. لا أحد يسأل من أين تأتي بالمال هذه الأيام. ما يهم فقط هو أن تملك المال.

كان واضحًا عليه أنه مُحدث نعمة.

- من؟ «عثمان»؟

- بالطبع. لقد اشترى سيارة «بي إم دبليو». كانت أضخم من أن تعبر هذا الشارع الضيق، لذلك كان يركنها عند الناصية. عندما سألت ابني الأصغر عن ثمنها، قال «ثروة يا أبي»، ما يشير إلى سعرها الخيالي.

- كيف عرفت أن «عثمان» جاء إلى مكتبتي؟

لوَّح بيده، وقال:

- عزيزتي، الجميع يعرف أنه عاد بأذنه مغطاة بالدماء. تنتشر الأخبار بسرعةٍ هنا. أنا واثقٌ أنكِ جذبتِ انتباه كل السكان لأنكِ رفضت الاستسلام له. سمعنا عما حدث فورًا. أحسنتِ، عليكِ وقف الناس عند حدهم في مواقفَ كهذه. فالدنيا غابةٌ كبيرة، صحيح يا عزيزتي؟

- هل الدنيا غابةٌ حقًّا؟

- إن مكتبتكِ مقابلة للنجار «فيسيل»، صحيح؟ إنه حرفي عجوز في «كوليديبي» ينتمي للزمن القديم الجميل. مررنا بكثير معًا! لن تصدقي أننا ربحنا كثيرًا من المال، لكن ما يأتي بسهولة يذهب بسهولة، هذا ما حدث لأرباحنا من القمار. في بعض الليالي كنت أعود للمنزل حاملًا ما يكفي لبناء عشر أو خمسة عشر شقة. لكن أقسم أنني لم ألعب القمار منذ ما يزيد على عشر سنوات. أتعلمين؟ لقد أهدرنا أجمل أيام عمرنا. الأيام التي كان علينا فيها العمل لكسب المال. حمدًا لله أن ولديَّ أكملا تعليمهما. لديَّ ولدان؛ أحدهما مهندسٌ زراعي، والآخر محاسب. يجب أن أكون شاكرًا لهذا. فعندما أنظر إلى أبناء الآخرين... أقول إن أبناءنا صالحون على الأقل.

لا أريد أن أكون فظَّة، لكني مضطرةٌ لمقاطعته وإلا سيظل يتحدث عن ولديه. قُلتُ:

- هل هناك من عرف «عثمان» معرفةً وثيقةً غيرك؟

نظر «يوجل» بك إلى النافذة مفكرًا وهو يحك شامته الكبيرة، ثم قال:

- اسألي كل سكان «كوليديبي» القدامى يا سيدتي العزيزة، فكلهم عرفوه، لكنني أشك أن يخبركِ أحدهم أكثر مما أخبرتكِ بالفعل. دعيني أفكر لحظة.

ظل يحك شامته، ثم قال:

- كان «عثمان» مفتونًا بصديقةٍ له ذات مرَّة. لا أعرف عنوانها. اعتادت زيارة «عثمان» كثيرًا. كنت أقابلها في المدخل يوميًّا تقريبًا. مضى خمس سنواتٍ أو أكثر على هذا.

- ألا تعرف اسمها؟

- كنت أعرفه. عرفته لأنها أصدرت أغنيةً لاحقًا. حتى إنني رأيتها على التليفزيون ذات مساء.

أشار إلى صدره، وأضاف:

- كانت ملابسها غير محتشمة. أظن علاقتهما بدأت منذ ذلك الوقت. فقبل كل شيءٍ يا عزيزتي، لماذا تزور رجلًا له عائلة؟

- ما اسمها؟

قال وهو ينقر بأصابعه على ساقيه وكأنه يعزف البوق:

- أحاول التذكر. هل كان «رويا» أم «هوليا»؟ شيءٌ مثل هذا. هذا النوع من الناس يستخدم أسماءً مستعارة، صحيح؟ لن يكون اسمها الحقيقي بالتأكيد. نعم، تذكرت أنها كانت تغني وهي مرتدية مثل حورية البحر وتضع ما يشبه الذيل. حتى إنها صبغت شعرها أشقر، لكني تعرفت عليها فورًا، وما زلت أذكر أغنيتها.

ارتدت زيَّ حورية بحر لأنه ناسب الأغنية.

بدأ يغني بصوتٍ منخفض:

«عبر المحيطات، ومن الأعماق، أتيت إليك عانقني، دفئني، دعني أكون معك أحضنني، أشعر بالبرد، وأشتاق إليك».

نظر إليَّ بخجل عندما انتهى من الغناء، ثم قال:

- آسف بشأن صوتي، لكن الأغنية تشبه هذه. ربما يفيد إيجاد تلك المرأة. لقد مضت ثلاث أو أربع سنوات منذ رأيتها على التليفزيون آخر مرَّة. لا أعرف ماذا تفعل الآن بالطبع. كيف لي أن أعرف؟ كان لـ«عثمان» كثير من الصديقات، لكن هذه دامت علاقته معها وقتًا طويلًا. كانا «couples» بلغة شباب اليوم.

توقف فجأة، ثم أضاف:

- عرفت كل هذا لأنه جاري ويسكن فوقي.

- أنت مُحقٌّ.

كتبت كلمات الأغنية على أمل أن أجد من يتذكرها.

(5)

عدتُ إلى المنزل دون الذهاب للمكتبة، على أمل أنه خلال العطلة الأسبوعية سينسى التجار ما حدث. اتصلت بـ«لالي». إنها الوحيدة من أصدقائي التي قد تذكر أغنية مرَّ عليها أربع سنوات.

- ستتعاطين أدوية الاكتئاب قريبًا. إنها تجعل كل شيءٍ يبدو أفضل بكثير. أضمن لك هذا.

قاطعتني قبل أن أحكي لها نصف ما حدث في الأيام الأربعة أو الخمسة الماضية منذ أن تحدَّثنا آخر مرَّة. إن مضادات الاكتئاب هي ما تساعد «لالي» ونصف التركيات في دائرتها الاجتماعية على الصمود. أما الباقي فيعتمدن على الأعشاب المهدئة.

تحدثنا على التليفون أكثر من ساعةٍ، حتى إنني أمسكت السماعة بيدي اليسرى لأن اليمنى تخدَّرت تمامًا. وأخيرًا سألتها:

- هل تعرفين شخصًا يفهم في الأغاني التركية؟

- سأخبركِ عن شخصٍ يستطيع إخباركِ باسم الشركة المنتجة للألبوم. ما رأيكِ أن نتقابل هذا المساء؟ سنذهب لتناول سمك المرجان الغالي في حي «جينجيلكوي».

أريد رؤيتكِ مرَّة أخيرة قبل أن تدخلي السجن.

لم يسمح مزاجي بالضحك على مزحتها، حتى ولو عدم ضحكي، جرح مشاعر صديقتي.

أعطتني «لالي» رقم موبايل «أردينش سارياك» أعظم منتج أغانٍ في التاريخ، فاتصلت به فورًا.

رد الرجل على التليفون:

- ألو؟

- مرحبًا، أنا صديقة «لالي تشاغتان»...

قاطعني الرجل فورًا:

- كيف حال عزيزتي «لالي»؟ مضى زمنٌ طويل منذ أن تحدَّثنا آخر مرَّة. نحن نعرف بعضنا منذ فترةٍ طويلة. إنها رائعة. لا أظنني أعرفكِ. هل تريدين الغناء؟ سأستمع إلى صوتكِ أولًا. أفعل أي شيءٍ لخاطر «لالي»، لكنني أريد التصرف بمهنية. وأنتِ كذلك بالتأكيد. بالطبع لم يعد لدينا الدعم الإعلامي من «لالي»...

قطع كلامه بضحكةٍ صاخبة. كانت «لالي» رئيسة تحرير «جوناباكان» - الجريدة التركية الأكثر مبيعًا - حتى تم طردها العام الماضي، ومنذ ذلك الوقت وهي عاطلة.

قُلتُ له:

- في الواقع، لا أريد الغناء.

- ماذا؟ هل تقصدين أنك لا تريدين الغناء إلا إذا أصررت أنا؟

قهقه مجددًا ووحده بالطبع، فأنا لا أريد الضحك مع أحد. قُلتُ:

- لا، لن أغنِّي حتى لو ألححت عليَّ.

- إذًا، ما مشكلتكِ يا عزيزتي؟

- أردت سؤالك إن كنت تذكر مغنيةً ظهرت منذ ثلاث أو أربع سنوات.

- هذا سؤالٌ ممتاز.

قرأت له كلمات الأغنية، وأضفت:

- غنَّت هذه الأغنية وهي ترتدي زيَّ حورية بحر. قالوا إن اسمها يشبه «رويا» أو «هوليا».

انفجر يضحك قائلًا:

- لا يا جميلتي، ليس «رويا» أو «هوليا». الناس مخطؤون، لكن لا تبالي، فهم معذورون. كان اسم الفتاة المسكينة «أفتاليا». ألا تذكرينها؟ الحورية «أفتاليا»؟

أظنني سمعته من قبل.

واصل الرجل:

- «أفتاليا» هو اسم الشُّهرة. كانت الأغنية بشعةً للأسف. لم تكن الفكرة سيئة، لكن يا للخسارة! إنتاجٌ سيئ، وأغنيةٌ محرجة. كان هذا واضحًا منذ البداية. اسمها الحقيقي هو... إنه على طرف لساني. أعرف أين تسكن حاليًا. إنها تدير دار ضيافةٍ في جبل «إيدا». إنها بعيدةٌ في الريف بالقرب من «طروادة». تسمى المنطقة حاليًا «جوز ماونتن». ما هو اسم المغنية يا ترى؟ مهلًا، «رؤوف» سيتذكره.

أظنه وضع يده على السماعة، لأنني سمعته يتحدَّث مع أحدٍ، لكن لم أتبيَّن الكلام نفسه.

عاد يحدثني:

- اسمها «حبيبة بويوكتونا». أليس «رؤوف» مذهلًا؟ إنه يتذكر كل شيء. لا ينسى أبدًا. ذاكرته كذاكرة الأفيال. مذهل، مذهلٌ تمامًا.

- نعم، إنه مذهلٌ حقًّا. هل أنت واثقٌ بشأن دار الضيافة في جبل «إيدا»؟

- بالطبع أنا واثق. إن «حبيبة» ليست سيئة بالمقارنة مع من هم في هذا المجال.

- ما اسم دار الضيافة؟

- أنتِ فتاة متطلبة يا عزيزتي. لنرى إن كان «رؤوف» يعرف هذا أيضًا، فذاكرتي سيئة جدًّا مع الأسماء. بالمناسبة، ما اسمك؟ لم أسألكِ عنه.

- «كاتي».

- «كاتي»؟

انتظرت منه ردًّا أو سؤالًا. لكنه لم يفعل، بل تحدَّث مع «رؤوف» دون أن يكتم السماعة بيده. ثم عاد يحدِّثني بعدما انتهى:

- هل سمعتِ يا جميلتي؟

- نعم، شكرًا جزيلًا. لقد ساعدتني بشدَّة.

- بكل سرور.

آخر ما سمعته كان ضحكته المُخيفة.

اتصلت بدليل التليفون، وتحدَّثت إلى صوتٍ أنثوي متعب. لم أجد تليفونًا مسجلًا باسم دار ضيافة «زيوس»، فسألت الموظفة:

- هل يمكنكِ البحث عن رقمٍ آخر مسجلٍ باسم «حبيبة بويوكتونا»؟

- هل هو رقمٌ في مدينة «برهانة» أيضًا؟

قُلتُ لها إنني أظن ذلك.

- وجدته. هل معكِ قلم؟

أملتني الرقم بصوتٍ آلي، ثم اتصلتُ به مباشرةً.

أتمنى أن يرد أحد.

لكن لم يرد أحد. توقعت ذلك! لقد نلت نصيبي من الإحباط على مدى الأيام السابقة، ألا تظنون ذلك؟

عُدتُ لخدمة الدليل. هذه المرَّة سألت موظفًا مختلفًا عن رقمٍ مسجلٍ باسم «حبيبة»، لكن في إسطنبول.

وجدته، إنه على الضفة الأخرى. لا تحتاجون لمعرفة ذلك، لكن إسطنبول منقسمةٌ لضفتين؛ واحدة في آسيا، وأخرى في أوروبا. يعني على ضفتي مضيق البوسفور.

أنا أوروبية وأعيش على الضفة الأوروبية، لذلك أشير إلى الضفة الآسيوية بكلمة «الضفة الأخرى».

اتصلت بالرقم الجديد مباشرةً. كنت سأندهش لو أجاب أحدٌ عن التليفون.

لا بأس، فالحياة ليست مدهشة على الدوام.

قليلة هي المرَّات التي يمكنكِ فيها ارتداء الجينز ويراكِ البعض فيظنون أنهم أمام امرأةً حريصة على متابعة الموضة. حسنًا، لقد أصبح الجينز موضة هذا العام.

ربطت شعري الذي جعله الإهمال منكوشًا، ثم ارتديت بنطلونًا وجاكت من الجينز وخرجت. ترددت لحظات وأنا ألعب بمفاتيحي أمام سيارتي وأتساءل هل أقود أم لا. كنت متوترة لدرجة أنني خفت من أن أدهس المارَّة الذين يزعجونني. لكن إذا ركبت تاكسي، فمن المحتمل أن ينتهي المطاف بي في قسم الشرطة مع السائق بسبب مشاجرة أو مخالفة. على راكبي التاكسي في إسطنبول أن يستعدوا لتلك المخاطرة، لكن في موقفي الحالي أظنها مخاطرةً شديدة.

لم أعد حرةً للتجول في المدينة كما أحب! فكرت حقًّا في أن أسير إلى منطقة «بشكتاش»، ثم أركب معدِّية إلى الضفة الأخرى. أظن أن السير إلى «بشكتاش» وسط عوادم السيارات ليس مستحيلًا.

بعد ذلك توقفت عن التفكير العبثي وركبت سيارتي. فأنا إنسان متحضر، أليس كذلك؟ صحيح؟

ويا لي من متحضرة. قُدتُ على منحدر «أكيول»، ثم من شارع «فِندق» إلى منطقة «بشكتاش»، ثم عبرت الجسر إلى الضفة الآسيوية، حيث توجهت إلى منطقة «أسكودار». وطوال الطريق لم أتجادل مع أي شخص. ركنت السيارة أمام منزل «لالي» في منطقة «كوزجونجوك» من دون شجارٍ أيضًا. عادت ثقتي بنفسي. حمدًا لله على وجود الأصدقاء! لولاهم لما خرجت من حي «جيهانجير» واختلطت مع الناس مُطلقًا.

كانت «لالي» مستعدةً تمامًا وبانتظاري.

يبدو أنا افتقدنا بعضنا كثيرًا، لأننا تعانقنا بشدَّة.

- قُمتُ بالحجز بالفعل. أعطوني طاولة بجوار الماء، لكن علينا ألَّا نتأخر، لأن العائلات تتوافد بكثرةٍ على المطاعم أيام الجمعة.

- حسنًا، هيا بنا. مهلًا، سأقوم بمكالمة. حاولت الاتصال قبل مغادرة منزلي، لكن لم يرد أحد، ربما عادت الآن. إنها تلك المغنية التي عرفت اسمها من صديقكِ «أردينش».

اتصلت برقم «حبيبة بويوكتونا» في إسطنبول. وهذه المرَّة أجاب أحدهم بمجرد أن رنَّ التليفون. قُلتُ:

- مساء الخير. هل يمكنني التحدُّث مع «حبيبة بويوكتونا» من فضلك؟

- من المتصل؟

- اسمي «كاتي هيرشيل». إنها لا تعرفني، لكن...

توقفت، ولم أعرف ماذا أقول.

- لماذا تتصلين بـ«حبيبة بويوكتونا»؟

- أفضل التوضيح لها شخصيًّا.

ظننت أن فرصي في التحدُّث معها سترتفع إن بدوت غامضة.

قالت المرأة:

- أنا «حبيبة».

قلتُ وكأنني أبدأ المكالمة من جديد:

- مساء الخير يا آنسة «بويوكتونا». اسمي «كاتي»، وأملك مكتبة في حي «كوليديبي». قابلت أمس شخصًا هو معرفةٌ مشتركةٌ بيننا، اسمه «عثمان» بك.

أطلقت المرأة نحيبًا عندما سمعت اسم «عثمان». إن لم يكن نحيبًا، فهو صوتٌ غريبٌ جدًّا. ثم قالت:

- لقد مات عزيزي «عثمان».

اندهشت من سرعة انتشار الأخبار المحزنة.

تمتمت:

- تعازيَّ الحارَّة. لهذا اتصلت بكِ. يبدو أن العائلة تحملني مسؤولية وفاته.

صمتنا لوهلةٍ، ثم قُلتُ أنا:

- هذا غير صحيح، لكنه يحمل بعضًا من الحقيقة.

ما زالت المرأة صامتة تمامًا، لكنني عرفت أنها لم تغلق الخط لأنني أسمع صوت شهيقها. قالت من دون أثرٍ للبكاء في صوتها:

- فكري قليلًا. كيف يمكنكِ أن تقتلي «عثمان»؟

- بصراحة.. هذا ما أتساءل عنه. يجب أن تعلم الشرطة ذلك، وكذلك إخوته.

- أين أنتِ؟

- في بيت صديقتي في منطقة «كوزجونجوك».

ستقتلني «لالي» إن لم أذهب معها للعشاء الليلة.

- جيد. أنا في «كوشو يولو». اكتبي العنوان.

لا خيار لديَّ سوى إطاعتها، فهناك نبرةٌ لا تقاوم في صوتها.

وعدت «لالي» أن أعود خلال نصف ساعةٍ أو ساعةٍ على الأكثر. تركتها وركبت تاكسي من منطقة «كوزجونجوك» الراقية. إن تاكسيات المناطق الراقية تختلف تمامًا عن التاكسيات العادية التي تجوب شوارع إسطنبول. على الأقل لا تفوح مقاعدها برائحةٍ كريهة، ولا يصر سائقوها على حشو عقلك بآرائهم السياسية وأفكارهم عن الاتحاد الأوروبي، كما أنهم لا يتهورون في القيادة. باختصار، يمكنك أن تركبها دون خوفٍ على حياتك.

قال السائق:

- وصلنا يا سيدتي.

توقفنا أمام مجموعةٍ من العمارات المريعة. عشرون واحدة بجوار بعضها. البلكونات أشبه بالمخازن. هناك غسالات، وآلات كيٍّ ضخمة، وبراميل، وصناديق خشبية، وعربات أطفال محطمة، ومقاعد بسيطة الطراز من دون وسائد، وطاولة سفرة تكفي اثني عشر فردًا. كل هذه الأغراض تنتظر تحت أشعة الشمس الذهبية بانتظار اليوم الذي تعود فيه للداخل.

تسكن «حبيبة» هانم في العمارة «ج»، شقة رقم 24. أخبرتني أن الجرس مكتوبٌ عليه اسم «بويوكتونا». ليس معتادًا في تركيا كتابة لقب العائلة فقط عند الجرس.

عندما تضع امرأة لقب العائلة وحده على الجرس فهذا يعني أنها تعيش بمفردها، لكنها لا تريد أن يعرف الجيران هذا. فعلى عكس حي «جيهانجير»، ليس كل المناطق ترحب بمن يعيش وحده.

ركبت المصعد للطابق السادس.

وجدتُ أربع شققٍ في هذا الطابق. ضغطت على جرس الباب الموارب، ثم قربت فمي من فتحته الصغيرة، وناديت:

- «حبيبة» هانم؟

- تعالي، تفضلي. أنا في المطبخ.

إنه صوت المرأة التي حدَّثتها في التليفون.

أغلقت الباب ووقفت بترددٍ في المدخل.

نادتني من المطبخ الذي كان على يسار باب الشقة، وقالت:

- لا داعي لخلع حذائكِ. ادخلي كما أنتِ. كنت خارج إسطنبول لمدة شهرين، والمكان غير نظيف بأي حال.

انتظرت بصمتٍ عند باب المطبخ، واستمعت لـ«حبيبة» وهي تفرغ الطعام من الأكياس وتضعه الثلاجة. دائمًا أشعر بالخجل عندما أزور بيتًا تركيًّا. أشعر كأنني جاسوسٌ يتطفل على خصوصية الناس. يتعلَّق الأمر بالأهمية التي يمنحها الأتراك لبيوتهم، والديكورات الصغيرة التي يملؤونها بها، والتفاصيل البسيطة التي تكشف كثيرًا عن شخصية السكان. أظنني أخاف من البيوت التركية. إنها تشعرني بأنني متلصصة، فأرتعب لأنني رأيت شيئًا لم يكن من المفترض أن أراه، وسأظل أحاول مسحه من ذاكرتي. لذلك لا أدخل شقةً أبدًا إلا إذا دعاني أصحابها.

وهكذا، وقفتُ محنطة على باب المطبخ بانتظار السيدة أن تدعوني للجلوس.

قالت «حبيبة» هانم:

- هل تودين بعض القهوة؟

- تأخر الوقت على شرب القهوة بالنسبة لي، لو شربتها لن أنام.

- ما رأيكِ في مشروبٍ بارد؟ شاي مثلج؟

لقد أصبح رائجًا في تركيا. لكن بعدما قرأت المكونات على العبوة، أظنه مشروبًا مقززًا. ومع ذلك من الوقاحة أن ترفض ما يقدمه لك مضيفك التركي، خاصةً إن قابلته للمرة الأولى وتحاول التعارف. لذلك قُلتُ:

- هذا رائع.

وضعت «حبيبة» هانم علبتين من الشاي المثلج وكوبين على صينية، ثم توجهت إلى غرفة الجلوس. هذا ليس عدلًا، إن غرفة الجلوس والمطبخ متصلان.

كانت غرفة الجلوس مزدحمةً بالأثاث. هناك طاولة سفرة ضخمة، وعلبة زجاجية مليئة بأدوات الطعام، وتليفزيون، وطاولتان رخاميتان بحجمين مختلفين، وبذلة من ثلاث قطع تبدو غير مريحةٍ على الإطلاق. جلست على أحد المقاعد، بينما جلست هي على الأريكة. بمجردِ أن جلست أشعلت سيجارةً وسألتني:

- إذًا، هل تريدين إخباري بما حدث؟

- حسنًا، في الواقع...

- كيف وجدتني؟ أجيبيني أولًا.

- «عثمان» بك...

بدا اللفظ غريبًا، هل عليَّ أن أقول «المتوفى «عثمان» بك»؟ أم سيكون مؤلمًا؟ ترددت وتوقفت عن الكلام.

- نعم؟

كانت عيناها الصغيرتان الجميلتان تقيمانني بينما تنتظر بعدم صبرٍ لأكمل كلامي. قررت أنها لا تهتم حقًّا بكيفية إشارتي له. هذا غريب. هل هذه هي حقًّا المرأة التي انتحبت عند سماع اسم «عثمان» على التليفون؟

- ثم؟

- في الطابق الواقع تحت شقة «عثمان» هناك ورشة تغليف، اسم مالكها «يوجل» بك. ربما تعرفيه. إنه طويل وكبير السن.

هزَّت رأسها نفيًا. يبدو أن وصفي ليس جيدًا. نفد صبرها وهي تحثني على المتابعة وتقول بلهجةٍ آمرة:

- نعم؟

لو استطعت تغيير مسار الحديث، لسألتها عن إيجار شقتها وتكاليف الوقود، وعن العلاقة بين الناس في دار الضيافة الموجود بجبل «إيدا». لكن لا تبالوا بتغيير مجرى الحديث، فأنا لم أستطع حتى التحكم في ذراعَيَّ وساقَيَّ. عندما أردت الإمساك بكوب الشاي المثلج بالخوخ، أفلت من بين أصابعي كالسمكة ووقع على السجادة القبيحة.

نهضت قائلة:

- أخبريني أين تضعين قماش التنظيف وسأمسح السجادة.

لم تبالِ، وقالت وهي تشير إلى مقعدي:

- لا عليكِ، اجلسي. سيأتي أحدٌ للتنظيف غدًا. هل انسكب عليكِ؟

تحسَّستُ بنطلوني. كان جافًّا لحسن الحظ، وإلا لكانت أمسيةً مكلفةً جدًّا. فهذا البنطلون جزءٌ من بذلة.

أجبتها:

- لا. لكن ماذا عن السجادة؟

قالت وهي تدخل المطبخ:

- لا تهتمي. سأحضر لكِ شايًا آخر.

حتمًا ظننتم أنني تخلصت من ذلك الشاي الزائف ورائحته الصناعية، صحيح؟ لا.

عادت للغرفة ومعها علبةٌ وضعتها بقوةٍ على الطاولة، ثم قالت:

- إذًا، ماذا قال الرجل الموجود في الطابق السفلي؟

- لقد ذكركِ. لا يعرف كثيرًا عنكِ، لكنه يتذكر أغنيتك «الحورية أفتاليا» التي أُذيعت على التليفزيون.

أرجعت ظهرها على الكرسي وأطلقت ضحكةً مغريةً صاخبة. إنها آخر ما توقعت سماعه في هذه الشقة، بينما أجلس بالقرب من سجادةٍ قبيحة مع الحبيبة السابقة للمجرم «عثمان».

قالت:

- عزيزتي، هل تقصدين أن هناك أشخاصًا ما زالوا يذكرونها؟

واصلت وكأنها تكلم نفسها:

- هذا يرفع الروح المعنوية. مضى زمنٌ طويل.

لا بُدَّ أن هذه المرأة تصغرني بعشر سنوات، لذلك فإنها تعتبر أن أربع أو خمس سنوات مدةٌ طويلة. في حين أن المدة نفسها بالنسبة لي تبدو كالأمس. هذا فظيع.

- لستِ امرأة يسهل نسيانها.

لم أقل ذلك على أمل أن أكسب رضاها عن طريق مدحها.

- من المثير للاهتمام أن تقول امرأةٌ تعليقًا كهذا.

- في الواقع، من المهم أن تقول النساء تعليقاتٍ من هذا النوع.

أصبح بارعةً في الهراء حين أندمج في الحديث. المشكلة هي أنني أشعر بالملل سريعًا ولا أستطيع الاستمرار، لكن يبدو أن تعليقي أثر بها، لأن «حبيبة» هانم أنزلت كوبها على الطاولة بقوة فانسكب الشاي المثلج وانتشر تدريجيًّا ليصنع بُقعة لزجة.

ذهبت لتفتح دولابًا أسفل التليفزيون وهي تقول بتعجب:

- لا أعرف كيف نشرب هذا الشيء؟ إنه ليس سوى ماء محلى! ماذا تشربين بدلًا منه؟

انحنيت لأرى الزجاجات التي في الدولاب، ثم اخترت «ويسكي» مع الصودا والثلج بالطبع.

تحدَّثنا في موضوعاتٍ كثيرة قبل أن نعود للحديث عن «يوجل» بك. انتهى أمر عشائي مع «لالي» تمامًا. ما باليد حيلة، فهي مسألة حياةٍ أو موت بالنسبة لي.

وجدت «لالي» مستيقظةً عندما عدت إلى «كوجونجو» في منتصف الليل. لقد تخلت عن النوم باكرًا منذ فقدت عملها. وجدتها جالسةً في الحديقة تدخن سيجارة.

سألتني:

- كيف كانت المرأة؟

- غير مريحةٍ إطلاقًا. ظللت أدور حول الموضوع وأعود إليه. ثم...

-... ثم أشعلتِ النار في مقعدكِ بسيجارةٍ وأصبحتما صديقتين فجأة.

لا أحب أن يعرف الناس أدق تفاصيل شخصيتي. لا أحب ذلك أبدًا.

- سقط الكوب من يدي على الأرض.

قالت «لالي»:

- على الأقل هذا يختلف عمَّا قُلتُ.

ثم ذهبت لتنام وهي تنظر إليَّ نظرة اتهام. وكأنني تخلَّيت عنها.

لم أعرف كثيرًا من «حبيبة»، لكن لم تضع الأمسية هباءً لأنها أخبرتني باسم ورقم حبيبة «عثمان» الحالية. «حبيبة» تعرفها. عندما تحدثت عنها احمرَّ وجهها وبدأت تحرك جريدةً قديمة كالمروحة.

اتصلت بالحبيبة الجديدة في ظهيرة الصباح التالي.

- هل يمكنني التحدُّث إلى «إنجي» هانم، من فضلك؟

- «إنجي» هانم نائمة. أنا مساعدتها. يمكنكِ ترك اسمكِ.

- إنها لا تعرفني. اسمي «كاتي». سأتصل بها لاحقًا. متى ستستيقظ؟

قال المساعدة:

- خلال ثلاث أو أربع ساعات.

ثم أغلقت الخط.

اتصلت بعد ثلاث ساعات. ليس لديَّ ما أفعله لذلك لم أنسَ. من الواضح أن رد المساعدة مخصصٌ للناس أصحاب جداول المواعيد الممتلئة، لكن هناك قلةً مثلي ما زالوا يعتمدون على ذاكرتهم.

أجابتني امرأةٌ أخرى، لا بُدَّ أنها «إنجي» هانم. قُلتُ:

- «إنجي» هانم؟

- نعم، إنها أنا.

- اسمي «كاتي هيرشيل». هذا الصباح...

- نعم، اتصلتِ بينما كنت نائمة. أخبرتني «حفيظة». إن كنتِ تسوّقين لمنتجٍ ما، فأنا لست مهتمة. ولا أريد المشاركة في أي استبيانٍ على التليفون.

لم أسمع من قبل عن استبيانٍ عبر التليفون. قُلتُ لها:

- لا، أنا لا أبيع شيئًا. أريد فقط التحدُّث معكِ بخصوص «عثمان» بك.

- «عثمان»؟ هل يدين لكِ بالمال؟ اسمعي، أنا لم أتورط قط في أعمال «عثمان». اذهبي واسألي إخوته. إن كنتِ لا تعرفين مكانهم سأعطيكِ رقم التليفون.

على الأقل لم تجهش بالبكاء عند سماع اسم «عثمان».

- لا يوجد دين. الأمر هو... كيف أصفه؟ الأمر معقد. لقد تعاركت مع «عثمان» قبل مقتله بقليل. أملك محلًا في «كوليديبي».

هل كلامي منطقي بالنسبة لشخصٍ لا يعرف شيئًا عمَّا يجري؟

- ثم؟ تحدَّثي بسرعة.

- تعرض «عثمان» للقتل بعد عراكي معه، لذلك يشتبهون في أنني القاتلة.

- من؟

- الشرطة وإخوته.

- لا أعرف بشأن الشرطة، لكن من الغريب أن يظن إخوته ذلك.

صمتت قليلًا، ثم أضافت:

- هل هذه مزحة؟

يبدو أن هذه المرأة ذكية. قُلتُ لها:

- الأمر لا يحتمل المزاح.

صمتت مجددًا فبدأت أعضُّ شفتَي، وهي عادةٌ أكرهها.

سألتني أخيرًا:

- كيف وجدتني؟ وماذا تريدين؟

- ظننتكِ تستطيعين مساعدتي في إيجاد القاتل. حصلت على رقمكِ من «حبيبة» هانم.

نسيت لقب عائلتها.

- «حبيبة»؟

سكتت لحظة فتذكرت أنا اللقب، وقُلتُ:

- «بويوكتونا».

- نعم، أعرفها. كيف تعرفان بعضكما؟

- قابلتها بسبب الموضوع نفسه.

ساد صمتٌ طويل، فقُلتُ:

- «إنجي» هانم...

توقفت لأنني لم أعرف ماذا أقول.

تنهَّدت وقالت:

- إن رغبتي تفوق رغبتكِ في إيجاد القاتل، لكن لا أظنني أعرف ما يفيدكِ. يا للأسف. قُلتِ إنكِ تملكين محلًا في «كوليديبي». ماذا تبيعين؟ النجف؟

أجبتها وأنا واثقة بأنها ستعتبر الأمر تافهًا:

- روايات الجريمة.

- حقًّا؟ حقًّا؟ أنا أعشقها! أحب شخصية اللص في روايات لـ«لورانس بلوك» من هو كاتبكِ المفضل؟

ارتفع صوتها بحماس، وأدركت أن تلك النبرة لا تصدر إلا من عاشقٍ لروايات الجريمة. هل أتوهم هذه المحادثة؟ أم أنني حقًّا جالسة مع امرأةٍ تكون حبيبة مجرمٍ، لكنها تعشق الروايات البوليسية؟

- كاتبي؟ أفضل حاليًا الكاتبة «مينيت والترز»، لكن ذوقي يتغير باستمرار.

ارتفع صوتها لنبرة فتاةٍ مدللة وهي تقول:

- «مينيت والترز»؟ لم أقرأ أيًّا من مؤلفاتها. حسنًا إذًا، أحضري لي روايةً لـ«مينيت والترز» عندما تأتين. ولنرى هل سأحبها أم لا.

قالت شيئًا آخر قبل أن أغلق الخط. كانت نبوءة:

- أتعلمين؟ أظنكِ ستحلين هذه الجريمة. حدسي قوي. سأقرأ لكِ حظكِ في أوراق التاروت عندما نتقابل.

قالت إنها تريد مقابلتي في مكانٍ مفتوح حتى لا نتعرض لدخان السجائر، وسألتها عن عنوانها. المكان المفتوح الوحيد الذي جاء ببالي في منطقتها هو مقهى «بيبيك».

كنت أذهب مع «سليم» إلى هناك لتناول الإفطار مؤخرًا، لذلك لم يكن الخيار الأفضل بالنسبة إليَّ، لكنه كان مناسبًا للقائي مع «إنجي»، حتى لو اضطررت لاسترجاع ذكرياتي السعيدة.

تقع منطقة «بيبيك» بمُحاذاة الضفة الأوروبية للبوسفور، وهي أجمل منطقةٍ في رأيي. لو كنت أغنى أو لو كانت الإيجارات أرخص، لعشت هنا بالتأكيد. كان «سليم» يسكن في بيتٍ قديمٍ وجميل على أحد التلال خلف «بيبيك». لا أحب التحدُّث عنه بصيغة الماضي، لكن عليَّ تقبل الواقع. لقد أصبح من الماضي، وهذا قراري النهائي.

لم أطق أن أفتح المكتبة وأعاني مع الأقفال مجددًا لأحضر لها روايةً لـ«مينيت والترز»، لكنني لم أرد أن أحضر لها روايةً مستعملة من المنزل. ربما لا تحب ذلك. أما أنا فأحب الكتب المستعملة، فأحيانًا تجد أشياءَ بين الصفحات. لا أقصد شيئًا رومانسيًّا مثل زهرةٍ جافة، بل قد تكون بُقعة شاي أو فتافيت كيك. هذا يسليني، خاصةً إذا كنت أعرف صاحب الكتاب.

ذهبت إلى محل «تشاندان»، فهي أيضًا مولعةٌ بروايات الجريمة وتملك مجموعة كتبٍ رائعة. بالتأكيد لديها روايات لـ«مينيت والترز». بالفعل وجدت الكتب بسهولةٍ، وكأني وضعتها على الرَّف بنفسي.

ذهبتُ للموعد أبكر قليلًا، وقُدتُ بسرعةٍ لأجد وقتًا لشرب بعض الشاي وتدخين سيجارةٍ قبل قدوم «إنجي» هانم. يكره بعض الناس دخان السجائر، لكن بالنسبة لشخصٍ تُوفيت والدته بسرطان الرئة، فمن المؤكد أنه لن يتحمل حتى أن يدخن أحدهم بالقرب منه. قابلت بعض الناس على هذه الشاكلة.

انتهيتُ من تدخين سيجارتين قبل وصولها. ليس لأنها تأخرت، بل لأنني خبيرةٌ في التدخين. أعلم أن هذا لا يستحق التفاخر به أمام أصدقائي أو قُرَّائي. لا يهم!

وصفت مظهري لـ«إنجي» هانم، لكنها لم تقل حرفًا عن شكلها. لو أنها قالت «أنا حامل»، لكان ذلك كافيًا. من الواضح أن هذا هو سبب كرهها للسجائر. إنه أكثر منطقيةً من كون والدتها توفيت

بسرطان الرئة. إنها امرأةٌ جميلة بغض النظر عن حالتها، وربما كانت حالتها هي السبب في جمالها. كانت تشبه تلك الممثلة من فيلم «The Big Sleep»، اسمها «لورين باكال» على ما أظن.

نظرت إلى علبة السجائر على الطاولة ثم قالت وهي تعبث بياقة قميصها:

- كنت أدخن بشراهة. وجدت صعوبةً في الامتناع عنها، وأنا مندهشةٌ لأنني لم أعد إليها بعد كل ما حدث.

كانت ترتدي قميصًا واسعًا مُغطًّى بوردٍ أحمر كبير له سيقان خضراء، أمَّا البنطلون فهو أسود اللون. في رأيي، إنها ثيابٌ مناسبةٌ للحمل تمامًا.

قُلتُ مازحةً:

- عندما فكرت في إنجاب طفل، كان أصعب جزءٍ هو ضرورة الامتناع عن التدخين. وبالطبع إيجاد الشخص المناسب الذي يصلح لأن يكون أبًا.

ردت بابتسامةٍ واسعة:

- أنتِ مُحقَّة. كنت أتدبر أمري بالرجل الذي معي.

ثم هزَّت كتفيها وهي تضيف:

- لكنه رحل الآن وتركني وحيدة.

لم تبدُ حزينة، بل بدت وكأنها تقر بالواقع لا أكثر.

أشرتُ بذقني إلى بطنها، وسألتها:

- هل هو طفل «عثمان» بك؟

- كان لديَّ موعدٌ مع المحامي اليوم. ذهبت لمقابلته قبل أن آتي إليكِ. هل رأيتِ ما الذي أفعله قبل أن تبرد جثته حتى؟

ثم رفعت حاجبها، وأضافت:

- لا تظني الأمر سهلًا، لكن عليَّ أن أحمي حقوق طفلي. لن أتخلَّى عن الميراث.

- هل كنت متزوجة من «عثمان» بك؟

- لقد أسرعت إلى المحامي لأننا لم نكن مُتزوِّجَين. أحاول أن أضمن حصول طفلي على ميراثه.

- لكنه متزوجٌ من أخرى، صحيح؟

حرَّكت كفَّيها بإشارةٍ تنمُّ عن جهلها للإجابة، وهي تقول:

- الله أعلم. لقد تزوَّج إحدى قريباته بالطبع، لكنه أخبرني أن الزواج ليس مُسجَّلًا رسميًّا. تزوجها صغيرًا جدًّا وقال إنهما لم يُقيِّدا الزواج في السجلات الرسمية قط. لا أعرف، ربما كان يخدعني فقط.

- هل تعني أنهما تزوَّجا شرعًا فقط على يد مأذون؟

هزَّت كتفيها، وقالت:

- عديد من الناس يفعلونها. إن أحياء المهاجرين في إسطنبول مليئةٌ بالأزواج الذين تزوَّجوا على يد مأذونٍ فقط.

دققت النظر إليَّ، ثم أضافت:

- لكن وما أدراكِ أنتِ بما يحدث في هذه المناطق على كل حال.

في الواقع، كل أحياء إسطنبول - بما فيها حي «جيهانجير» - تمتلئ بهذا النوع من الزواج.

سألتها:

- وهل هذا الزواج الديني لا يورث الزوجة والأطفال؟

- هنا مربط الفرس. وفقًا لكلام المحامي، يحق لأطفال «عثمان» الحصول على الميراث بشرط أن يكون اسمه مُسجَّلًا في شهادة ميلادهم، لكن لا يحق للزوجة أن ترث من دون عقد زواجٍ رسمي، وهذه هي مشكلتي.

مرَّرت يدها في شعرها وهي تواصل:

- لا يهمني ما يحدث للآخرين. كل ما أريده هو أن يحصل طفلي على ميراثه.

يبدو أن دهشتي ظهرت على وجهي، لأنها أضافت:

- لا تسيئي فهمي. أحببت «عثمان» كثيرًا كما أحب طفلنا، لقد عشقته، لكن كفى وعودًا جوفاء. لن أرفع آمالي كثيرًا حتى لا يخيب أملي في النهاية. هذا كل شيء.

- منذ متى تعرفين «عثمان»؟

- ألم تخبركِ «حبيبة»؟

- لم تخبرني عن كثير. لا يهمني الأمر، لكنني أحاول فقط إنقاذ نفسي.

- أنتِ مُحقَّة. لماذا يهمكِ أساسًا؟!

أنزعج عندما أفكر فيما قالته. لا أعرف ما أخبرتكِ به، لكن قصتها عن سرقتي لحبيبها غير صحيحة.

- قصتها؟

- كما ظننت. يا لها من امرأة. ليتني أفهم مشكلتها. إنها تقول الكلام ذاته لكل الناس. هل أخبرتكِ بذلك حقًّا؟

أجبتها بينما أتساءل إن كانت «حبيبة» كذبت عليَّ:

- قالت إنها كانت حبيبة «عثمان»، وأنها من عرَّفته بكِ.

ثم أضفت:

- هذا لا يهم بأي حال.

- لكنها تنشر الأكاذيب. «حبيبة» لم تُعرِّفنا ببعضنا. اختارني «عثمان» لأنه أُعجب بي. كنت طالبةً مجتهدة في المرحلة الثانوية. وكنت أعيش بالقرب من عائلة «عثمان» في الحي نفسه. اعتاد رؤيتي أثناء ذهابي وعودتي من المدرسة. لم أكن أبدًا الفتاة التي تنبهر بالأثرياء ذوي السيارات الفخمة. لا تسيئي فهمي، كنا في غاية الفقر، لكن هذه مسألةٌ أخرى. بمجرد انتهاء اليوم الدراسي، كنت أعمل وأخيط الترتر على البلوفرات. وكل ما أجمعه من مالٍ أساهم به في مصاريف المنزل. فكرت في أن «عثمان» سيرحمني من هذا الشقاء. هذا كل شيء. لقد تخلَّيت منذ زمنٍ طويل عن الأفكار الحالمة التي تقول إن كل إنسان يبني نفسه بنفسه. الشباب هو سن المرح، لكن شبابي كان أشبه بالسقوط في بئرٍ عميقةٍ بلا قرار، وعند مرحلةٍ محددة يختفي شعاع الأمل، ويستمر السقوط.

- كيف كان «عثمان»؟

- لم يكن سيئًا، وإلا ما تحملته كل هذه الفترة. كانت ثقافتنا مختلفةً جدًّا بالطبع. وهذا أزعجه أكثر مما أزعجني. فعلى سبيل المثال، إنه لم يتحمل رؤيتي أقرأ كتابًا. لذلك لم نضع كتبًا في المنزل، بل كنت أقرؤها سرًّا، ثم أرميها في سلَّة المهملات. تخيَّلي صعوبة ذلك بالنسبة لمدمنة قراءة تعشق روايات الجريمة. أوَّل ما فعلته عندما سمعت بوفاة «عثمان» هو التخلص من سلَّة المهملات. هل تصدقين؟ لم أتحمل النظر إليها. كانت تشعرني بالذنب.

ساد بعض الصمت، ثم سألتني:

- هل يمكنني التدخين؟

- أنا آخر من يمكنها تقديم النصيحة في هذا الأمر.

- كما تشائين.

لم تنطق بكلمةٍ حتى أنهت نصف السيجارة، ثم قالت:

- بعد مكالمتكِ لي، اتصلت بـ«أوزجان» شقيق «عثمان» الأصغر. إنه شابٌ عاقل.

- تشرفت بمقابلته، لكنه لم يبدُ لي عاقلًا كما تقولين.

- عذرًا، هل يمكنني سؤالكِ عن أمرٍ ما؟ هل أنتِ حقًّا ألمانية؟

- أفضِّل القول إنني «إسطنبولية»، لكن أصولي ألمانية بالفعل.

ابتسمت لكلامي، وقالت:

- لا تسيئي فهمي. أنت تتحدَّثين التركية بطلاقة، لهذا سألتكِ. حتى إنكِ تجيدين استخدام المصطلحات القديمة، ولا يوجد لديكِ سوى لكنةٍ خفيفةٍ جدًّا. لا يكشفكِ إلا بعض الكلمات أحيانًا. أنا أهتم كثيرًا باللغة، فقد اعتدت على نيل أعلى الدرجات في مادة اللغة التركية في المدرسة.

شككت في أن يكون شعري البرتقالي المصبوغ هو ما كشفني، فسألتها:

- كيف عرفتِ أنني ألمانية؟

- أخبرني «أوزجان» في التليفون. قال إن والدكِ وزير الداخلية الألماني.

- ماذا؟

- والدكِ...

- تُوفي والدي منذ سنوات عديدة. من أين جاء بهذا الكلام؟

أشارت بأنها لا تعرف. ثم تذكرت أنني قُلتُ هذا الكلام بعدما أخذت الشرطة أقوالي وهدَّدني أحد أشقَّاء «عثمان». يبدو أنه صدقني حقًّا. وماذا لو كان والدي وزيرًا حقًّا؟ حقًّا؟ ينتبه الناس على أشياءَ غريبة!

سألتُها:

- هل تركتِ المدرسة من أجل «عثمان»؟

بدت «إنجي» هانم معجبة بالحديث عن أيام دراستها.

- لا، ما كنت لأفعل ذلك أبدًا. لقد تقابلنا في السنة الأخيرة. تخرَّجتُ في مدرسةٍ ثانوية تجارية. إنها إحدى مدارس التعليم الفني التي يذهب إليها الفقراء لكي يبدؤوا في كسب الرزق بمجرد التخرج. ربما سمعتِ بها. إنهم يدرسون المحاسبة والطباعة على الآلة الكاتبة، وما إلى ذلك. إن دخول الجامعة حلمٌ بعيد المنال بالنسبة لخريج المدارس الفنية. أردت الدراسة والالتحاق بالجامعة وتعلم الكثير. ربما يمكنني فعل ذلك الآن إذا حصلت على حصةٍ من الميراث. ربما ألتحق بجامعةٍ خاصة، لأن الدخول إليها أسهل من دخول الجامعات الحكومية.

- لا شيء مستحيل إن أردته بحق.

لوت شفتها السفلى وقالت:

- أليس هذا غريبًا؟ يموت شخصٌ، ويولد غيره، وتشعر امرأة بالحرية لأول مرَّة في حياتها.

- بينما امرأة أخرى تُتَّهم بجريمة قتل.

ابتسمت ابتسامةً واسعة، وقالت:

- لا تقولي ذلك. لا أحد يتَّهمكِ بالقتل.

- هل هذا ما قاله «أوزجان»؟ لقد اتَّهمني أمس أمام المباحث الجنائية.

- المشتبه الأساسي هو عمُّهم. لذلك اتَّهمكِ «موسى» ليبعد الشبهة عنه.

- من «موسى»؟

- إنه الشقيق الذي يلي «عثمان» في العمر. وهو يدير الجراج الذي في «كوليديبي». أو بالأحرى.. إن الجراج هو من يديره، فهو مُغفَّلٌ تمامًا. ماذا تتوقعين من هذا الأحمق؟ وفقًا لـ«أوزجان»، لم تأخذ الشرطة اتِّهامكِ على محمل الجد. لذلك لا داعي لتعذيب نفسكِ.

- لا يجب الاستهانة بأمرٍ كهذا. لقد سجَّلوا أقوالي وجعلوني أُوقِّع عليها.

هزَّت كتفيها، وقالت:

- إنهم هنا يُسجِّلون الأقوال حتى في حوادث المرور.

- لكن هذا عادي. إنهم يفعلون ذلك إذا شهدتِ حادثة، وليس من فراغ.

- هل تحدثتِ مع مُحامٍ؟

- لا أريد سماع كلمة مُحام.

- لماذا؟ هل خدعكِ أحدهم؟

- لماذا تقولين هذا؟

- لا أعرف. يقول الناس إن المُحامين مُخادعون، صحيح؟ ربما لهذا السبب.

أشعلت سيجارةً، وأشرت للجرسون لأطلب كوبين من الشاي، ثم قُلتُ:

- حبيبي مُحامي، لكننا انفصلنا منذ أقل من أسبوع.

(6)

مات «عثمان» بسبب إصابته برصاصةٍ في ساقه أو بسبب النزيف. لم يكن الجرح قاتلًا، بل كان أشبه برسالة تهديد. قالت «إنجي»: «على الأرجح أنهما تعاركا».

تحول مكتب «عثمان» إلى حطام. كل الكراسي والطاولات مقلوبة. أيًّا كان القاتل، لقد أخرج مسدسه وأطلق النار على ساق «عثمان». مجرد تهديد، ولم يظن القاتل أو «عثمان» أنه سينتهي بالموت.

لكن «عثمان» يمتلك مسدسًا أيضًا. لماذا لم يطلق النار بدوره؟

تقول «إنجي» إنه لم يَسِر «فارغ اليدين» قط.

عندما سألتها عن معنى كلامها قالت إن لغتي التركية ممتازة لدرجةٍ أنستها أنها ليست لغتي الأم. ثم وضحت لي أن «فارغ اليدين» تعني «أعزل». لكن من المحتمل أنه لم يحمل سلاحًا في المكتب كما لم يحمله في البيت.

هذا يعني أن «عثمان» كان مسلحًا عندما اقتحم مكتبتي. حاولت تذكر مشهد دخوله. لا أذكر ملابسه، ولا أتذكر إن كان هناك انتفاخٌ عند خصره ليدل على وجود مسدس. يجب عليَّ الحذر عندما أقرر قذف أحدهم بطفاية السجائر في المستقبل. لا أحد يعلم من قد يكونون. فالدنيا غابةٌ كبيرة كما يقول «يوجل» بك.

دعتني «إنجي» على العشاء في شقتها، لكنني لم أحتمل زيادة نشاطي الاجتماعي في الأيام القليلة الماضية، بالإضافة إلى اقتناعي بأنه لا داعي للود الزائد في بداية التعارف بين الناس. لو أنني ذهبت، لقرأت لي حظي في أوراق التاروت.

اليوم التالي كان الأحد. عندما استيقظت شعرت بغيظٍ شديد، لأنني تذكرت أن الأمس كان السبت، لكنني نسيت لقائي الصباحي مع «يلماز» في حديقة «فيروز أغا». إنها غلطتي لأنني لا أملك دفتر مواعيد. كل هذا لأنني لا أريد التصرف كألمانيةٍ تقليدية.

نهضت وأسرعت للتليفون. عندما عُدتُ مساء أمس لم أجد رسائل صوتية، وهذا ليس مستحيلًا بما أن «بيلين» موجودةٌ لترد على المكالمات. لم أجد «بيلين» بالمنزل، ولم تترك لي رسالة. هذا يعني أن «يلماز» لم يتصل بي. ازداد غضبي لأنه لم يتصل بي على تليفون المنزل، أو حتى على الموبايل. كيف يفعل هذا بعد سنين الصداقة الطويلة؟! ثم قُلتُ لنفسي إنه عليَّ توقُّع هذا منه. فكرت في كلامٍ أقوله له، ثم اتصلت به وأيقظته.

قال:

- ألا تعرفين كم الساعة؟ الأحد إجازة كما تعلمين.

لو كان يستطيع قتلي عبر التليفون لفعل، ولما استطعت كتابة هذه السطور.

قُلتُ له:

- أريد الاعتذار بشأن الأمس.

- لنتحدَّث لاحقًا.

حككتُ رأسي، ودخلت المطبخ. كنت بحاجةٍ ماسَّة إلى كوبٍ من القهوة، ولا مانع من إضافة بعض اللبن لتصبح مثل الـ«كابوتشينو». بالتأكيد هناك ما يمكننا خلطه بالماء لأحصل على مشروبٍ يشبه الـ«كابوتشينو». فتحت الدولاب وأخرجت علبةً كبيرة بها أكياس «كابوتشينو» سريع التحضير. بقي لها ثلاثة أشهرٍ قبل انتهاء الصلاحية. هذا جيد. الخبر السيئ هو أنني لاحظت أن بها مادةً حافظة تسمى «Stabilizer e339» التي تسبب عُسر هضم. من المستحيل أن أتناول هذا الشيء حتى لو زعم العالم - في هذا الصباح الجميل من سبتمبر - أنها ليست مضرةً للصحة. عدت لغرفة الجلوس وناديت من النافذة لأطلب قهوةً تركية. يمكنك في إسطنبول أن تنادي المحل من النافذة وتطلب ما تشاء، كما يمكنك أن تطلب بالتليفون. لكن لماذا تتصل في حين أنه بإمكانك أن تنادي من الشباك؟ ناديت على الشاب «حمدي»، وطلبت منه أن يحضر لي كيسًا من القهوة التركية.

بعد خمس دقائق، جاء «حمدي» بالقهوة. هذه ميزةٌ أخرى لإسطنبول والأتراك. لو كنت في برلين، لبحثت في نصف المدينة حتى أجد محلًا يبيع قهوةً صباح الأحد.

تمكنت أخيرًا من إيقاظ «بيلين»، حيث جلست في البلكون الموجودة بالغرفة التي تنام بها. شربت القهوة وتعمدت إصدار بعض الضوضاء.

ترنَّحت وهي تسير من السرير إلى البلكون مغمضة العينين، وسألتني:

- لماذا استيقظتِ باكرًا؟

- ليس باكرًا أبدًا، إنها التاسعة صباحًا.

دَخَلَت الحمَّام، وسمعت صوت السيفون، ثم صوت بابٍ ينغلق بقوة. يبدو أنها عادت للسرير لتواصل النوم. ظللتُ جالسة في مكاني كالمُتشرِّدين حتى رنَّ التليفون.

إنها «إنجي»، صديقتي الجديدة.

- صباح الخير، هل أيقظتكِ؟

- لا يا عزيزتي، لقد استيقظت منذ ساعتين على الأقل.

- وأنا أيضًا استيقظت باكرًا هذا الصباح. لا أفعل هذا عادةً. لقد تحدَّثت للتَّو مع «أوزجان». إنه شقيق «عثمان» الأصغر كما تعلمين. إنه صديقي. ما زال لا يفهم سبب اهتمامكِ بهذا الأمر.

ثم ضحكت بشدَّةٍ، وأضافت:

- مسكين، فهو ليس عاشقًا لروايات الجريمة مثلنا.

- بدأت بقراءة أحد الكتب التي أعطيتني إياها بالأمس. إنه عنيفٌ جدًّا، أليس كذلك؟ ربما من الأفضل أن أقرأه بعض الولادة، لأنني لن أتمكن من تركه حتى أنهيه.

- لا تقرئيه ليلًا وإلا لن يغمض لكِ جفن.

- هل قرأتِ صحف اليوم؟

- لا.

- لم يمضِ سوى يومين، وهناك ثلاث أخبار في الصفحة الأولى لثلاث صحف، لا أعرف كيف حصلوا على صورة «عثمان» في جواز سفره، كما اكتشفوا أنه تعارك مع عمِّه بشأن المال. هذا كل شيء.

- قُلتِ إنكِ تحدَّثتِ مع «أوزجان».

- نعم، لهذا اتصلت بكِ في الواقع. سيأتي «أوزجان» لزيارتي وقت الظهيرة. قُلتِ إنكِ تريدين سؤاله عن بعض الأمور، صحيح؟

- متى يمكنني الحضور؟

- تعالي باكرًا. تعالي الآن إن شئتِ. يمكننا قراءة الطالع في التاروت. هل تناولتِ إفطاركِ؟ يمكننا تناوله معًا.

- حسنًا.

كان منزل «إنجي» شديد النظافة مثل كل منازل ربَّات البيوت التركيات. هذا ما تمتاز به إسطنبول، بيوتٌ نظيفة وشوارعٌ قذرة. لهذا أطعتها عندما طلبت مني خلع حذائي عند الباب. أعطتني «شبشب» ذا كعب عالي ومزينًا بالريش ومقاسه 36. لم يناسب مقاسي بالطبع، لذلك ارتديت «شبشب» رجالي. إنه «شبشب» رجلٍ ميت. عندما ارتديته شعرت ببرودةٍ تسري بسرعةٍ من قدميَّ حتى رأسي، وكأني سأتحول بدوري إلى جثةٍ بسببه. كأن الموت مرضٌ مُعدٍ مثل الجُذام. خلعت الـ«شبشب» وأعدته على الرَّف قبل أن أدخل غرفة الجلوس.

قرأت لي «إنجي» حظي في أوراق التاروت بينما أشرب ثاني كوب قهوة هذا اليوم. ضميري يؤنبني لفعل ذلك. ظهرت ورقة عربة الخيول، إنها ترمز إلى نقلةٍ كبيرةٍ ستحدث لي.. إلى تغييرٍ عظيمٍ في حياتي. من الواضح أنها ورقة التاروت الوحيدة التي تناسب كل التنبؤات عن أي تغيير.

قالت:

- ستجدين حبيبًا جديدًا، وستسعدين بلا حدود.

في الواقع، كنت أفضل أن يكون التغيير بيتًا جديدًا بدلًا من حبيب. هل هذا غريب؟

أرتني «إنجي» بفخرٍ غرفة الطفل، حيث كل شيءٍ جاهزٌ تمامًا لاستقباله. سيكون اسمه «أمير عثمان»، وموعد ولادته بعد ثلاثة أشهر. شعرتُ بأنني ملزمةٌ بإظهار اهتمامٍ زائف بأن أعاين ملابس الطفل الكثيرة.

تحدَّثنا عن «حبيبة» قليلًا. قالت «إنجي» إن زيَّ الحورية هو السبب في عدم نجاح الألبوم.

- الحوريات لسن مُغريات، لأنهنَّ بلا أعضاءٍ تناسلية. من قد يرغب في امرأةٍ بلا ساقين وما بينهما؟ لم تحبها النساء أيضًا لأنها أظهرت كثيرًا من صدرها. لا أحد سيتذكر حوريةً بلا جاذبية رآها على التليفزيون، ولن يخرج أحد لشراء الألبوم مخصوص. بالطبع لا. لهذا كانت مبيعاته منخفضة. هذا المجال يبيع الجاذبية، وليس الأغنية.

قُلتُ لها إن إحدى أجمل الشخصيات الخيالية لـ«هانز كريستيان أندرسون» وأكثرهنَّ جاذبية كانت حورية، فهتفت:

- هذا يدعم كلامي. فالشخصية عديمة الجاذبية في هذه الدنيا يمكنها أن تكون بطلةً في القصص الخيالية فقط، وليس في عالم الغناء تحاول بيع ألبومها لرجالٍ ونساءٍ من لحمٍ ودم.

ربما كانت مُحقَّة. ما نفع مغنية بلا جاذبية؟

وصل «أوزجان» وبمجرد أن دخل أمسك بيدي. يا لها من عادةٍ فظيعة. إن الأتراك يقبلون يد كل من يكبرهم سنًّا، ثم يرفعونها لجبينهم كعلامة احترام. انتهى بنا المطاف ونحن نتصارع وسط الغرفة، هو يحاول تقبيل يدي، بينما أنا أقاومه. وفي النهاية فزت بمساعدة «إنجي».

قال «أوزجان» إنه آسفٌ على ما حدث لي. بحثتُ في وجهه عن ملامح السخرية، لكنه كان جادًّا، لكن إذا كان غاضبًا، فلماذا حاول إقناع الشرطة بأنني القاتلة؟

يبدو أنه قرأ أفكاري لأنه قال:

- «موسى» من قال إنكِ الفاعلة بالتأكيد. كل ما فعلته هو أنني جاريته فيما يقول وحسب يا آنسة، لكنني أعرف أنكِ لا ذنب لكِ، صحيح؟ فالإنسان لا يقتل كل من يتعارك معه.

أومأت موافقة. إنه مجرد مُراهقٍ في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة. من الطبيعي أن يوافق على كلام الكبار.

- إن عمَّك...

- هرب بأموال أخي ليلة الثلاثاء. كان على «عثمان» أن يدفع مبلغًا صباح اليوم التالي، لذلك أحضر المال للمنزل ليحفظه. وجده عمِّي وهرب به. نحن نراقبه دائمًا، لأننا نعلم كم هو سيئ. لا

بُدَّ أنه سرق المال ونحن نيام. أخبرنا جماعتنا لعلنا نستعيد بعض المال قبل أن يصرفه كله، لكنهم لم يجدوه بعد، ولا حتى الشرطة.

ذلك الرجل ينغمس في كل الملذات؛ الخمر، والقمار، والنساء. على الأرجح إنه ندم على ما فعل وعاد لـ«عثمان». أظن أنهما تعاركا بعد ذلك وانتهى الأمر بإطلاق النار على «عثمان».

- هل يحمل عمُّك مسدسًا دائمًا؟

- مستحيل يا آنسة. إن عمّي مثيرٌ للشفقة. نحن نراقبه دائمًا، لكنه فاشل. أعطاه «عثمان» وظائف كثيرة في أماكن عديدة، لكنه دومًا يفتعل شجارًا مع أحدهم خلال يومين. إن أي متشردٍ مقارنةً به يُعتبر سيدًا نبيلًا. نحن نتحمله فقط إكرامًا للمرحوم والدنا المسكين.

- لكن إذا كان لا يملك مسدسًا، فكيف أطلق النار؟

نظر لي «أوزجان» بدهشةٍ، وقال:

- آنستي، أين تظنّين نفسكِ؟ إننا في تركيا. شراء سلاحٍ ليس مشكلة طالما تملكين المال. أعطني مالًا وسأحضر لكِ أفضل سلاحٍ في نصف ساعة.

سألته:

- في أي مجالٍ تعمل؟

- نحن لا نتاجر في السلاح. قُلتُ إنني أستطيع إحضار واحدٍ لكِ، ولم أقل إنني سأبيعكِ أسلحتنا.

- لم أقصد هذا. أعني ما عملكم بخلاف الجراجات؟

- نعمل في كل شيء.

- كم جراجًا لديكم؟

- دعيني أرَ.

بدأ يعد على أصابعه بصوتٍ مسموع:

- نملك شارعين بالكامل في حي «باي أوغلو». وهناك واحدٌ في «تارلاباشي». أنتِ تعرفين بالطبع الجراج الذي في «كوليديبي». بالإضافة إلى جراجٍ كبير في «جيهانجير».

- عندما يتم إلغاء المرور في شارعٍ ما، يتحول إلى جراج. هل هكذا حصلتم على الجراجات في «باي أوغلو»؟

- نعم، هذا صحيح. نحن نملك شارعَي «إمام عدنان» و«بويوك بارماقابي» بالكامل.

سألته بفضول:

- من أين تحصلون على تصريحٍ بتحويل الشوارع إلى جراجات؟

- من المجلس. نحن نلتزم بدفع الضرائب، ونخدم الناس. ماذا سيفعلون لو لم نفتح جراجات هناك؟ أين سيتركون سياراتهم؟ هل تملكين سيارةً يا آنسة؟

- نعم.

- حسنًا، لو خرجتِ ليلًا في منطقة «باي أوغلو»، فأين ستركنين سيارتكِ؟ لا يمكنكِ تركها بإهمالٍ في أي مكان. هناك مُتشرّدون ولصوص ومدمنون في كل مكان.

الإدمان يصيبهم بالخبل، فيمسكون مسمارًا بطول الذراع ويخدشون جوانب السيارات من أولها لآخرها. من سيراقب هؤلاء الحثالة؟ لا تستطيع الشرطة مطاردتهم طوال الوقت. أجيبيني يا آنسة، هل تحبين أو يخدش أحدهم سيارتكِ الجديدة المركونة في الشارع، بينما تخرجين للشرب والسهر؟

لا أعرف لماذا يظنني الأتراك دومًا حمقاء. هل لأنني ألمانية؟ هل بسبب شعري البرتقالي؟ كل سكان إسطنبول يعرفون بشأن الحثالة الذين يخدشون السيارات ويكسرون المرايا لإجبار الناس على استخدام الجراجات.

- ماذا تعملون غير الجراجات؟

- كل شيء.

من الواضح أنه لا يريد التوضيح أكثر.

- هل كان «عثمان» يملك مقهى؟

نظر للأرض وهو يجيبني:

- لقد انتقل إلى مجال الجراجات بعد عمله بالمقهى. أوَّل جراجٍ اشتراه كان في «تارلاباشي»، ثم بدأت الأعمال تتَّسع.

- ما عملك أنت؟

- أُشرف على الجراجات، فمن الصعب أن تجعلي شخصًا يقوم بعمله. عليكِ متابعة العمال طوال الوقت، وإلا خرجت الأمور عن السيطرة. يدير «موسى» جراج «كوليديبي» وأنا أتولَّى الباقي. لهذا أُلِّف بالخارج طوال اليوم.

- من أوَّل من وجد جثة «عثمان»؟

أخرج مسبحةً من جيبه وأخذ يعبث بحباتها بتوتُّرٍ وهو يقول:

- أنتِ تشبهين الشرطة بهذه الأسئلة يا آنستي.

قالت «إنجي»:

- سأعد بعض القهوة.

قال «أوزجان» وهو ينهض عندما نهضت «إنجي»:

- لا تتعبي نفسكِ. لا داعي للقهوة، نحن نتحدَّث وحسب.

جلس مجددًا، بينما دخلت «إنجي» المطبخ، ثم قال لي:

- لقد ذهبت حاملةً معها ابن أخي في رحمها.

طقطق بلسانه كأنه يبصق على الأرض، وقال:

- يا للوغد! اعذريني يا آنسة، لكن غضبي يشتعل كلما فكرت فيما حدث. ليس بيدي حيلة. لقد كبرت دون أب، وكان «عثمان» بمثابة أبي. والآن يشاء الله أن أفعل المثل مع ابنه. لن تحتاج امرأة أخي لأي شيء.

حككتُ أنفي، بينما أفكر في أن أفكار «أوزجان» ربما تتعارض مع خطط «إنجي».

- من أين جاءت أسرتك يا «أوزجان»؟

- نحن نعيش بالقرب من بحيرة «وان» يا آنسة.

تمتمتُ اسم البحيرة لنفسي. كل ما أعرفه عن «وان» هو أنها أكبر بحيرةٍ في تركيا.

سألته:

- هل أنتم أكراد؟

- نعم يا آنسة، نحن أكراد.

- هل تتحدَّث الكردية؟

- لا يا آنستي. فأنا ولِدت وكبرت في إسطنبول. أفهمها حين أسمعها، لكنني لا أجيد التحدُّث بها كثيرًا. أخي «عثمان» كان يتقنها. فهمت أمي اللغة التركية من مشاهدة التليفزيون، وأكاد أجزم أنها تجيدها بقدر إجادتي لها. إنها امرأةٌ ذكية. أقول دائمًا إنها لو تلقت تعليمها، لأصبحت رئيسة وزراء. كانت ستقوم بمهام الوظيفة أفضل من القائم عليها حاليًا.

- إنهم يسمحون بدروسٍ لتعليم اللغة الكردية الآن.

ذلك الصيف أصدر البرلمان مجموعة تشريعات خضوعًا لقاعدة تنسيق القوانين التابعة للاتحاد الأوروبي، ما يعني أنه أصبح مسموحًا بتدريس اللغة الكردية.

- نعم، سمعت بذلك، لكنني أريد تعلم اللغة الإنجليزية يا آنستي، فهي ستفتح لي آفاقًا جديدة.

- وماذا ستفعل حينها؟

هل سؤالي غريبٌ يا ترى؟

- الجميع يحتاج إلى اللغة الإنجليزية. فهي تكتسح الإنترنت على سبيل المثال. لا يصبح الإنسان كاملًا في هذا الزمن إلا باللغة الإنجليزية. الكردية هي لغتنا الأم، وأنا أحترمها... لكنها مثل التركية، لا قيمة لها إن غادرت تركيا.

- هل تريد العيش بالخارج؟

- لا يا آنستي، أنا سعيدٌ هنا. ماذا سأفعل بالخارج؟ الأمر يختلف بالطبع إن كنت مسافرًا بصورةٍ مؤقتة. لدينا أقارب كثيرون في ألمانيا، هناك اثنان من أعمامي.

إنهما يلحان عليَّ في السفر إليهما، لكنني لن أذهب إلى ألمانيا. لماذا أذهب إلى بلدٍ مليءٍ بالأكراد والأتراك؟ فهم معي هنا في إسطنبول، أليس كذلك؟

ثم أضاف وهو يشير إليَّ:

- وهناك ألمان أيضًا. لا داعي للسفر إلى ألمانيا إذًا!

- أتفق معك. أين تريد الذهاب إذًا؟

- أريد السفر إلى أمريكا. أريد رؤيتها. إنهم يحكمون العالم، أليس كذلك؟ حتمًا سأتعلم منهم بعض الأمور.

- هل بدأت تتعلم اللغة الإنجليزية؟

- كنت سألتحق بدروسٍ هذا الشهر لولا ما حدث. وعلى الأرجح لن أستطيع فعلها الآن، لأنني سأدير الأعمال. إن إخوتي لا يهتمون بشؤون العائلة.

- كم عمرك؟

- سبعة عشر، لكنني أبدو أكبر، صحيحٌ يا آنسة؟

- نعم.

وماذا أقول غير ذلك؟

- يكبر الناس سريعًا عندما يتحملون المسؤوليات.

- كم لديك من الإخوة والأخوات؟

- خمسة إخوة وسبع أخوات. أنا الأصغر. الآخرون متزوجون. هذه هي عقلية القرية. لقد زوَّجتهم أمي مبكرًا. أرادت فعل المثل معي، لكنني رفضت. تغيَّر الزمن.

مستحيل أن أتزوَّج من دون مقابلة العروس أولًا. كل إخوتي متزوجون من قريباتنا. لم أرهم قط يأخذون زوجاتهم للسينما. إنهم يبقون في المنزل صامتين، ولا يقولون إلا «العشاء جاهز» أو «هل أنت جائع؟». أريد الزواج من فتاةٍ تعمل وتخرج مع صديقاتها بدلًا من أن تجلس في المنزل طوال اليوم تشاهد التليفزيون.

أحضرت «إنجي» القهوة، فنهض «أوزجان» عندما رآها. هذه علامة احترامٍ على الأرجح. قدمت «إنجي» الصينية إليَّ أولًا. إنه كوبي الثالث من القهوة هذا اليوم، لكنني لم أستطع رفضه.

سألته وأنا آمل أن وجود «إنجي» لن يعوق حديثنا:

- كنت تقول إن إخوتك لا يهتمون بشؤون العائلة. لماذا في رأيك؟

أجاب بحرج:

- كلٌ منهم لديه مشاغله يا آنسة.

كان خجلًا لأن «إنجي» سمعته وهو يفشي أمورًا عائلية.

قالت له «إنجي» وهي تغمز لي:

- «كاتي» هي صديقتي العزيزة يا «أوزجان». يمكنك التحدُّث بحريةٍ معها. كل ما تقوله سيبقى سرًّا.

نظر «أوزجان» إلينا بدهشةٍ، وسأل:

- هل تعرفان بعضكما من قبل؟

أجابت «إنجي»:

- بالطبع، عرفت «كاتي» قبل أن أقابل «عثمان».

ثم التفتت إليَّ وسألتني:

- كم عامًا مضى؟

- سبع سنوات. كنتِ في المرحلة الثانوية وقتها.

لا أظنه سيصدق هذه الكذبة مثلما لم أصدق أنا أنه في السابعة عشرة.

ضرب ركبتيه بكفَّيه، وقال:

- لماذا لم تقولا ذلك؟

ثم نهض فجأةً نحوي وكاد يحاول تقبيل يدي مجددًا، ثم منع نفسه هذه المرَّة.

جلس مجددًا، وقال:

- آسفٌ يا آنستي، ما كنت أعرف! هل كان أخي يعلم؟

أجابت «إنجي»:

- لا. أنت تعلم أنه لم يرغب في أن أقابل أي شخص. وهكذا فقدت اتصالي بكل أصدقائي.

هذا صحيح. لم يكن لـ«إنجي» أي أصدقاءٍ سوى مساعدتها السيدة «حفيظة». لهذا كانت تتعلَّق بي كطوق النجاة.

- أنتِ ألمانية، صحيح؟

- نعم.

- لماذا تعيشين في تركيا؟

- بل في إسطنبول تحديدًا.

صححت له لأنني أشعر بأنني «إسطنبولية»، ثم أجبته:

- لأنني أحب هذه المدينة.

- لكن يا آنستي، ماذا تحبين فيها؟ الضوضاء؟ الزحام؟

لم أرد. كيف أشرح لهذا الشاب أني أحب الخزان الأرضي وجامع السليمانية و«برج جَلاطة» ومنطقة «تاهتاكالي» والأكراد والأتراك الودودين كثيري الكلام؟

سألته «إنجي»:

- قُلتُ إن «موسى» هو أوَّل من وجد جثة «عثمان»، صحيح؟

- نعم، «موسى» من وجده. لم يعد «عثمان» في الليلة السابقة. كلنا نقيم في المكان نفسه. «عثمان» بناه لنا. هناك طابقٌ لكل أخ، ويعيش عمِّي وأمي في طابقي إلى أن أتزوج.

قالت «إنجي»:

- هذا طبيعي بالنسبة لهم. عندما يتوفَّى الزوج باكرًا، يزوجون أرملته إلى أحد إخوته. وهكذا تتزوَّج الأمهات من الأعمام، لكن العم الذي يتحدَّث عنه في عمر «عثمان» تقريبًا. في الثلاثين من عمره، صحيح يا «أوزجان»؟ إنه في عمر أولادها.

- هذا لن يحدث حاليًا. فعندما وصلت أسرتنا إلى إسطنبول في الماضي، أحضرت معها عادات القرية، لكن الزمن تغيَّر.

سألته:

- وماذا عن تقليد الثأر؟ ألا يجب أن تبحث عن قاتل أخيك وتقتله؟

لم أكن جادَّةً، لكنني أدركتُ خطأي عندما رأيت وجه «أوزجان» يحمرُّ.

قال وهو ما زال يعبث بتوتُّرٍ بمسبحته:

- لا تفتحي هذا الموضوع يا آنسة. فأنتِ تتحدَّثين عن صراعٍ دموي لا نهاية له. نحن لسنا في الغرب الأمريكي. هذه الدولة لها شرطة وقوات أمن ومحاكم. والأمر يرجع إليهم لمعاقبة الجاني كيفما يريدون.

قالت «إنجي»:

- بالطبع، مستحيل أن يحدث هذا هنا.

عندها رنَّ موبايلي. إنها «بيلين». سألتني:

- أين أنتِ؟

- في منزل صديقة. ما الأمر؟

- «باتوهان» يتصل بكِ منذ أمس. إنه ذلك الشرطي، صحيح؟ نسيت أن أترك لكِ رسالةً عدما خرجت بالأمس، لذلك فكرت أنه من الأفضل إخبارك باتصاله في حال كان أمرًا مهما. لا أظنه يملك رقم موبايلك. لم أشأ أن أعطيه له دون سؤالكِ. هل أعطيه إياه لو اتصل مجددًا؟

- لا، لا تفعلي. خذي رقمه، وسأعاود الاتصال به. كان لديَّ رقمه، لكن ربما غيَّره، لذلك سجِّليه. هل اتصل شخصٌ آخر؟

- «يلماز» و«لالي»، لكنهما قالا إنه اتصالٌ عادي. كانا يطمئنان عليكِ وحسب.

هذا يعني أن «سليم» ما زال يتجاهلني، وكذلك أنا.

وضعت موبايلي في حقيبتي في حين نظر «أوزجان» إلى ساعته، وقال:

- عليَّ الذهاب يا آنسة. أتيت لأن «إنجي» طلبت مني ذلك، لكنني تركتُ العمل بلا إشراف.

- مهلًا! أخبرني كيف وجدتم «عثمان»؟

- «موسى» هو من وجده. شعرنا بالقلق حين لم يعد «عثمان» إلى البيت في تلك الليلة. لم يجب على الموبايل أيضًا. لذلك اتصلنا بـ«إنجي».

أخفض عينيه قليلًا بحرج، وواصل:

- لم يكن معها. وعندما ذهب «موسى» إلى المكتب صباحًا، وجد «عثمان» راقدًا على الأرض جوار الباب. أخبرني أنا وأخي «نيروز» أن نذهب إليه فورًا. ثم جاءت الشرطة لاحقًا. التقطوا صورًا وطوقوا المكان. كانوا سيجرون تشريحًا للجثة لمعرفة إن كان مات حقًّا من جرح الرصاصة، لكنهم لم يبلغونا بشيءٍ بعد.

- هل قُلتُ للشرطة إنني الفاعلة؟

- لا يا آنستي. عندما سألنا رجال الشرطة إن كان له أعداء، قلنا إنه تشاجر في اليوم السابق لوفاته مع صاحبة مكتبةٍ قريبة، وربما حملت له ضغينة. لا خطأ في هذا يا آنسة. لقد قلنا ما حدث وحسب. بأي حال، كانت أذنه مغطاةً بالدماء. ظلت كذلك حتى دُفِن. ما كنا نستطيع أن نلتزم الصمت بشأنها.

- هل قُلتَ إن عمَّك هو من سرق المال؟

- اعترف بذلك بالأمس عندما ضغطت عليه الشرطة، ثم سألونا أنا و«نيروز» إن كان ذلك صحيحًا، فقلنا نعم. لا تقلقي على نفسكِ يا آنسة، أنتِ في أمان.

اتصلت بـ«باتوهان» بمجرد أن وصلت المنزل. لقد استغرقت وقتًا طويلًا وطاقةً كبيرة حتى هربت من قبضة «إنجي».

قال:

- أحاول الاتصال بكِ منذ الأمس.

- صديقتي تقيم معي ولم تخبرني أنك اتصلت سوى الآن.

- أردت إخباركِ أنكِ بأمان. لدينا مشتبهٌ به أساسي. لم تعودي في دائرة الاتهام مباشرةً.

- هل ظننت حقًّا أنني قد أقتل شخصًا ما؟

- لا تعرفين ما مرَّ علينا من عجائب. والمظاهر قد تكون خادعة.

- هل وجدت العمَّ؟

- أي عمٍّ؟

ضربت جبيني بيدي. كيف سأفسر له معرفتي بأمر العمِّ؟

- كيف علمتِ بأمر العمِّ؟

تظاهرت بالبلاهة، وقُلتُ:

- أي عمٍّ؟

كانت محاولةً فاشلة. تظاهر بأنه لم يسمع سؤالي، وكرَّر:

- كيف علمتِ بأمر العمِّ؟

لم أستطع التفكير في كذبةٍ مقبولة، فأجبته بصراحة:

- تحدثت مع شقيق «عثمان»، «أوزجان».

- ها! يبدو أن المحققة الهاوية ما زالت تطارد القضايا. ألم تتعلمي درسًا من المرَّة السابقة؟ اسمعي يا صغيرتي، من الأفضل أن لا تتورطي هذه المرَّة، لأنه حتى أنا لن أستطيع حمايتكِ.

بغضِّ النظر عن باقي الجملة، اشتعل غضبي عندما ناداني بـ«صغيرتي».

- لم أطلب منك حمايتي.

في الواقع، ما كان عليَّ قول ذلك. ليس لأن النساء اللاتي هجرهنَّ أحباؤهنَّ يفترض أن يتصرفن ببراءةٍ مع الرجال الوسيمين. لا، هذا ليس السبب مُطلقًا. السبب هو أن «باتوهان» كاد يقول معلوماتٍ كثيرة حول الجريمة.

قال ببرود:

- حسنًا إذًا، كما تحبين.

- مهلًا، لم أقصد قول ذلك.

- ماذا قصدتِ إذًا؟

- ما أعنيه هو أنك لا تستطيع حمايتي لأننا لسنا معًا طوال الوقت.

- هذا شأنكِ، أليس كذلك؟

تبًّا!

إنه يوم تنظيف السيدة «فاطمة». لم تأتِ الأسبوع الماضي بسبب زفافٍ عائلي. أثناء ذلك أصبحت شقتي قذرة مثل شوارع إسطنبول. جلست أتناول الفطور مع السيدة «فاطمة».

وضعَت مربَّى وزبدًا خاليًا من السكر على الخبز، وقالت بجديةٍ شديدة:

- أنت تفهمين هذه الأمور. لذلك أخبريني، هل ستسمح أوروبا بانضمامنا للاتحاد الأوروبي؟

- كيف لي أن أعرف يا سيدة «فاطمة»؟

- أنتِ أوروبية، لا بُدَّ أن تعرفي.

لم أرد عليها، فواصلت:

- لا أظنهم سيسمحون لنا، فكل المسؤولين هناك مخادعون. هل سمعتِ الأخبار بالأمس؟

- لا، لم أسمعها.

أسرعت تخبرني أدق التفاصيل عن وزير البيئة الذي يوظف رفاقه في الوزارة. لا تجيد «فاطمة» القراءة والكتابة، لكنها لا تُفوِّت أبدًا متابعة الأخبار في التليفزيون.

- إن أوروبا تخدعنا. فلتخبريهم أن السيدة «فاطمة» قالت ذلك. لن يسمحوا بدخولنا أبدًا.

رنَّ موبايلي مرَّة واحدة ثم صمت. لا داعي للقلق، يمكنني معرفة من المتصل عن طريق سجل المكالمات الفائتة. إنها ميزة التكنولوجيا. اتصلت بالرقم، واتضح أنه «قاسم» بك. سألته:

- لماذا ترن وتغلق دائمًا يا «قاسم» بك؟ لماذا لا تقول شيئًا؟

هل أنا ساذجة إلى هذا الحد؟ ربما لدى الأتراك سببٌ مقنع ليعاملوني كحمقاء.

قال:

- ستنقضي مصلحتكِ يا سيدتي. لم أتصل عبثًا.

عندئذ أدركت أنه يرن مرَّة واحدة لكي أتصل أنا وأدفع ثمن المكالمة.

سألته:

- هل من جديد؟

- جعلت أحدهم ينظر في ملف القضية، وتحدَّثت مع مُحامٍ. قال إن القضية ستُغلق خلال شهرٍ أو شهرين على الأكثر. لم يجدوا ورثة للشقة، والمالك غير موجود.

ستنتهي الإجراءات بسرعة.

- هل تم تأجير هذه الشقة؟

- لا، إنها خالية. سنعرضها للإيجار. يمكنني أن أحجزها لكِ لتستأجريها إن شئتِ، لكن لا داعي لذلك.

- هل أنت واثقٌ من أنها ليست مؤجرة يا «قاسم» بك؟

- اسمعيني يا آنسة، إن الكمبيوتر أمامي. هل سيكذب عليَّ؟ نحن لم نؤجرها.

- لكن بها سكان. إنها ليست فارغة.

- لا علاقة لي بهذا. بمجرد أن تشتري الشقة، عليكِ الاتفاق معهم. أعطهم بضعة ملايين من الليرات واطرديهم. كما يمكنكِ اللجوء للقضاء، لكن لا داعي لأتعاب المحامي. التفاوض هو أفضل وسيلة. أستطيع مساعدتكِ إن أردتِ، فهذه المهمة لا تصلح للنساء. سأرى ما يمكننا فعله عندما يحين الوقت. أما الآن فلا تزعجي رأسكِ الجميل بالتفكير.

- في هذه الحالة، القرار قرارك.

- معكِ حقٌ يا آنسة. معكِ كل الحق.

بعد ذلك خرجت، فالشقة لا تصلح للجلوس حاليًا. السيدة «فاطمة» تنظف نوافذ غرفة الجلوس وتغني بأعلى صوت. لا أفهم لماذا يصر الأتراك على تنظيف النوافذ حتى في موسم المطر. لا بُدَّ من سبب.

حان الوقت لأخبر مالكة عقاري إن كنت سأرحل خلال شهرين أم سأبقى سنةً أخرى. البقاء يعني أن أدفع شهريًّا مائةً وخمسين يورو إضافية فوق الإيجار المعتاد وهو 1,800 يورو. ربما أقنعها أنه في هذه الظروف لا أحد يمكنه دفع ما أدفعه، ثم أجعلها تقبل مبلغًا مناسبًا. فشراء شقةٍ في «كوليديبي» يعني صرف كل أموالي وآخذ قرضًا. بالإضافة إلى تكلفة الإصلاحات. هذا يتعدَّى قدرتي المالية، بالإضافة إلى العائق النفسي بسبب العيش في شقةٍ شهدت مقتل شخصٍ أعرفه.

بدلًا من السير في طريقي المعتاد عبر «تشوكوركوما» و«جَلاطة سراي»، قرَّرتُ الذهاب للمكتبة عبر منطقة «توفاني». تصطف المقاهي على جانبيّ الطريق وتمتلئ برجالٍ يلعبون طاولة وكوتشينة. ذهبت لرجلٍ كبير السن يقف في الشارع ويدخن سيجارة. سألته أي مقهى يمتلكه «عثمان». ليس لأنني قد أحتاج لمعرفة ذلك يومًا، بل بدافع الفضول.

توجَّهتُ إلى المقهى الذي أشار إليه الرجل بإصبعٍ متصلبة، ثم جلست على إحدى الطاولات المرصوصة بالخارج وطلبتُ شايًا. لا أعرف كيف يبدو الحال في ضواحي إسطنبول، لكن في وسط المدينة لم يعد الناس يندهشون عندما تجلس امرأة على مقاهي الرجال. منذ زمنٍ طويل - خمس عشرة سنةً تحديدًا - قرَّرتُ الاستقرار في إسطنبول، وقتها ما كانت تجرؤ امرأةٌ محترمة على فعل ذلك. لما رحمها الناس لو فعلت. كان الرجال سيتركون الطاولة والكوتشينة وينظرون إليها بنهم. بعض الأشياء تتغير بسرعة.

تغيَّرت أزياء الناس في إسطنبول بسرعة. منذ خمسة عشر عامًا، كان السياح هم فقط من يرتدون ثيابًا قصيرةً ومكشوفة. أمَّا المواطنون فيستديرون ليروا أذرع وسيقان الفتيات الأجانب. أما الآن، كل نساء الطبقة المتوسطة التركية يرتدين ثيابًا قصيرةً جدًّا ومكشوفةً للغاية حول الصدر. لم تتغيَّر ملابس النساء وحسب، بل الرجال أيضًا. كان الرجال الأتراك يرتدون بنطلوناتٍ وأحذيةً جلدية بلا كعب في الصيف الحار، ولا يظهر منهم ما يزيد على إصبع قدم. أما الآن، يسيرون في الشارع بالصنادل والشورتات. قالت «لالي» إن السبب في تغيُّر الأزياء هو ارتفاع حرارة الصيف في

إسطنبول خلال مواسمَ عديدة متتالية. لستُ باحثة اجتماعية مثل «لالي»، لكنني أرى أن العقلية التركية هي ما تغيَّرت وليس الجو.

أحد الشوارع المؤدية من «توفاني» إلى «كوليديبي» يمر أمام شقتي مباشرةً. جلست أشرب الشاي، بينما أفكر أنه عليَّ نسيان حلم شراء الشقة ونسيان المبلغ الذي دفعته لـ«قاسم» بك، وعليَّ البحث عن سكنٍ للإيجار. لكن قبل حسم قراري، أردت المرور بالشقة لألقي نظرةً أخيرة على ما سأتخلى عنه.

ناديت الجرسون ودفعت الفاتورة. كان صبيًّا وسيمًا أصلع الرأس وله عينان واسعتان. لا بُدَّ أن «عثمان» كان في مثل عمره عندما وصل إلى إسطنبول. ربما عمره أحد عشر أو اثنا عشر أو ثلاثة عشر عامًا على الأكثر. لن أقتنع أبدًا أن الأسر الريفية المهاجرة من القرية للمدينة بحثًا عن «حياةٍ أفضل» تجدها حقًّا. ليس قبل أجيالٍ عديدة على الأقل.

لم يكن السكن هو الشيء الوحيد الذي شغل بالي، بينما أشرب الشاي. قرَّرتُ أيضًا ألا أتدخل فيما لا يعنيني. خاصةً إذا كانت حياتي مضطربةً هكذا. فقبل كل شيء، لا علاقة لي بمقتل «عثمان» لا من قريب ولا من بعيد. وأريد أن يظل الوضع هكذا. إن استجواب الناس وسماع قصص حياتهم المُريعة لا يفيدني بشيء. لن أصبح محققةً أبدًا. لديَّ بالفعل عملٌ أحبه. فكوني مالكة المكتبة الوحيدة التي تبيع روايات الجريمة في إسطنبول، هو إنجازٌ في حد ذاته. أليس كذلك؟

لكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن. أحيانًا تهاجمنا الحياة بمفاجآتٍ كابوسية.

شعرت بمشكلةٍ ما قبل أن أصل إلى هناك. بصراحة.. كلمة «شعرت» تعتبر مبالغة. فاثنتان من حواسي لاحظتا حشدًا صاخبًا من الناس الذين يصرخون ويبكون على الرصيف.

في البداية، ظننتها جنازة «عثمان». فالناس يحتاجون أحيانًا لرؤية شيءٍ ملموس كالنعش ليشعروا بحقيقة الموت. ثم لاحظت أنها فكرةٌ غبية. لماذا سيحضرون جسد «عثمان» أو نعشه إلى الشارع الذي يضم مكتبه؟

لكن مستحيل أن يكون شجارًا عاديًّا هو السبب في تجمهر هذا الحشد الكبير. ربما وقع حادث مرور.. ربما.

انضممتُ للحشد، واخترت فتاةً معها منديلٌ أحمر مطرزٌ بزينةٍ ذهبية، ثم سألتها عما حدث. لم تجب عن سؤالي، بل قيَّمتني بنظرها، وقالت:

- هل معكِ سيجارة؟

أخرجت علبتي من الحقيبة ناولتها إياها، فأخذت سيجارتين. أرخت طرحتها قليلًا لتضع سيجارةً وراء أذنها، ثم وضعت الأخرى بين شفتيها وانتظرتني لأشعلها.

وهذا هو ما فعلته، ماذا أفعل غير ذلك؟!

سألتها:

- حسنًا، ألن تخبريني ماذا يحدث؟

- ظننتكِ سائحة.

عرفت أنها لن تخبرني شيئًا مقابل السيجارتين، فذهبت إلى شابٍ وسألته:

- ماذا حدث؟

- لا فكرة لدينا. هؤلاء النساء والأطفال يصرخون. لا نعرف، ربما لديهم حالة وفاة. ستصل الشرطة في أي لحظة.

هناك مثلان لوصف الأحداث التالية. الأول هو «تحدَّثنا عن القط فجاء يُنطّ»، وذلك عندما يأتي شخصٌ ما غير مُرحَّبٍ به. والثاني هو «الخير على قدوم الواردين»، عندما يأتي شخصٌ ما مُرحَّبٌ به. لا أعرف أيهما يناسب الموقف التالي أكثر. فبمجرد أن انتهى الشاب من كلامه، أمسك أحدهم ذراعي. استدرت بسرعةٍ فرأيت «باتوهان».

سألته على الفور:

- هل وقعت جريمة قتلٍ أخرى؟

- صباح الخير يا «كاتي» هانم. يا لها من مفاجئةٍ سارة.

لو كانت لغتي التركية أفضل بعشرين مرَّة لقُلتُ إنه يستخفُّ بالأمر.

- أنت تعلم أنني أعمل بالقرب من هنا.

هل عليَّ التوضيح أكثر؟

أشار لبنايةٍ قريبةٍ، وقال:

- إنها امرأةٌ عجوز تعيش في القبو مع ابنها وزوجته. كلاهما يخرج للعمل صباحًا، لذلك كانت وحدها في المنزل. أما أحفادها فهم في الريف.

- وهل حدثت جريمة قتل؟

- بل سرقة. استنتجنا أنها بهدف الأساور التي كانت ترتديها. نظن أنهم أفزعوها ثم طعنوها عندما صرخت.

ارتفعت معدلات السرقة واقتحام المنازل بنسبةٍ كبيرة في اسطنبول بعد الأزمة الاقتصادية. في الواقع، أظن أن الأتراك يتحملون الوضع جيدًا. لا يخفى على أحد أن الفقر هو سبب ارتفاع معدل الجريمة. إن الفقر المدقع يضعف المجتمع، لكن الثروة وحدها لا يمكنها إصلاح بعض المجتمعات.

انظر إلى ألمانيا مثلًا. إن كنت قويًّا، حاول الانتظار في محطة أتوبيس في برلين عندما يتأخر خمس دقائق. ستجد هؤلاء الوحوش يتدافعون ويتزاحمون ويسحقون بعضهم لركوب الأتوبيس، على الرغم من أنهم يملكون ثمن التاكسي. ستقتنع فورًا أنه لصالح سلام العالم، لا يمكن أبدًا حرمان الألمان من حقوقهم الاجتماعية.

سألته:

- هل لديكِ مزيد من العمل هنا؟ هل يمكن أن أدعوك لشرب الشاي؟

- أنتظر شخصًا من مكتب المدعي العام، لكن لن أستغرق وقتًا. سأمرُّ عليكِ في المكتبة.

- لا، بل تعالَ إلى حديقة الشاي. ليست الحديقة التي في الميدان، بل البعيدة. اسأل عن مكتب «مختار»، ثم ادخل الباب المجاور له. اسم حديقة الشاي «مقهى جينيفيز».

رنَّ موبايلي، بينما أسير إلى هناك. يا له من وقتٍ غير مناسبٍ على الإطلاق. إنها «إنجي». تقول إنها نسيت سؤالي عن عطري المفضل، وهذا غير معتادٍ لها، لكن بالأمس كان بالها مشغولًا جدًّا.

قُلتُ لها:

- عطر «سكوربيو».

صاحت:

- عرفت ذلك! فنحن في مجموعة الأبراج نفسها لذلك نفضل الشيء نفسه، أنا برج السرطان.

لم أخبرها أنني تخلَّيت عن هذه التفاهات في عمر الواحد والعشرين، بعد تجربةٍ مريرة مع حبيبٍ من برج الحوت، وقعت في حبه عندما ظننت أن توافق الأبراج المائية دليل على الانسجام. كلما كبرت، قل إيماني ببعض الأمور، لكنني لا أريد أن يكبر أي شخصٍ قبل أوانه.

انتظرت «باتوهان»، بينما أدخن سيجارةً وأشرب شايًا في «مقهى جينيفيز»، وتركت المكتبة باطمئنان في يد «بيلين» الأمينة. رنَّ موبايلي مجددًا. هذا يحدث أحيانًا.

بعد أيامٍ من الصمت، يبدأ في الرنين بلا توقف. لكن لم أظن أبدًا أن المتصل سيكون هو.. «سليم». لقد تخلَّيت عن الأمل في اتصاله. عندما يكبر الإنسان في العمر، يتوقف عن الاعتقاد بأنه الأهم في قلوب الجميع.

قال بحذرٍ كمن يسير على قشر بيض:

- كيف حالكِ؟

هل يمكن لكلامٍ بسيط أن يعطي هذا الانطباع بالضيق؟ بالتأكيد.

سأضحي بأي شيء لأتمكن من قول: «أشعر بالبؤس! البؤس التام!»، لكني لم أستطع. لا يصح لشخصٍ في سني أن يفتعل موقفًا دراميًّا بسبب انفصالٍ عاطفي.

لقد مررت بكثير من المآسي حتى سن الثلاثين، وهي تمكنني من تجاوز علاقات الحب الفاشلة.

أريد أن أقول له ردًّا مُفحمًا، ردًّا يناسب حبيبًا لم يتصل لأيام، وعندما اتصل أخيرًا لم يجد ما يقوله سوى «كيف حالك؟».

قُلتُ:

- أتدبَّر أموري.

- ما معنى هذا؟

- يعني ما يعنيه.

- هل ما زلتِ غاضبة؟

- هل اتصلت لتسألني عن هذا؟

- سنتحدَّث لاحقًا إن شئتِ. سلام.

أغلق الخط قبل أودعه. بصراحة، لا نية لديَّ في توديعه. لو أنه فقط انتظر قليلًا. اتصلت به، وقُلتُ:

- لقد أغلقت الخط في وجهي.

- «كاتي»، لنتحدَّث لاحقًا عندما يتحسَّن حالنا قليلًا.

من الواضح أنه يعني عندما يتحسَّن حالي أنا، أليس كذلك؟

قُلتُ له:

- حالي كان رائعًا منذ لحظات. هل خطر ببالك أنك أنت من يفسد مزاجي؟

- في هذه الحالة، لا داعي لحديثنا أصلًا.

- نعم، أوافقك. وداعًا.

هذه المرَّة أغلقت الخط في وجهه.

عضضتُ إبهامي لأحبس دموعي، وأعددتُ من واحدٍ لعشرة بصمتٍ حتى أهدأ. لا فائدة حتى إن أعددتُ لألف. على كل حال، العدُّ مملٌ جدًّا. نعد الأرقام حتى ننام، ونعد الأرقام حتى نهدأ، والمزيد من العدِّ...

ذهبتُ إلى الحمَّام لأغسل وجهي. نظرتُ في المرآة، وسألت انعكاسي لماذا أغلقت الخط، وكأن فمي كان له إرادةٌ خاصة به تختلف عن إرادتي. لم أسمع ردًّا بالطبع.

شعرتُ بثقلٍ مفاجئ، وكأنني اكتسبتُ ثلاثين كيلو. يتغير وزني باستمرار وفقًا لحالتي النفسية. شعرتُ كأني عدَّاءٌ يحاول الجري بقدمين مقيَّدتين. أنا لست رياضية، لذلك أسير بالكاد. لكن عليَّ التماسك لأن «باتوهان» سيصل في أي لحظة. كما أنه لا خيار لديَّ، فأنا لن أعود إلى المنزل وأختبئ تحت البطانية حتى تنتهي السيدة «فاطمة» من التنظيف والغناء. ولا أستطيع الذهاب إلى «لالي»، لا يمكنني البكاء بسبب مشاكل عاطفية تافهة مع امرأةٍ تعتمد على مضادات الاكتئاب لتجاوز المحن.

عندما وصل «باتوهان»، بذلتُ جهدًا رهيبًا لأتمالك نفسي دون أن يلحظ أحد. إن التقدم في العمر ليس سيئًا على الدوام. أي امرأة ذاقت ألم الانفصال مرَّة، تعرف يقينًا في المرَّة التالية أنها ستنجو منه في النهاية. هذه المعرفة راسخة في اللا وعي الخاص بها. لكن لماذا لا يمكن أن تنجو منه «الآن» بدلًا من «في النهاية»؟ الأمر ليس بسيطًا بالطبع. ليس كذلك للأسف. أخبرني رجلٌ ذات مرَّة أن مراحل حياته كالغرف، كلما خرج من واحدة أغلق بابها خلفه وانتقل لأخرى. شرح لي ذلك بفخرٍ شديد. لو كنت أعيش بهذه النظرية، لما تفاخرت بها غالبًا. في الواقع، ما جعلني أتماسك أمام «باتوهان» لم يكن الخبرة في الانفصال ولا نظرية الغرف، بل كانت لحظة تنوير. أدركت أن أهم شيءٍ الآن هو أن «سليم» لم يهجرني قبل أن أهجره أنا. هذا يهمني بشدة، ألا تتفقون معي؟

ربما أكون كبرت على أشياءَ كثيرة، ليس منها ألاعيب العلاقات البسيطة.

وصل «باتوهان» وعلامات الجدية تبدو على وجهه. لم يبدُ راغبًا في المزاح أيضًا. حمدًا لله! فأنا كذلك أيضًا.

سألني:

- هل تعرفين كمية الدم في جسم الإنسان؟

لا فكرة لديَّ، فسألته:

- كم؟

- من أربعة إلى أربعة لتراتٍ ونصف اللتر.

- حقًّا؟

- كنت أفكر وأتساءل عن كمية الدم التي فقدتها العجوز. بدا لي جسدها خاليًا تمامًا. الدماء تغرق المكان.

هل الدم كثيرٌ إلى درجة أن يصدم ضابطًا جنائيًّا قويًّا؟

واصل «باتوهان» وكأنه يحدث نفسه:

- لقد رمى القاتل سلاح الجريمة جوار الجثة. ربما أوصلنا هذا إلى دليلٍ يقودنا للقاتل، لكنني أشك. ففي هذا العصر أصبح الجميع يعلم بشأن البصمات، حتى الأطفال. لماذا ترك الخنجر؟ على الأرجح لم يأخذه لأنه كان مُغطًّى بالدماء، لكنه أيضًا غارقٌ بالدماء حتمًا، خاصةً يديه. كان باب المنزل مفتوحًا. بالتأكيد عرف أنها وحيدةٌ في البيت. بأي حال، لم يأت أحد عندما صرخت العجوز. لو كان أحدٌ بالمنزل، لو... لكنها ليست مسألة بصماتٍ فقط، بل هناك كثير من التحقيقات. إذا وجدنا بصماتٍ على الخنجر، فالفاعل مخبول، لكن إذا لم نجد بصمات، فهذا غريب. لا يمكن أن تكون جريمة قتل مع سبق الإصرار والترصد. فعجوزٌ مثلها...

كان يتمتم لنفسه مثلما يفعل الناس حين يستجمعون أفكارهم.

قُلتُ له:

- ربما مسح البصمات من على الخنجر.

نظر إليَّ بدهشةٍ، وسأل:

- ماذا قُلتِ؟

- قُلتُ إنه ربما مسح البصمات من على الخنجر قبل أن يرميه.

- لا يبدو كذلك. ما زال الدم على مقبض الخنجر. لو تم مسحه، لاختفت الدماء مع البصمات. هل تعرفين أن رمشًا واحدًا قد يقودنا إلى القاتل في هذا العصر؟

ربما لا يعرف الرجل العادي عن تطور المعامل الجنائية، لكن البصمات... من يدري؟ ربما ما زال هناك أشخاصٌ يجهلون بأمرها. لا نعرف أي نوعٍ من الأشخاص نتعامل معه. فـ«كوليديبي» ليس حيًّا راقيًا.

حتى الشرطة تحتقر سكان «كوليديبي». عليَّ البحث في هذا الأمر قبل أن أنتقل إلى هنا.

- هل من المحتمل أن المجرم ارتدى قفازات؟

- بالطبع، لم أقل إنه لم يفعل، لكن في هذه الحالة، لن تصمد نظريتنا الأساسية. لماذا يرتدي لصٌ قفازات ليسرق أساور من ذراع سيدةٍ مسنة؟ هذا طبعًا إذا كانت نيته الأصلية هي سرقة الأساور. لم نجد آثار عنفٍ على ذراع العجوز. لا أثر يدل على أنه حاول نزع الأساور وفشل، ولا نجد حتى جروحًا سطحية. على كل حال، لم تكن الأساور محكمةً حول معصمها. كانت المرأة مصابةً بالسرطان، وفقدت كثيرًا من الوزن مؤخَّرًا. هذا ما قالته زوجة ابنها. كان القاتل يستطيع نزع الأساور دون أن يلمسها لو أراد. هذا غريب.

- وماذا نستنتج من هذا؟

- نظن أن ابنها وزوجته من قتلاها، أو أحدهما على الأقل.

هكذا تفكر الشرطة. إذا قُتِل أحد، تشتبه في أقرب الأشخاص إليه. لو الضحية زوجة يتهمون الزوج، والعكس بالعكس. إنهم يستخدمون الإحصائيات ليدعموا نظريتهم، لكن بصفتي عاشقةً لروايات الجريمة، أشك دومًا في وجود حبيبٍ سري أو شخصٍ من الماضي الخفي. وقلما يخطئ حدسي.

لم أستسلم لنظرية الشرطة القائلة بأنه لو قُتِلت سيدةٌ مسنة فالقاتل هو ابنها أو زوجته. تقودني شكوكي في اتجاهٍ آخر.

بصراحة، لا أتعب أبدًا من الكلام مع «باتوهان»، خاصةً حول جرائم القتل. بالتأكيد لا أريده أن يوقف حديثه عن مقتل «عثمان». أعلم أنني قررت للتَّو أن لا أتدخل فيما لا يعنيني، لكن الاستماع إلى ضابطٍ جنائي وهو يفكر لا يعتبر تدخلًا، صحيح؟

غيَّرتُ مسار الحديث، وقُلتُ:

- هناك ما لا أفهمه. كيف يموت شخصٌ من جرح رصاصةٍ في الساق؟ في الأفلام، يتلقى الناس رصاصة في الساق كتهديد. ثم يظهرون في المشهد التالي بساقٍ مجروحة.

تحسَّس موضعًا في ساقي ليوضح لي الإصابة. أتمنى أن يكون هذا هو قصده، وأن لا يكون نوعًا من التَّحرُّش.

قال:

- يجري شريانٌ في هذه المنطقة. هذا الشريان مزَّقته الرصاصة. لو أصابت الرصاصة ركبته أو مكانًا آخر في الساق، لما شكَّلت خطرًا على حياته.

- هل أصابت الرصاصة هذه النقطة عمدًا؟

- هل تقصدين الفخذ؟

- هل أطلق القاتل النار عمدًا على الفخذ؟

- مستحيل معرفة هذا. أظنها حادثةً مؤسفة. لا يعقل أن العم سيئ السُّمعة يعرف شيئًا عن علم التشريح. والآن جاء دورِكِ. لماذا تحدَّثتِ مع «أوزجان»؟

- لقد كنتُ المشتبه به الرئيسي في الجريمة. لذلك كان عليَّ البحث عن أدلَّةٍ لتبرئتي.

- لو عرفت أنكِ ستأخذين الأمر بهذه الجدية، لما مازحتكِ هكذا. لقد أدليتِ بأقوالكِ في القسم، صحيح؟

- نعم. لذلك كنت واثقة من أنك لا تمازحني.

- ما الصفة التي وقَّعتِ بها شهادتكِ؟ بالتأكيد تعرفين ما دمتِ تلعبين دور المحققة.

- لم يخبرني أحد ما صفتي في التحقيق.

- ماذا تعنين؟ إن أوراق الشهادة تحمل في أعلاها ما يفيد أنكِ قرأتها ووقعتها. ولا بُدَّ أن تحمل كلمة «مشتبهٍ به» في حالة الاشتباه.

- إذًا، هل كنت مشتبهةً بها؟

كرَّر كلامي باستمتاعٍ ملحوظ، يبدو أنه ظنني ألاطفه.

سألني:

- لماذا ترفضين دومًا رجال الشرطة والمحامين؟ هل تظنِّين أنكِ الذكية الوحيدة في هذا البلد؟ إذا قُتِل مالك جراجٍ مسكين بالرصاص، هل تظنِّين حقًّا أننا سنقبض على مالكة مكتبة بسيطة على بعد شارعين؟

لا أريد لأحدٍ أبدًا أن يصفني بـ«بسيطة»، لذلك قُلتُ بحزمٍ أشد مما قصدت:

- إياك أن تخبرني عن براعة الشرطة. فأنا أشك حقًّا في ذكائها، وبالذات الشرطة التركية. في العام الماضي قبضتم على فتى نحيل يلمع الأحذية بتهمة قتل رجل أعمالٍ قوي. لماذا لن تكرروا هذا الإنجاز بالقبض على مالكة مكتبة على بعد شارعين؟

احمرَّ وجهه. لم يكن أبدًا من النوع الأبيض الوسيم، لكنه يبدو الآن خطرًا أكثر من المعتاد. لا أقرأ الصحف تقريبًا، لكنني أعرف على الأقل عشر حالاتٍ من السلوكيات الفاضحة للشرطة. مع ذلك، لا داعي لمهاجمة رجل شرطةٍ واحد. يجب التركيز على المؤسسة ذاتها. على حد علمي، لم يكن «باتوهان» ممثلًا حقيقيًّا للمؤسسة التي ينتمي إليها.

ساد الصمت. ظللت أتمنى بشدةٍ أن يرنَّ أحد الموبايلات. في موقفٍ كهذا كانت أمي ستقول: «لقد مرَّ علينا ملاك فمنحنا بعض السكينة». لو كان هناك ملاكٌ للصمت، لما اقترب مسافة مائة ميلٍ من إسطنبول. لن تحتمل الملائكة صخب المدينة. بأي حال، هذا الصمت كان مقبضًا وليس مبشرًا.

أشعلت سيجارةً، وسألته:

- هل السلاح الذي قتل «عثمان» مرخصٌ؟

قال ساخرًا:

- عملنا ليس بهذه السهولة. علينا أن نعتصر عقولنا أحيانًا.

- لكنكم تعرفون بالتأكيد ما نوع السلاح الذي أطلق الرصاصة؟

- نعم، نعرف.

- ما هو؟

- ماذا ستفعلين لو أخبرتكِ؟

هززت كتفيَّ وفكرت في سؤاله. ماذا سأفعل حقًّا؟

- وجدنا رصاصةً عيار تسعة ملليمترات غائرة في الجدار. تم إطلاقها من مسدسٍ دوَّار. ماذا ستفعلين بعدما علمتِ الآن؟ هل فهمتِ ما قُلتُه أصلًا؟

- لا، لم أفهم.

لكن كوني لم أفهم لا يعني أني لن أسعى للفهم. ربما فشل عقلي في تخزين أي معلوماتٍ خاصة بالأسلحة منذ طفولتي، لكنني ما زلت عاشقةً مخلصة لروايات الجريمة.

أصبح «باتوهان» مزعجًا مرَّة أخرى واندفع خارجًا. تبدو علاقتنا مثيرةً للاشمئزاز يومًا بعد يوم. لا أعرف لماذا يلتصق بي. ظننت أنني تخلصت منه عندما لم يتصل منذ عامٍ كامل، لكن خاب ظني حين تقابلنا يوم الجمعة الماضي، لكن عندما تقابلنا مجددًا تعاملنا كالسابق. هل ما زال هناك حبٌ أبدي وانجذابٌ حسي وعشق أو أيًا كانت مشاعره نحوي؟

كنت في الرابعة والأربعين من عمري، وما زلت لا أفهم الرجال. لا أفهم سبب تصرفاتهم. بصراحة، لقد تخلَّيت عن محاولة فهمهم نوعًا ما. أتساءل أحيانًا إن كانت السيدات يصبحن مثليات لأنهن تعبن من الرجال، وهل يتجنبن الجنس في أحيانٍ أخرى لأنهنَّ سئمن من الرجال والنساء معًا؟ لكن كيف يعشق بعض الناس الجثث إذًا؟

لا، هذا كثيرٌ جدًّا عليَّ.

إن كنت تملك موبايل فمن المتوقع أن يظل أصدقاؤك على تواصلٍ معك. لا تخلو شوارع إسطنبول من الأشخاص الذين ترنُّ موبايلاتهم باستمرار. لذلك يستخدم الناس هذا الاختراع. يبدو أنني الشخص الوحيد الذي مازال يعامله أصدقاؤه وكأنه بلا موبايل، ويستمرون بالاتصال بي على التليفون الأرضي في البيت أو العمل.

عندما وصلت إلى المكتبة، ناولتني «بيلين» قائمةً طويلة بالأشخاص الذين اتصلوا بي. اتصلت أولًا بـ«لالي» لأسألها لماذا لم تتصل بي على الموبايل.

أجابت:

- لا يمكنكِ التحدُّث بسهولةٍ في الموبايل.

- أنتِ فقط بخيلة. هيا، اعترفي.

- أنتِ الألمانية وليس أنا يا عزيزتي. أخبرني أحدهم أنكم تقولون كلمة «معقول الثمن» عندما تعنون «رخيصًا». فالألمان لا يعتبرون أي شيءٍ رخيص. أليس كذلك؟

قُلتُ بنبرةٍ توضح تمامًا أنني أجاريها:

- بالطبع يا عزيزتي، أنتِ مُحقَّة.

لا أفوت في العادة أي فرصةٍ لمجادلة «لالي»، لكن فكري مشغولٌ كثيرًا الآن. بصراحة، هي أيضًا فكرها مشغول، بدليل أنها لم تكثر في التوضيح.

قالت:

- هل نتناول العشاء في الخارج هذا المساء؟ علينا تعويض يوم الجمعة الماضي.

- هل ستعزمينني هذه المرَّة؟

- لا. سنطبق الأسلوب الألماني، كلٌ منا سيحاسب على طعامه.

قضيت النهار بأكمله أدور في المكتبة وأتصل بقائمة موزعي الكتب التي أعطتها لي «بيلين». قررتُ أنني لن أضيع الوقت في العودة للمنزل وتغيير ثيابي وإحضار السيارة، بل سأركب تاكسي وأعبر البوسفور. فبالتأكيد لن أقابل رجل أحلامي في مطعم سمك في حي «جينجيلكوي». وحتى لو فعلت، لن أشكو أن الفرصة ضاعت مني لأنني لم أتأنق بفستانٍ عاري الظهر من الحرير الأسود وحذاءٍ كعبه عالٍ ورفيع.

هذا ما ظننته. لكن لا أحد يعرف مسبقًا ردة فعله في موقفٍ مماثل. ومن باب الاحتياط، يُفَضل دومًا ارتداء صندلٍ بكعبٍ عالٍ حتى لو ستذهبين إلى محلٍ قريب، أو جواربٍ مُخرَّمة لو لم تكوني في موسم الصنادل.

قالت «لالي»:

- أظنكِ بدأتِ سن اليأس.

ظننت أن الرجال فقط من يقولون هذه التعليقات العنصرية الغبية، سواء كانوا محبين للنساء، أو كارهين لهنَّ، لكن «فوفو» لن يقول شيئًا كهذا أبدًا، ليس لأنه محبٌ للنساء، بل لأنه مِثليُّ الجنس. قد يظن «سليم» هذا، لكنه لن يقوله أبدًا، مثل «فوفو». يجب مقاطعة كل من يقول تعليقاتٍ غبية مثل هذه. فليحتفظوا بها لأنفسهم، مهما كانوا ولأي سببٍ كان.

السبيل الوحيد للتعامل مع من يثرثر بالهراء هو التظاهر بأنك لا تسمعهم، والإيمان بأن الكلمة المنطوقة زائلة أما المكتوبة فراسخة.

هذا ما فعلته، تجاهلت كلام «لالي».

قُلتُ لها:

- هل تتخيَّلين أن «سليم» أغلق الخط في وجهي؟!

سألتني:

- هل بدأت دورتكِ بالاضطراب؟

كما تعرفون، أنا أميل للعنف، وهناك صوتٌ بداخلي يصرخ ويطالبني بتحطيم دورق الماء الذي على الطاولة وتمزيق أحشائها بشظاياه.

قُلتُ:

- أنت تعرفين أن عمري أربعة وأربعون عامًا فقط.

- وما علاقة العمر بهذا يا عزيزتي؟! على كل حال، الرابعة والأربعون ليست سنًّا مبكرًا، بل هو العمر المناسب في رأيي.

- أنتِ قاسية مع كبار وصغار السن على حدٍّ سواء.

قُلتُها بغيظٍ شديد لكي أوضح وجهة نظري. لم أستطع المقاومة. أعني أن «لالي» ليست صغيرة السن، بل تصغرني بخمسة أعوامٍ فقط.

ثم أضفت:

- خاصةً الشباب الذين لا يملكون مستقبلًا مهنيًّا.

وجهت لها ضربةً تحت الحزام. فصديقتي العزيزة أمضت عامها الأخير في المنزل بانتظار عروض عمل.

- أردت التحدُّث معكِ بهذا الشأن.

رائع! هل يعني هذا أن محاولاتها لعلاج الاكتئاب ناجحة؟

سألتها:

- بشأن ماذا؟

- تلقَّيتُ عرض عمل، لكنه ليس في مجال الإعلام، لذلك أنا حائرة. أظن أن العمل رئيسة تحرير إحدى الصحف سيكون أمرًا في غاية الصعوبة الآن. وبما أنه لا أحد سيعرض عليَّ وظيفة مراسل...

- ما العرض؟

- إنه في مجال الدعاية. في شركةٍ جديدةٍ وطموحةٍ جدًّا.

وفقًا لـ«يلماز» صديقي الذي يعمل في مجال الدعاية، إن هذا المجال مضطربٌ في تركيا هذه الأيام. كنت واثقة تقريبًا أنه كذلك في الدول الأخرى أيضًا، لكن كل أصدقائي العاملين في مجال

الدعاية دوليًّا، ويمكنهم تأكيد المعلومة لي، قد انتقلوا لكتابة السِّيَر الذاتية.

قُلتُ لها:

- لماذا لا تتناقشين مع «يلماز»؟ ربما لا تكون الوظيفة المناسبة لكِ.

قالت بتوتُّرٍ وهي تفكر:

- أوشكت مدخراتي على النفاد، ولا أحتمل الاقتصاد في المعيشة أكثر من ذلك. لن تنتهي هذه الأزمة أبدًا. ما بالبيد حيلة.

ثم ابتسمت فجأة، وقالت هي تضحك:

- لو لم يأتِ الألمان إلى هنا ويسرقوا فرص العمل منا، ربما افتتحت مكتبة لبيع روايات الجريمة.

بينما أحاول النوم على الأريكة غير المريحة التي أعدتها لي «لالي»، شعرت بالسعادة لأنني لم أضيع الوقت بالذهاب إلى المنزل لتغيير ثيابي. أحيانًا نستمد السعادة من أشياءَ بسيطة عندما تنهال علينا مصائب الدنيا!

(7)

يمكنك دومًا زيارة شخصٍ ما لتقديم التعازي، حتى لو لم تكن تعرفه جيدًا. هكذا هم الأتراك. إنهم يعتبرون ذلك من حسن الأخلاق ويسعدون بقدومك، خاصةً لو كنت جارًا.

لهذا السبب لم أتردد في دخول البناية، حيث منزل العجوز المقتولة بالأمس.

كان باب القبو مفتوحًا. هناك كومةٌ من الأحذية الرديئة خارج العتبة. يا لها من فوضى.. مثل التي تهاجم أفكاري، والتي في شوارع إسطنبول، وفي الوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي في تركيا حاليًا. أصبحت هذه الأحذية رمزًا يمثل وضع أصحابها عندما وضعت حذائي الأحمر العصري والغالي بجانبها. هناك عشرون زوجًا أو ما شابه من الأحذية الرديئة المسطحة. يقف حذائي بينها بكل أناقة، ويبدو واضحًا أن تكلفته أكثر من ثمن تسعة عشر حذاءً مجتمعة. هذا انعكاسٌ واضح وتقريبي عن توزيع الدخل في تركيا، حيث يحصل خمسةٌ بالمائة فقط على ما يحصل عليه الخمسة والتسعون بالمائة الباقون.

دخلت غرفةً مليئةً بالنساء المحجبات اللاتي يلبسن جيباتٍ وبلوزاتٍ مزخرفة.

ليس لدى المسلمين هنا ثياب حداد، لذلك يلبسون الثياب اليومية العادية في هذه المناسبات. كانت النسوة يتهامسن فيما بينهن، ثم لاحظن وجودي فتوقفتُ لينظرن إليَّ. أشارت امرأةٌ عجوز بجانبها على السجادة التي تجلس عليه وقالت لي:

- تعالي اجلسي هنا يا عزيزتي.

جلست. ليس محببًا أبدًا أن أكون محور الجلسة. نهضت امرأة وصافحتني قائلة:

- مرحبًا.

عليَّ قول شيءٍ ما لأعرف عن نفسي.

- نحن جيران. أملك محلًا بالقرب من هنا. جئت لأقدم التعازي. كنت مارَّةً من هنا بالأمس و...

قلن جميعًا في نفسٍ واحد:

- الله يرحمها.

سألتني شابةٌ محجبة:

- هل تقصدين المكتبة؟ هل هذا هو محلكِ؟

في الواقع.. لا داعي لذكر أنها محجبة، لأن كل النساء هنا محجبات. لا توجد امرأةٌ واحدة تظهر شعرها.

أجبتها:

- نعم، في شارع «لوكوم».

قالت امرأةٌ أخرى:

- ذهبت إلى هناك لأشتري كتبًا مدرسية لابنتي، لكن الموظفة قالت إنهم لا يبيعون هذا النوع من الكتب.

سألت أخرى:

- هل هناك أنواعٌ مختلفة من الكتب؟

- نحن لا نبيع كتبًا مدرسية، بل روايات.

قالت شابة:

- بالطبع. هناك روايات ودواوين شعر، أليس كذلك يا آنسة؟ كل مكان يتخصص في أنواع كتبٍ محددة.

أجبتها وأنا أفكر في مدى غرابة هذه المحادثة:

- هذا صحيح.

سألت المرأة التي صافحتني:

- هل المتوفاة هي حماتكِ؟

بدأت تبكي وهي تقول:

- أنا ابنتها. ذهبت زوجة أخي لتطلب إجازةً من مديرها. لقد حدث الأمر فجأة.

أسرعت إليها بعض السيدات وهمسن لمواساتها، تحركت شفاههنَّ وكأنها تتلو أدعية.

أمسكت المرأة التي بجانبي ذراعي وقربتني منها، ثم قالت:

- كانت أختي الكبيرة، وكانت مريضةً جدًّا. فليرحمها الله. على الأقل لن تعاني بعد الآن. يعلم الله مدى الألم الذي عانته، لكن يحزننا موتها بهذه الطريقة.

أخذت امرأة زجاجة كولونيا كانت بجانب التليفزيون، ورشَّت منها على أيدي باقي النساء في الغرفة، وهي تقول:

- كانت زوجة ابنها في الخارج حتى منتصف الليل. لا يحل السلام والانسجام أبدًا في بيتٍ لا تعود سيدته قبل العشاء. هل أصبحت وظيفة النساء التورط في العمل السياسي؟

تكهرب جو الغرفة فجأة وساد الصمت. لا أحد يعرف ماذا يقول. أخيرًا كسر الصمت الشابة التي تحدثت عن الروايات، قالت:

- كانت مصابةً بالسرطان.

- لا بُدَّ أنكِ أحد الأحفاد. هل لي بكوب ماءٍ من فضلكِ؟

نهضت الشابة فتبعتها لأهرب من تلك الغرفة.

سألتها:

- هل تعيشين في هذه الشقة؟

- نعم. لقد عدنا مساء أمس. سافرت أنا وأخي إلى القرية في عطلة الصيف. نحن نساعد هناك، أما أبي وأمي فلا يمكنهما السفر لأنهما يعملان.

- كيف حدث الأمر؟

امتلأت عينا الفتاة بالدموع. يجب أن أخجل من نفسي. وضعت الفتاة يدها على فمها، وبدأت تبكي. ثم أسندت رأسها على كتفي وراحت تنتحب. فشعرتُ بأنه عليَّ التربيت على شعرها، أو حجابها من باب الدقة. قُلتُ لها:

- لقد كانت مريضةً جدًّا. على الأقل ارتاحت الآن. لو عاشت لعانت ألمًا شديدًا. لقد رحمها الله وأراحها.

قالت:

- لا تقولي هذا يا آنسة. لقد تلقَّت طعناتٍ كثيرةً في بطنها.

وحركت يدها بحركةٍ تشبه الطعن في البطن كما تظن هي.

سألتها:

- لماذا حدث هذا في رأيك؟

توقَّفت الفتاة عن البكاء، وقالت:

- لا أعرف. ربما من أجل الأساور؟ لكن لو رأيتِ تلك الجواهر ستعرفين أنها لا تساوي شيئًا. إنها رفيعةٌ جدًّا. كانت تقول إنها ستعطيها لي لو أصبحت معلمة.

نادت إحدى النساء من الغرفة:

- يا «فيجين»، ستغادر أختكِ «نورتين».

بالطبع، لن أحصل على إجاباتٍ شافية وسط هذا الحشد. قُلتُ لها:

- سأغادر أنا أيضًا.

قالت:

- هل لي بسؤالٍ يا آنسة؟

تحمَّست لأن هذا يعطيني الحق في سؤالها بالمقابل، فقُلتُ:

- بالطبع.

- انتظري قليلًا إذًا. لا تذهبي الآن.

- حسنًا.

- انتظري هنا من فضلك.

ثم ذهبت لتودع أختها.

أصبحت وحدي في المطبخ، فبدأت أتأمَّل ما حولي مثل المحققين البارعين. هناك أكياسٌ على الأرض أمام الغرفة التي حولوها إلى ورشة عمل، أظنها تحتوي على خزين طعامٍ شتوي من القرية. وهناك كثير من أطباق الطعام الموضوعة على طاولة خشبية. يحمل الجدار ملصقًا كبيرًا لحزب «المسعى المتحد». مرسومٌ على الملصق فتاة ترتدي فستانًا أخضرَ، وحجابًا أبيضَ. كانت تنظر إلى كتابٍ ويداها مفتوحتان وكأنها تدعو والدموع تنهمر من عينيها الزرقاوين. يرتفع شعار الحزب فوق رأسها، إنه هلالٌ أبيض يرتفع في سماءٍ زرقاء وسط مساحةٍ خضراء من تركيا. ليس عليك متابعة الجرائد يوميًّا لتعرف أن رمز الهلال ينتمي للأحزاب الإسلامية، ولا لتعرف أن حزب «المسعى المتحد» هو الحزب الإسلامي الأعلى شعبيةً حاليًا في تركيا.

هناك ملصقٌ آخر جوار الثلاجة للحزب نفسه ويقول: «لا لناهبي تركيا! نعم لـ«المسعى المتحد»! «المسعى المتحد» لغدٍ أفضل!». في هذا الملصق تظهر السهول الخضراء التركية وهي تخرج من وسط أرضٍ جافةٍ ومتشققة لتحتل مكانها.

جلست على كرسيٍ صغير أدخن سيجارة حتى تعود «فيجين». لا داعي للاستئذان كي أدخن في بيوت الأتراك، ما عدا بيوت أصدقائي أو سكان «جيهانجير». بعض محبي «باخ» الذين يعيشون في «جيهانجير» يظنون أن منع التدخين في المنازل سلوكٌ عصري. حتى لو دخنت بجانبهم في مكانٍ مفتوح سيلوحون بأيديهم باستمرار وكأنهم يهشون ذبابًا.

مالت عليَّ كأنها ستهمس بشيءٍ خطير، وقالت:

- أحتاج حقًّا إلى الخروج من هنا يا آنسة.

بما أنني سأساعدها على الهروب فمن حقي سؤالها عن السبب.

- لماذا؟

- عليَّ رؤية صديقي. بقيت في القرية لشهرين، لذلك لم نستطع أن تقابل.

سألتها من باب الفضول:

- هل هو حبيبكِ؟

- إنه بمثابة خطيبي، نوعًا ما. لقد وعدنا بعضنا. لن أتأخر، لكن لا أعرف كيف سأخرج. لو قُلتِ إن لديكِ كتابًا من أجلي في المكتبة، يمكنني الخروج معكِ. سأعود في خلال ساعتين. أعدكِ.

هل كان عليَّ إخبارها أنه لا داعي لهذه الوعود معي؟

- حسنًا، لكن هل سيصدقون خدعة الكتاب هذه؟

- نعم، لو أنكِ أنتِ من قلتيها.

- هل تقصدين أنهم لن يصدقوكِ أنتِ، وسيصدقونني أنا؟

- نعم.

هذا غير منطقيٍ أبدًا.

- إلى من أتحدث؟

- سأحضر عمتي إلى المطبخ، فأخبريها. قولي لها: «الفتاة حالتها سيئة. إنها مشتتة بسبب ما حدث لجدتها». سأظل أبكي بينما تتحدَّثين. ثم قولي: «لديّ كتابٌ سيريحها».

بدت لي خطةً غبية، لكنني التزمت الصمت.

- لو ذكرتِ كلمة «كتاب» سيظنون أن الأمر مهم. أقسم أنني لن أتأخر. سأعود خلال ساعتين يا آنسة.

لم أحتمل تأكيدها الشديد وهذه الملصقات السياسية الغريبة، لذلك قُلتُ:

- حسنًا إذًا. اذهبي ونادي عمتكِ.

لا أصدق أنني تورطت في هذا، لكن ما باليد حيلة.

دخلت العمَّة وهي تمسح عينيها بطرف حجابها وتقول:

- لم تجلسي معنا بعد. آسفة، لم أعتن بك جيّدًا، فهناك الكثير من الأقارب، باركهم الله. لم ألتقط أنفاسي.

- لا عليكِ، لقد أتيت فجأة.

كان عليَّ قول المزيد، لكن هذا ما تدبرته باللغة التركية.

شعرتُ بأنني أمثل فيلمًا وأنا أقول:

- إن «فيجين» منزعجةٌ جدًّا بسبب جدَّتها، وأريد أن أعطيها كتابًا. دعيها تأتي معي إلى المكتبة. هذا سيفيدها.

أثناء هذا كانت «فيجين» تمثل دورها ببراعةٍ وهي تهزُّ أكتافها وتبكي. انهمرت دموعها كالشلال.

قالت العمَّة:

- لا أعرف. ماذا سيقول والداها؟

بدأت «فيجين» تنتحب وتُنهنه بصخب، ثم قالت:

- أشعر بحالةٍ فظيعة يا عمَّتي. دموعي لا تتوقف. أظنني مصابةً بالحُمَّى. آهٍ يا جدَّتي.

بدأت تلطم صدرها بيدها، وتضرب ركبتها باليد الأخرى وهي تصرخ: «جدَّتي! جدَّتي!».

كرَّرت مجددًا موضوع الذهاب معي للمكتبة من أجل الكتاب. هذا مُريع.

قالت العمَّة:

- حسنًا، اذهبي معها. ما اسم الكتاب؟ ماذا أقول لوالدتكِ إذا جاءت قبلكِ؟

- قولي لها إنني ذهبت لإحضار كتابٍ أحتاج إليه للمدرسة. أعطتنا المعلمة بعض الواجبات، لكنني لم أجد الكتاب في القرية. وستبدأ الدراسة الأسبوع المقبل. قولي لأمي إنني أحضِر كتابًا للمدرسة. أخبريها أنه لدى الآنسة وهي لا تريد ثمنه لأنها لم تعد تحتاج إليه. ماذا ستفعل امرأةٌ ناضجة بكتابٍ على أي حال؟! ستعطينني إياه مجانًا. وإلا سأضطر إلى شرائه. لا داعي لهذه المصاريف. لا داعي للتبذير. أليس كذلك يا آنسة؟

لو واصلت هذه الفتاة أكثر لفقدت أنا الوعي.

أجبتها بينما أشرب لأبتلع هذا الكلام:

- بالطبع، ماذا سأفعل بكتاب؟! أنا امرأةٌ ناضجة.

كيف انتهى بي الحال هكذا؟ لماذا أنظر إلى ملصقات حزب «المسعى المتحد»؟ لماذا تورَّطت فجأة مع هؤلاء الناس؟

ذهبت «فيجين» إلى غرفةٍ أخرى لتغيير ثيابها. وعندما عادت لم تبد أكثر أناقة، لكنها ارتدت ملابس أكثر. كيف يحتمل الناس هذه الثياب الكثيرة؟ لا يظهر منها سوى يديها ونصف جبتها وأنفها وشفتيها. شددت كُمَّي التيشيرت حتى معصميَّ لا إراديًّا، لكنني بدوت كالعارية مقارنةً بها.

غادرنا معًا. وسحبت نفسًا طويلًا عندما خرجنا إلى الشارع.

شدت «فيجين» كُمِّي، وقالت:

- دعينا نذهب من هذا الطريق يا آنسة. ستأتي أمي من الاتجاه الآخر، وإذا رأتني في الشارع ستعيدني.

- حسنًا، اذهبي. سنفترق هنا.

فقدت ثقتي بنفسي لدرجة أنني كنت مستعدةً لإضاعة الفرصة في كسب أي معلوماتٍ من الفتاة.

- لا يا آنسة، لا يمكنكِ فعل ذلك. يجب عليَّ الاتصال بـ«محمد» لأخبره أن يقابلني في مكتبتكِ. لو رأتني أمي في الشارع ستكسر رجلي.

إنها تُثير جنوني حقًّا. كانت تنظر إليَّ وكأنها على وشك البكاء. أعرف أنها تستطيع تكرار شلالات الدموع كلما أرادت.

أخرجت موبايلي من حقيبتي، وقُلتُ لها:

- اتصلي بـ«محمد»، ورتِّبي معه موعدًا في مكانٍ ما، لكن ليس في مكتبتي، لن تستطيعا التحدُّث بحريةٍ هناك.

- أرجوكِ يا آنسة. لا تدعيها تراني في الشارع.

بدأت بوادر الصداع النصفي تهاجمني، فقُلتُ باستسلام:

- حسنًا، لنذهب إلى المكتبة.

كانت «بيلين» في المكتبة تثرثر مع بعض الزبائن الذين ينظرون بحيرةٍ إلى الرفوف ويلتقطون كتابًا ثم يعيدونه. تسعدني العودة إلى عالمي المتحضر. أخذت «فيجين» إلى التليفون. أشعلت سيجارةً وانتظرت مغادرة الزبائن، بينما كانت «فيجين» تهمس في التليفون.

سألتها بمجرد خروج آخر زبون:

- هل سيأتي خطيبكِ؟

- سيحاول الحصول على إذن. قُلتُ له إنني سأتصل بعد عشر دقائق. لا تمانعين، صحيح يا آنسة؟ فهو لا يستطيع الاتصال أثناء العمل.

سألتها لأستدرجها:

- هل تنتمين لحزب «المسعى المتحد»؟

أشرق وجهها لسماع اسم الحزب، وقالت:

- بالطبع يا آنسة، كلنا ننتمي إلى «UEP». يجب أن ينتمي إليه كل مسلم.

هذا هو اختصار اسمه، «United Endeavour Party».

منعت نفسي من جذب حجابها وشد شعرها، لأنني قرَّرتُ ألَّا أتدخل في شؤون الآخرين، لكنني سألتها:

- هل تعملين لصالح الحزب؟

- أمي تفعل أكثر منا جميعًا. إنها تذهب إلى منازل الناس لتنظيم اجتماعاتٍ نسائية.

- أليست لديها وظيفة؟

- نعم، إنها عاملة نظافة في نادي «هاليتش» الرياضي. وعندما تنتهي، تقوم بواجبها الديني نحو الحزب. إنه خلاصها. إلى من ستصوتين؟

ستقام الانتخابات بعد بضعة شهور.

- لا أعرف.

أومأت «فيجين» برأسها، وقالت:

- صوتي لـ«المسعى المتحد». الآخرون جميعًا فاسدون. لقد خربوا تركيا، وهزموا المسلمين. وانغمست زوجاتهم وبناتهم في الدعارة.

- هل تعمل والدتكِ حتى ساعاتٍ متأخرة لصالح الحزب؟

- أحيانًا تعود إلى البيت بعد منتصف الليل يا آنسة. لقد كرست معظم جهودها للحزب. لم يعترض أبي، فهي تقوم بواجبٍ ديني ولا تخرج للاستمتاع. كل صوتٍ تحصل عليه يساوي حسنة.

- ماذا يعمل والدكِ؟

- إنه فرَّاشٌ في مجلس البلدية.

- بلدية «باي أوغلو»؟

- نعم.

كان رئيس بلدية «باي أوغلو» عضوًا في حزب «المسعى المتحد».

- هل كانت جدَّتكِ تتبع «المسعى المتحد»؟

- بالطبع يا آنسة. كلنا نقوم بواجبنا الديني نحو الحزب.

- هل تظنِّين أن جدَّتكِ قُتِلت لأجل أساورها؟

لم ترد «فيجين»، كانت تنظر لساعتها، ثم قالت:

- آسفة يا آنسة، لكن هل يمكنني الاتصال به مجددًا؟

كانت «بيلين» تراقبني أنا والفتاة بدهشة. أشرت إليها كي تقابلني في المطبخ لأفسر لها.

عندما عُدتُ وجدت «فيجين» متجهمة، وقالت:

- لم يستطع الاستئذان بسبب كثرة الزبائن اليوم. أتيت بلا فائدة. من الأفضل أن أعود للمنزل مباشرةً يا آنسة.

- لا، انتظري. لديَّ بعض الأسئلة.

- ستنتظرني أمي في المنزل يا آنسة.

- هذا ليس خلقًا إسلاميًّا. ألم نتفق على مساعدة بعضنا البعض؟

أظن أن «بيلين» اقتنعت الآن بمدى جنوني.

- أسرعي إذًا يا آنسة. فهناك كثير من الزوار بالمنزل، وعليَّ مساعدة والدتي.

- هل كانت جدَّتكِ مريضةً جدًّا؟

- لم تشك من ألم، لكن موتها كان وشيكًا. لم تستطع الخروج مطلقًا. كما احتاجت إلى كثير من الفحوصات، لكن لا يوجد أطباء في القرية. حتى لو كان هناك، إن أطباء إسطنبول مختلفون. الحال يختلف في المدن على كل حال.

- هل كانت تعيش معكم دومًا؟

- لا يا آنسة. لقد جاءت إلينا بعدما اشتد مرضها. فهي لم ترغب في ترك أرضها وحيواناتها. بعدما أتت جدَّتي أصبحنا نسافر نحن لنساعد جدَّي.

- هل تظنِّين أنها قُتِلت بدافع السرقة؟

- لا تحدث هنا سرقاتٌ يا آنسة. يقول أخي إن الجيران لصوص، واللصوص لا يسرقون جماعتهم. على كل حال، لا نملك ما يستحق السرقة. لدى جدَّتي أسورتان ولم يتم أخذهما حتى. إن كنت

تقصدين أن هناك سببًا آخر ف... لكن ما الذي قد يريده منا أي شخص؟ أي ضغينةٍ قد يحملها لنا؟

- ربما بسبب الحزب؟

- لا يا آنسة. لماذا؟ بأي حال، ما علاقة جدَّتي بأي شخصٍ من حزبٍ آخر؟

- ماذا إذًا؟ ماذا قال أخوكِ؟

- لا شيء.

- ماذا كانت تفعل جدَّتكِ طوال اليوم في المنزل؟

- ترقد في السرير. لم تكن تتألم، لكنها كانت مريضةً جدًّا. كانت شعلةً من النشاط في الماضي، لكن هذا المرض أنهكها.

- ألم تمل من البقاء في المنزل طوال اليوم؟

- تمل؟ أي امرأة اعتادت العمل ستمل. وعمل القرية ليس كعمل المدينة. فهناك يعمل الناس من الفجر للمغيب. لا أحد يتسكع بلا عملٍ في القرية. هذه هي الحياة التي اعتادتها. بالطبع شعرت بالملل. لذلك ساعدت أمي في أعمال المنزل والطبخ. وصنعت الجوارب ليبيعها أخي في السوق. تباع هذه الجوارب بسرعةٍ في الشتاء. كانت جدَّتي - رحمه الله - خياطةً بارعة. سأحضر لكِ واحدًا.

ثم نهضت، فسألتها:

- عندما لم تكن تقوم بالأشغال المنزلية، هل اعتادت النظر من النافذة؟

- بالطبع. الجميع يفعل ذلك يا آنسة، أليس كذلك؟ لماذا تسألين؟

- كنت أتساءل لو اعتادت الجلوس عند النافذة الأمامية أم لا. فعندما ذهبت إليكم لاحظت مكانًا فارغًا على الأريكة.

- نعم، كانت جدَّتي تجلس هناك وتشاهد الشوارع والمارة. لم تحب مشاهدة التليفزيون. كانت تقول: «لم أعتد عليه». لم تسمح عمَّتي بأن يجلس شخصٌ آخر مكانها. تقول إنه يجب أن يظل خاليًا.

- هل كانت تقرأ الصحف؟

ضحكت «فيجين» وهي تقول:

- أي صحفٍ يا آنسة؟! هل تظنِّين أنها كانت تجيد القراءة والكتابة؟!

- ربما كانت تشاهد الصور؟

- لا يا آنسة. لا يوجد صحفٌ في القرية. إنها لا تدخل بيتنا أصلًا. من منا سيهدر المال على شراء الجرائد كل يوم؟

ظننت أن العجوز قُتِلت لأنها رأت قاتل «عثمان». فلو فعلت لأصبحت شاهد عيانٍ مهمًّا، وسيسعى القاتل للتخلص منها متحملًا جميع المخاطر. فهو في تلك الحالة سيظن أن العجوز تعرفت عليه، ما يعني أنه شخصٌ مشهور أو يأتي إلى هنا باستمرار. مثل العمِّ على سبيل المثال.

ما زال العمُّ في قائمة المشتبه بهم الخاصة بي.

وربما يكون شخصًا مشهورًا من معارف «عثمان»، وتعرفه العجوز أيضًا. هذا طبعًا لو كان «عثمان» يعرف أحد المشاهير.

الطريقة الوحيدة لمعرفة ذلك هي «إنجي».

هذا ما فعلته. قالت إنها تُحَضِر بعض المحشي، ودعتني لتناول العشاء معًا.

أغلقنا المكتبة، وسرت مع «بيلين» إلى المنزل. سألتني إن كنت أخرج كثيرًا في المساء بسبب إقامتها معي.

- أستطيع الذهاب إلى بيت صديقةٍ أخرى إن كنت أزعجكِ.

أنسى أحيانًا أن «بيلين» تركية، كما تنسى هي أنني ألمانية. على الرغم من أنها لا تعرف حقًّا طباع الألمان.

قُلتُ لها:

- اسمعي، أنا لست تركية، بل ألمانية. ولو كنت منزعجةً من وجودكِ معي لأخبرتكِ مباشرةً.

- هل يمكنكِ قول ذلك لي حقًّا؟

- بالتأكيد.

- أفضل الموت على قول ذلك لأي أحد.

- أعرف أنكِ تركيةٌ مهذبة ومضيافة. وأنا ما زلت أملك القليل من طباع الألمان.

وضعت إبهامي على طرف سبَّابتي لأوضح لها معنى «القليل». بعض الطباع لا تتغير أبدًا.

عاش «عثمان» حياة ترف. لا أعرف شيئًا عن زوجته، لكن المأدبة التي أعدتها حبيبته لي هذا المساء كانت مُذهلة.

أنهينا طعامنا، ثم قُلتُ لها:

- لا أستطيع البقاء طويلًا. خرجت مساء الأمس أيضًا، لذلك أشعر بالتعب. لكن لديَّ سؤال.

أخبرت «إنجي» عن وفاة السيدة العجوز وعن شكوكي. استمعت لي بانتباهٍ شديدٍ جدًّا حتى بدأت أشعر بأهميتي.

قالت بانفعال:

- أتت الشرطة اليوم، لقد أدركوا وجودي أخيرًا. أنتِ أسرع من الشرطة.

هذه المجاملة فاقت كل أحلامي، فابتسمت وخفضت رأسي تواضعًا. أنا أسرع من الشرطة!

سألتها بصوتٍ طفوليٍ مُدلَّل:

- ماذا أرادوا؟

- سألوا عن كل شيء. مثل أين كنت ما بين السابعة والنصف والتاسعة والنصف من مساء الخميس. قُلتُ لهم إنني كنت أشاهد التليفزيون وحدي.

- هل سألوكِ عما كنتِ تشاهديه؟

نظرت لي بتركيزٍ، وقالت:

- لا، لم يفعلوا. سألوني فقط إن كنت وحدي أم لا.

تذكرت فجأةً الجلد المترهل الذي بدأ يتدلى تحت ذقني، وكيف أن حكه بحركاتٍ منتظمة يساعدني على التفكير.

عرفت من «إنجي» أن هناك شخصين في حياة «عثمان» يمكن وصفهما بالمشاهير. أحدهما لاعب كرةٍ سابق، لعب في فرق الدرجة الأولى، ونال لقب «ملك الأهداف» عام 1988، لكن الكرة التركية لم تكن عالية المستوى في الثمانينيات كما هي الآن. حتى لو كانت، فأشك أن العجوز ستستطيع التعرف على أيٍ من اللاعبين.

أما الشخص الآخر فهو ممثل، وكان نائبًا يمينيًّا بالبرلمان لفترةٍ واحدة. كان مفضلًا في السينما التركية القديمة، ومعروفًا بأدواره الرومانسية، كما كان عشق الفتيات، فهو أسمر ووسيم وله شاربٌ تركي مبروم. لقد غطت صوره جدران غرف الفتيات. إنه ينتمي إلى قرية «عثمان» نفسها. اسمه «قسمت أكان»، وهو ملكٌ بين الرجال.

قالت «إنجي» إن «قسمت» مقامر. بالتأكيد بدأت صداقته مع «عثمان» لأنهما من قريةٍ واحدة، لكنها تطورت بسبب ولعهما المشترك بالقمار. بعدما تم منع الكازينوهات في تركيا، انطلقا معًا للعب القمار في بلادٍ مختلفة لست سنوات. ذهبا أولًا إلى بلغاريا، لكن مؤخرًا بدآ يذهبان إلى شمال قبرص. هل وقعت الجريمة بسبب دين قمار؟ أو ما شابه ذلك؟ لم أستطع التفكير في سببٍ آخر وقتها.

إن «قسمت أكان» مشهورٌ بما فيه الكفاية لتتعرفه سيدةٌ عجوز. فأي مواطن تركي يتذكر تفاصيل ثلاثة أفلامٍ له على الأقل. ليس عليك أن تكون مدمن تليفزيون لتعرف «قسمت أكان». حتى أنا أعرف له بعض الأفلام بسبب عرضها على التليفزيون أسبوعيًّا نهارًا.

لم أستطع ترك «إنجي» باكرًا كما خططت. والنتيجة هي أنني عدت إلى البيت متأخرًا ولم أستطع الاتصال بـ«لالي». أريد منها أن تجعل «قسمت أكان» يتصل بي.

أعددت بعض الشاي الأخضر، وحضرت نفسي لسماع آخر التطورات في حياة «بيلين» بكل تعاطف. من الضروري أن نهتم بحياة الآخرين كل فترةٍ حتى لو لم نحب ذلك. فالبشر كائناتٌ اجتماعية على كل حال.

عندما استيقظت صباحًا شعرتُ أن التجاعيد حول عيني قد أصبحت أقل. أحيانًا يكون للنوم الهانئ هذا التأثير. وقفت أمام المرآة ووضعت كريمًا على وجهي ودلكته بحركاتٍ دائرية. كما اهتممت بوضع مكياجي أكثر مما فعلت في الأيام السابقة. لو أنني ذهبت للكوافير فسأصبح في أفضل حالاتي حتمًا.

اتصلت بـ«لالي» قبل أن أغادر المنزل. قالت إنها ستبحث عن شخصٍ يعرف «قسمت أكان». لن تبدأ مقابلتها مع شركة الدعاية إلا العصر، لذلك تستطيع القيام ببعض الاتصالات.

ذهبت للكوافير القريب، وصففت شعري، وطليت أظافر يديَّ وقدميّ. حتى بعد كل هذه السنوات، كلما ذهبت إلى صالون تجميل أو رأيت إحدى السيدات المتأنقات في الشارع، شعرتُ بالامتنان لأنني أعيش في إسطنبول، حيث الأسعار معقولةٌ جدًّا. كانت المكتبة مزدحمةً جدًّا. يقول الناس إن الاقتصاد بدأ ينتعش بفضل مصاريف الأحزاب على الحملات الانتخابية والجهود الأخيرة التي يقوم بها أعضاء البرلمان لإنقاذ أنفسهم. لذلك حتى أنا أملك سببًا منطقيًّا لاحتمال شعارات الأحزاب التي تملأ الشوارع. أمضيت اليوم بأكمله أتحدث مع الزبائن وأرشح لهم كتبًا.

بسبب ضغط العمل، لم أستطع الذهاب إلى البناية التي شهدت مقتل «عثمان» إلا في المساء. اكتشفت أنه إذا وقفت على السلالم الرخامية التي تصل المدخل بالباب، أستطيع رؤية المكان الذي اعتادت المسنة الجلوس فيه. لذلك من المرجح أنها رأت القاتل. جلست أنظر إلى نافذة القبو، بينما أحاول تخيل ما حدث. لا أعرف وقت وقوع الجريمة. قالت «إنجي» إن الشرطة سألتها عن مكانها ما بين السابعة والنصف والتاسعة والنصف مساء الخميس. هل يعني هذا أن ذلك هو الوقت التقديري للجريمة؟

لا مفر من الاتصال بـ«باتوهان». قال إنه يقود ولا يستطيع التحدث طويلًا. ما زال يمكنه إخباري بهذه المعلومة فقط، لكنه لم يفعل. من الواضح أن النقاش في القضايا المفتوحة ممنوعٌ تمامًا. اعتدت على تناقضاته منذ فترةٍ طويلة لذلك لم أغضب.

دعتني «بيلين» للذهاب معها ومع أصدقائها إلى بارٍ فيه البيرة رخيصة ويعزف موسيقى الـ«روك». فعلت ذلك من باب اللياقة بالطبع. فهي تعرف أنني لن أجلس أبدًا في بارٍ لموسيقى

الـ«روك». لديَّ خططٌ أخرى لهذا المساء بأي حال، وهي لا تتضمن ارتداء جاكت وربط شعري.

تناولت بعض الزبادي مع الشوفان. ليس لأني أظنها أفضل وجبةٍ مسائية، لكن لا ضرر أبدًا في تناول الطعام الصحي أحيانًا. جلست أمام الكمبيوتر وأمامي طبق الزبادي بالشوفان. فتحت الإنترنت، ولا أخجل من إخباركم بنيتي. يقول الناس: «إن كنت تخجل مما ستفعله فلا تفعله»، صحيح؟ حسنًا، لست خجلةً أو محرجة. لماذا سأخجل؟

سأحاول معرفة كلمة السر لإيميل «سليم» لمعرفة آخر التطورات بشأني. هذا طبيعي.

كلمة السر هي المشكلة. لست محترفةً في القرصنة الإلكترونية، لذلك سألجأ لوسيلة التجربة والخطأ. سأجرب الأرقام أولًا ثم الكلمات. لديَّ احتمالاتٌ قليلة.

أولًا، تاريخ ميلاد «سليم» 1950.

ثانيًا، تاريخ تخرجه في الجامعة 1976.

ثالثًا، السنة التي وقعت فيها تلك الحادثه التاريخية التي يحبها وقرأ عنه كثيرًا عام 1789.

لا فائدة.

بحثت في إحدى الموسوعات عن تاريخ «الميثاق العظيم» الخاص بالحريات في بريطانيا، وعن «وثيقة الحقوق» الخاصة بحقوق المواطن في الولايات المتحدة. ظننت أنهما سيروقان لمُحامٍ يحب التاريخ، لكن بلا فائدة. انتصف الليل وأصابني الإحباط عندما كتبت اسم «تاركوفسكي»، مخرج الأفلام المفضل لديه، وفشلت المحاولة.

أرغب في النوم بشدَّة. جرَّبت بضع كلماتٍ باللغة اللاتينية؛ مثل كلمة «diabolo» و«diabolos»، وتعنيان «شيطان» و«شياطين». ثم جرَّبت كلمات «veritas» وتعني «الحقيقة»، و«vino» وتعني «الخمر»، و«justitia» وتعني «العدالة». بعد ذلك جرَّبت اسم «كانط» فيلسوفه المفضل، ثم «ستيفن كينج» مؤلفه المفضل، ثم اسم والدته ووالده وإخوته. عندها قرَّرت التخلي عن المحاولة لو اتضح أن كلمة السر هي اسم أحد أقربائه من بعيد. جربت ماركات السجائر العادية والسيجار الفاخر والكولونيا التي يستخدمها. ظننت أن أي شخصٍ يعمل بجدٍّ مثل «سليم» سيختار كلمة سر سهلة الحفظ، لكن يبدو أنني مخطئة في هذا الشأن أيضًا كما في غيره. حاولت التفكير في كل الأشياء التي يسهل تذكرها على «سليم». لن يتذكر أبدًا تاريخ لقائنا. لو أننا تزوجنا، ربما كان سيتذكر تاريخ الزفاف. كنت سأجرّب تاريخ ميلادي لولا أنه نسيه العام الماضي.

بينما أشرب شاي الأعشاب كريه الرائحة، تذكرتُ أنني لم أجرب اسمي. على الأقل هو لم ينسَ اسمي بعد. لمَ لا؟ كتبت «كاتي».

انفتح إيميل «سليم» فورًا أمامي.

رمزه السري هو اسمي.. اسمي بحروفه الأربعة.

بوركت يا حبي.. يا حبي الوحيد.

لا تتخيَّلوا شعوري. كم رجلًا يستخدم اسم حبيبته كلمة سر؟ شعرت بالخجل من نفسي بسبب كل ما ارتكبته في حقه. لقد جرحت هذا الرجل الطيب. حبيبي التركي الرومانسي. ملك قلبي.

انهمرت دموعي على خدي وتساقطت على لوحة المفاتيح. وأنا التي فكرت في أن كلمة «شيطان» تناسبه، في حين اختار هو اسم ملاكه، أنا. هل أستحق رجلًا كهذا؟

يا لي من امرأةٍ شريرة!

الحرج يمزقني. أردت الاتصال به فورًا ليداوي روحي الجريحة بين ذراعيه. أريد أن أريح رأسي على صدره وأن أنسى كل ما هو كريه من عقلي. أريد أن أكون مخلصةً له للأبد وأن لا أجرح مشاعره الحساسة أبدًا. أريد الزواج منه وتعلم صنع المحشي وكرات اللحم المفضلة لديه. أود أن أعد له الطعام بيديَّ الجميلتين. أريد أن أوقظه بنفسي، بينما أقبله وأهمس له أن الفطور جاهز. أرغب في أن أكوي ثيابه الداخلية. لن أثير مشاكل أبدًا بشأن النفقة التي يدفعها لطليقته. سأصبغ شعري بالأشقر ودرجاته إن لزم الأمر. سأشرب الشاي مع زوجات أصدقائه. سأستقبله بمرح عند عودته للمنزل، وسأدلك أكتافه المتيبسة. سأحبه أكثر من أي شيءٍ في العالم. أكثر من القطط والطيور والحشرات والأطفال. حبيبي. هل أستحق حقًّا كل هذا الحب؟ قلبي يرقص تأثرًا. اسمه يلهب شفتيَّ ويشعلهما فيما يطير قلبي من السعادة.

ذهبت إلى غرفة الجلوس، وسكبت لنفسي بعض الـ«ويسكي»، ثم تجولت في الشقة، بينما أحرك الثلج في الكأس. شربتها على مرَّة واحدة، وسكبت كأسًا أخرى. لا يمكن أن أصبح مدمنة كحول في ليلةٍ واحدة على كل حال. شربت الكأس الثانية بسرعةٍ أيضًا. يجب أن أكون واقعية. عليَّ أن أتقبل حقيقة أنني لن أتمكن أبدًا من إعداد المحشي، ولا كي الثياب الداخلية، ولا الانتظار عند الباب لأستقبل أي شخص. سكبت كأسًا ثالثة.

لو غيَّرت كلمة السر الخاصة بي إلى «سليم»، عندها سأرد الدين. حتى في العلاقات الدولية، ستكون هذه لمحةٌ تبادلية كافية. لا داعي للمبالغة.

استيقظت على رنين التليفون، أو هو أيقظني بالأصح. أسرعت لمكتبي، حيث التليفون الأرضي. من المذهل أن يُسرع الإنسان فور استيقاظه، بغض النظر عن الاصطدام بالجدران أثناء الركض. المتصل هو «باتوهان». كان يقود عندما اتصلت به بالأمس، لذلك لم يستطع التحدُّث معي وما إلى ذلك. يبدو أنه يشعر بندمٍ شديد. خطر لي فجأةً أنه ربما يكون متزوجًا. ربما كانت زوجته معه عندما اتصلت به بالأمس. يا لأفكاري الغريبة فور الاستيقاظ! هل المرأة التي تحشي الطماطم وتكوي الثياب الداخلية قد تفكر في شيء كهذا؟ أبدًا، مستحيل.

ما زال «باتوهان» يثرثر. ليته يتوقف لحظة، فرأسي سينفجر، وما زلنا في الصباح الباكر. قال إنه قادمٌ إلىِ حي «كوليديبي»، وإنه يمكننا تناول الغداء معًا. يبدو أن راتبه من الشرطة يزداد فجأةً

حين يتعلّق الأمر بإطعامي الكباب. كيف يتحمل هذه المصاريف؟ هل يحاول التنافس مع المحامي الثري، حبيبي السابق؟ ألا يفترض أن تكون الرواتب الحكومية منخفضةً في تركيا؟ أليس رجال الشرطة من موظفي الحكومة؟

قُلتُ له:

- موافقة، بشرط أن أدفع الحساب.

حان الوقت لأدعم قوات الشرطة في الدولة، فأنا أعيش هنا وأحمل جواز سفرٍ تركيًّا أنيقًا. هذا أقل ما يمكنني فعله للشرطة التركية.

ثم أضفت:

- لا تتأخر، فالمكان الذي سآخذك إليه يغلق مبكرًا.

كان الجو مظلمًا وغائمًا، ستمطر على الأغلب. يبدو أن السيول التي اكتسحت المدينة منذ أسبوعين ستعود. لم تعد «بيلين» إلى المنزل ليلة أمس، لذلك اتصلت بالمكتبة لأرى إن كانت هناك. أخبرتني أن جريدةً ألمانية تريد لقائي لعمل موضوع. هل ستنضم تركيا للاتحاد الأوروبي؟ بما أنني ألمانية تعيش في تركيا، فالجميع يتوقع مني أن أعرف إجابة هذا السؤال المهم. سيتصل الصحفي مجددًا في الظهيرة. إنه يصر على مقابلتي حقًّا.

اتصلت بـ«لالي» مجددًا قبل أن أغادر المنزل، وحدَّثتها بشأن «قسمت أكان». قالت:

- لم تتمكن صديقتي من الاتصال به بعد. موبايله مغلق. لكنها وجدت أخاه. سيتوصلان لاتفاقٍ اليوم أو غدًا. لا تقلقي.

تمنيت لـ«لالي» كل النجاح في مقابلة العمل.

رأيت القهوجي «ريجاي» أمام المكتبة. كان يحمل صينية شاي وينظر للسماء بقلق. قال لي:

- ستمطر قريبًا. إنها غلطة الأمريكان يا آنسة. لقد خربوا العالم وأفسدوه. هاجمت السيول كل مكان. هل رأيتِ أخبار أمس؟ البيوت تطفو على الماء. يقال إن السبب هو الأسلحة التي يستخدمونها في الحرب ضدنا. ماذا حدث لتلك الأجهزة التي ترى في ظلام الكهوف ولا داعي لاستخدام الأسلحة؟ هل تمكنوا حقًّا من القبض على «بن لادن»؟ كلها أكاذيب.

كنت أحاول دخول المكتبة، فقُلتُ له:

- الشاي سيبرد يا «ريجاي».

- لا أهمية للشاي يا آنسة إن كنا لن نستمتع به. الناس يشتكون من كل شيء.

ثم لوح بيده وعبر الشارع الصغير إلى الميدان.

لا مفر من السياسة. كل شخصٍ لديه على الأقل ثلاثين فكرةً ليشرحها. الأتراك يحبون الثرثرة.

ناولتني «بيلين» سماعة التليفون بمجرد أن دخلت المكتبة. إنه المراسل «جونتير شميت» من جريدة «فوخينتسايت» الألمانية.

لقد سئمت من المقابلات المملة مع المراسلين الألمان الذين يعرفون عن العالم أقل مما يعرف «ريجاي». فقُلتُ له:

- أنا مشغولةٌ جدًّا حاليًا.

- سأظل في إسطنبول لمدة أسبوع. يمكننا اللقاء في أي وقتٍ يناسبكِ.

- في هذه الحالة، اتصل بي مجددًا قبل رحيلك.

بدأت تمطر. على الأرجح لن يأت أحد لشراء كتبٍ في هذا الجو. لست حزينة. ولست منزعجةً من إلغاء موعد الغداء مع «باتوهان». أمضيت النهار بأكمله بكسلٍ مع «بيلين»، حتى إنني قرأت جريدة. يفعل الناس أمورًا غريبةً عندما يشعرون بالكسل والملل!

طبخت «بيلين» العشاء هذا المساء. أعدَّت طاجن بامية بلحم الضأن. لم أتقبل البامية أبدًا. إن طعمها ليس سيئًا مع كثيرٍ من الليمون والطماطم، لكنني لا أريد تذوقها حتى لو عشت أربعين عامًا من دونها. شعرت «بيلين» بالدهشة عندما عرفت أن معظم الألمان لا يعرفون طعمها. ما المشكلة؟ تستطيع أي دولةٍ أن تعيش من دون بامية، وأن تقطع الكوسة على السلطة كالخيار، وأن تظن أن طريقتها في البيتزا هي أعظم اختراعٍ للإنسان. بأي حال، من يمكنه التنافس مع المطبخ التركي المتميز بتنوعه الجميل؟ أعترف أن الأتراك يبالغون أحيانًا. فأنا لا أصدق أن يأكل الإنسان أمعاء وأمخاخ الحيوانات.

كنا نستعد للنوم حين اتصلت «لالي». سارت مقابلة العمل على ما يرام، وحصلت على الوظيفة. كما أنها اتصلت بـ«قسمت أكان» الذي سينتظرني في مكتبه غدًا الساعة الخامسة. أعطتني العنوان ورقم التليفون. قبل أن أغطَّ في النوم، رتبت جدولي للغد الذي قالت مذيعة النشرة الجوية أنه سيكون جافًا.

استيقظت لأجد أشعَّة الشمس تتسلل إلى غرفتي. إنها الأشعة الجميلة التي تتحرر بعد مطرٍ متواصل. من الغريب أن يتأثر مزاج الإنسان بالأحوال الجوية. نُصاب بالإحباط إذا مرَّ يومٌ من دون شمس، ونشعر بأننا شِخنا بين ليلةٍ وضحاها. عندها لا تبدو فائدة من تناول الشوفان بالزبادي أو الامتناع عن القهوة لتقليل الترهلات أو وضع كريمات البشرة وماسكات الوجه أو حتى الامتناع عن السجائر. قرَّرت أن أشرب كوبًا من القهوة احتفالًا بعودة الشمس. ولتعويض ذلك، سأدهن كريم الترهلات بعد الاستحمام. مكتوبٌ على العبوة أنه يجب استخدامه بانتظام ليعطي أفضل مفعول. لكن إن كان يريح نفسيتي، فمؤكد سيؤثر في الترهلات.

هززتُ «بيلين» لأوقظها، وأخبرتها أن تفتح المكتبة. قالت إنها منذ أقامت معي وهي تفتح المكتبة من تلقاء نفسها كل صباح. فقُلتُ لها إنني أكبر في السن، وأشعر بالاكتئاب بسبب الترهلات وتجاعيد الوجه، كما أن حبيبي يتجاهلني ولا أجد من يواسيني. لا أصدقاء يأخذوني معهم في المساء إلى بارٍ «روك» يقدم بيرةً رخيصة.

أخبرتها أن الحياة قاسية على امرأةٍ في عمري، لذلك فإن وضعينا مختلفان جدًّا. اقتنعت بكلامي وغادرت بكسلٍ. ذهبت للكوافير لأصبغ شعري. لكن لم أذهب للكوافير القريب هذه المرة. أجازف بمالي مرَّة في الشهر وأذهب إلى الكوافير الذي في «نيشانتاشي» لأصبغ شعري. في الواقع، إن «نيشانتاشي» ليست بعيدةً عن «جيهانجير»، لكن الذهاب لهذا الحي متعبٌ حقًّا. أشعر أنني أسافر أميالًا. لا أفهم كيف تتجول النساء هناك بشعورهنَّ المصبوغة المتكلفة وبحقائبهنَّ الغالية ذات الماركات العالمية. إنهن يثرن أعصابي. تقول «لالي» إن السبب في انزعاجي هو أن عقلي الباطن يخشى أن أصبح مثلهن أو أني أدرك احتمالية ذلك.

حسنًا.

بعدما غادرت الكوافير، مررت على «كاراكوي» قبل أن أذهب إلى المكتبة. هذه المنطقة مليئةٌ بالأكشاك التي تبيع كل شيء، بدءًا من أقراص فيتامين «ه» حتى الواقي الذكري. خلف الأكشاك هناك محلات تكاد تختفي. أحدها كان محلًا لبيع الأسلحة وأدوات الصيد، أو هكذا كان عندما رأيته منذ شهرين أو ثلاثة.

ما زال هناك. تنفَّست الصعداء لرؤية واجهة المحل تعرض الأسلحة والذخيرة. هناك موظفان وأربعة زبائن. وقفت بالخارج أشاهد الأسلحة المعروضة حتى غادر زبونان.

ذهبت للشاب الواقف خلف الكاونتر، وقُلتُ له بكل بساطة وكأنني أشتري بلوفر:

- أريد رؤية مسدسٍ دوار.

نظر إليَّ بعدم فهمٍ وسأل:

- هل تبحثين عن شيءٍ محدد؟

يبدو أنني بحاجةٍ إلى معرفة المزيد عن الأسلحة لو أردت التظاهر بأنني زبونةٌ محترفة.

قُلتُ له مع أكثر ابتساماتي جاذبيةً، بالإضافة إلى جاذبية شعري البرتقالي:

- بصراحة، أريد بعض المعلومات. أريد معرفة خصائص المسدس الدوار.

أشار الموظف لمقعدٍ بجوار الكاونتر، وقال:

- تفضلي بالجلوس.

وضع مسدسًا على الكاونتر الزجاجي. إنه يشبه المسدسات التي تظهر في الأفلام عند لعب «الروليت الروسي»، حيث يضع الشخص رصاصةً واحدة في ساقية المسدس ويدورها فلا يعرف ترتيب الرصاصة، ثم يطلق النار على نفسه ليجرب إن كانت ستصيبه أم لا. يحتوي المسدس على قسمٍ يدور في منتصفه وتخرج منه الرصاصات.

قال الموظف:

- هذا مسدسٌ دوَّار. ما الذي تريدين معرفته عنه؟

- هل يطلق رصاصًا عيار 9 ملليمترات؟

ثم أدركت أن سؤالي إمَّا يبدو سخيفًا أو تقنيًا أكثر من اللازم. حكَّ الموظف خلف عنقه وابتسم. من الواضح أنه لا يريد التصرف بوقاحةٍ، ولكنه لا يستطيع منع نفسه من الضحك. حرَّك يده وهو يقول:

- سيدتي، لماذا...؟

- أنا أقرأ روايةً بوليسية. حدث شيءٌ ما و... وجدت محلك في طريقي... شعرت بالفضول لذلك دخلت. يمكنني العودة لاحقًا إن كنت مشغولًا.

لو أنني حضرت نفسي مسبقًا، لتحدَّثتُ بلا تردد.

- أنا عاشقٌ للروايات البوليسية، لكني لا أملك وقتًا للقراءة. لذلك أميل لمشاهدة الأفلام. لقد شاهدت كل أفلام «جيمس بوند» مرَّاتٍ كثيرة. يذهب آخرون إلى مباريات كرة القدم فيما أذهب أنا للسينما كل أسبوع.

قُلتُ بسعادةٍ غامرة:

- في هذه الحالة، ستفهمني؟

- من الصعب أن تجدي من يفهمكِ مثلي. هل تحبين الشاي أم القهوة؟

- القهوة ستكون رائعة.

غادرت محل الأسلحة في الرابعة. كان عليَّ مقابلة «قسمت أكان» في الخامسة، ولا أريد أن أتأخر. تناولت قطعة مخبوزات دسمة من أحد الأكشاك على ناصية الشارع. سأكره نفسي لمدة أسبوع لذلك، لكن لا خيار آخر. لا يمكنني التجوال طوال اليوم بمعدةٍ خاوية. أخذت سيارتي من الجراج واستمعتُ إلى أغنية للمطربة الإنجليزية «تانيتا تيكارام»، ثم توجهت إلى حي «مجيدية كوي».

عادةً أتجنب هذا الجزء من إسطنبول إلا للضرورة القصوى، لكنني عرفت الطريق بلا صعوبة. ركنت السيارة وذهبت إلى العنوان في الساعة الخامسة إلا عشرًا.

شقة رقم 23 في المبنى المظلم الذي يتهاوى طلاؤه وتخرج مواسير التكييفات من نوافذه. ضربت الجرس الخاص بـ«أكان للاستيراد والتصدير». لم ينفتح باب المبنى.

انتظرت قليلًا ثم ضربته مجددًا لفترةٍ أطول.

سمعت صوت النافذة وهي تنفتح بعنف.

أطلت امرأة من النافذة، ونادت:

- من هناك؟

خرجت من المدخل لتراني المرأة، وقُلتُ:

- لديَّ موعدٌ في الخامسة. اسمي «كاتي هيرشيل».

دخلت المرأة بلا أي كلام وأغلقت النافذة. انتظرت قليلًا، لكن الباب لم يُفتح بعد. ضربت الجرس مجددًا بلا فائدة. فاتصلت بالرقم الذي أعطتني إياه «لالي». ردت المرأة:

- شركة «أكان للاستيراد والتصدير».

- أنا أضرب الجرس منذ مدة، لكن الباب لا ينفتح. لديَّ موعدٌ في الخامسة.

- إن جهاز الفتح الآلي معطل، لذلك كان عليَّ النزول لأفتح الباب بنفسي، لكن التليفون رنَّ وأنا وحدي. لماذا لا تضربين جرس أحد الطوابق السفلية؟

- أنا؟ لا أريد إزعاج الناس. سأنتظركِ حتى تنزلي.

- سيصل «قسمت» بك قريبًا بأي حال. معه مفتاح. أنا آسفةٌ حقًّا، لكني وحدي والتليفون لا يكف عن الرنين.

فكرت في حلٍّ، وقُلتُ لها:

- لماذا لا تلقين إليَّ بالمفتاح؟

- ها! لم يخطر هذا على بالي. انتظري.

أغلقت الخط وأطلت من النافذة ثانيةً، ثم ألقت بالمفتاح.

لا يوجد أسانسير بالمبنى. يا للمرأة المسكينة! لا ألومها لأنها لا تريد صعود ونزول كل هذه السلالم.

أجلستني على أحد المقاعد الناعمة المقابلة لمكتبها في الصالة التي يستخدمونها كمكتب سكرتارية. هناك رائحةٌ نفاذة تفوح من المقاعد. إن الغبار المتراكم طوال سنواتٍ على هذا المقعد جعل التنجيد يشبه الجلد الناعم. أما الأرضية فمغطاة تمامًا بسجادةٍ كانت بنيةً في الماضي على ما يبدو. حاولت

أن لا أتنفس من أنفي حتى أتجنب رائحة السجائر القديمة. حتى عندما تنفَّست من فمي، شعرت بأنني أبتلع كل هذه القذارة. شعرت بالاشمئزاز، لكن لو تقيَّأت سأضطر لدخول الحمَّام هنا.

أصابني بالإحباط، وحاولت التفكير في شيءٍ آخر؛ مثل الحقول الخضراء والأبقار والحملان وأشجار الكرز والعائلات الإيطالية السعيدة التي تأكل مكرونة سباجيتي... لسببٍ ما، أتخيَّل أن العائلات السعيدة دومًا إيطالية. ربما لأني أعرف العائلات التركية والألمانية، وأعلم أنهم ليسوا سعداء.

لم أر قط مكانًا قذرًا كهذا المكتب. المرأة نفسها كانت في مثل غرابة وقذارة المكتب. لا يتعدَّى وزنها أربعين كيلوجرامًا، وخدودها مشفوطة، وشعرها رمادي باهت.

شعرت بالاشمئزاز مجددًا وعدت أفكر في الحقول الخضراء.

انفتح الباب قبل أن تقدم المرأة لي شيئًا أشربه، فنهضت فورًا وقالت:

- «قسمت» بك.

لقد شاخ الرجل المسكين كثيرًا منذ آخر أفلامه. ما زال وسيمًا بلا شك، وقليلٌ من الرجال يمكنهم العناية بشواربهم هكذا. إن مظهره العام رجولي جدًّا. يمكن وصفه بشديد الرجولة. وهذا النوع لا يجذبني. ليس وكأنني سأمضي حياتي معه بأي حال. سأمضي معه ساعةً في مكتبه على الأكثر، ربما ساعتان، بالتأكيد ليس ليلةً كاملة.. بالطبع لا. لديَّ «سليم».. أعني كان لديَّ.. لا، بل ما زال لديَّ. على كل حال، هذا الرجل على رأس قائمة المشتبه بهم الخاصة بي. قد يكون قاتلًا.

تفحصني هذا الرجل الوسيم والمثالي بعينيه الواسعتين الجميلتين، ثم تقدم نحوي وصافحني قائلًا:

- أعتذر لجعلك تنتظرينني كثيرًا. تعرفين ازدحام إسطنبول مساء الجمعة. بالإضافة إلى إصلاحات طرقٍ على الجسر...

قاطعته قائلة:

- لا يهم.

ما المشكلة في الانتظار خمس دقائق في هذا المكان الفظيع إن كنت سأقابل رجلًا مثله في النهاية؟

قال:

- أتيت لأخذ بعض الملفات، لهذا اقترحت اللقاء في المكتب، لكن يمكننا الذهاب إلى أي مكان في هذا الجو الجميل. يقولون إنها ستمطر مجددًا غدًا. ما رأيكِ؟ هل نذهب إلى مكانٍ يطل على البوسفور؟ سنستطيع التحدُّث على راحتنا.

بالتأكيد لا يملك أدنى فكرةٍ عن موضوع حديثنا. وإلا لحاول التخلص مني بأسرع ما يكون بدلًا من اقتراح هذا.

لا أريد الربط بين هذا الرجل وهذا المكتب، ولا أريد قضاء دقيقةٍ واحدةٍ هنا. لذلك قُلتُ:

- رائع. سأنتظرك بالأسفل أمام الباب.

دخنت سيجارةً كاملة أمام المدخل قبل أن ينزل «قسمت» بك. لا يصح أن تدخن النساء في شوارع تركيا. لا أفعل ذلك عادةً، لكن سأستثني هذا اليوم. لديَّ عذري بعدما أمضيت بضع دقائق في هذا المكتب الغريب.

قال:

- كنت سأقترح العشاء معًا، لكن الوقت ما زال باكرًا لو كنت أعرف، لجعلت موعدنا متأخرًا قليلًا.

ثم تأبط ذراعي. ودٌ مبالغ، أليس كذلك؟ لكن بصراحة.. لست معترضةً أبدًا على تودُّده.

سألته:

- لو كنت تعرف ماذا؟

أحيانًا أكون سريعة البديهة، أحيانًا فقط.

قال:

- لو كنت أعرف أنني سأقابل سيدةً فاتنةً مثلكِ.

ضحكت بتهذيبٍ زائف، كدت أضحك بصوت عالٍ، لكنني كتمت الضحكة في آخر لحظة فخرجت فيما يشبه الصهيل.

- تفضلي بركوب السيارة ثم سنفكر في وجهتنا.

- معي سيارتي أيضًا.

إن السيارات تسبب مشاكل دائمًا في إسطنبول. مستحيل أن تجد أماكن للركن، كما يَصعُب ركوب سيارة رجلٍ وسيم دون بعض التردد.

- اتركيها هنا، وسأجعل أحدهم يعيدها إليكِ لاحقًا.

إنه رجلٌ نبيلٌ حقًّا. لو كان أحد الرجال المتعلمين الذين يجيدون الأعمال المنزلية وتقميع البامية، لقال: «اتركي سيارتكِ هنا، وسأعيدكِ إليها في طريق عودتي». هل هذه الكلمات هي نتيجة صراع النساء من أجل الاستقلالية؟

ما زال مُتأبِّطًا ذراعي. قُلتُ له:

- لا بأس.

لم يسمح حتى للسائق بأن يفتح باب سيارة الـ«رانج روفر» السوداء العملاقة، بل فتحه بنفسه. بغض النظر عن هذا، يا لها من تجربةٍ غريبة أن أركب في المقعد الخلفي لـ«رانج روفر» يقودها سائقٌ خاص، لكنني لن أزعج فكري بهذه التفاصيل. لقد اكتشفت للتَّو أن المرأة قد تحتاج لشخصٍ شديد الرجولة كهذا. منذ بضعة سنوات، كنت سأقول إن هذا النوع يُثير اشمئزازي، لكن هأنذا تغمرني رغبةٌ في التمتع بالرائحة الذكورية الطبيعية لهذا الرجل مفتول العضلات بجانبي. أريد أن أغوص بين ذراعيه القويتين، وأن أدفن رأسي في صدره المشعر، وأن أجعله يثيرني بكل حميمية. لا أدري كانت هذا تطورًا أو تخلُّفًا في شخصيتي. وما المشكلة لو كان تخلُّفًا؟ أنا في العمر الذي يسمح لي بفعل ما أريد مع تقبُّل العواقب.

ذهبنا إلى بارٍ يطل على البوسفور.

ساعدني «قسمت» بك على الخروج من السيارة، ثم قال:

- سنشرب قليلًا هنا، ثم سنذهب للعشاء في مكانٍ آخر.

بالطبع لم أتوقع أن يسألني إن كنت متفرغةً أم لا هذا المساء، لكن لا أريده أن يتصور أنني أمضي المساء أشاهد التليفزيون مع «بيلين». لذلك قلت له:

- أحب أن أتناول العشاء معك، لكن لديّ موعدٌ هذا المساء.

- فلتلغيه.

ظللت أصف في رجولته، لكنني لم أقابل شخصًا بهذه الجرأة والعجرفة من قبل. ربما كان هذا جزءًا من سحر رجولته. من الغريب أن جرأته كانت جذابة. لو لم أجده جذابًا، لاقتلعت لسانه «الرجولي» هذا.

قلت له بينما نجلس على إحدى الطاولات المجاورة للماء:

- سأحاول.

أخرجت الموبايل واتصلت بـ«بيلين» وتمتمت ببعض الكلام.

لاحظت تعبير «قسمت» بك عندما أخرجت الموبايل. ربما بسبب موديله القديم. بمجرد أن أنهيت المكالمة، أخذ مني الموبايل وقال:

- ما هذا؟ اختراعٌ من العصر الحجري؟

- هلا أعدته لي، من فضلك؟

قال ضاحكًا:

- أي تليفونٍ هذا؟ أنتيكة؟

قُلتُ وآنا آخذه منه:

- سيصبح كذلك قريبًا.

أغلقت الموبايل ثم وضعته في حقيبتي خوفًا من أن يخطر على بال «سليم» أن يتصل هذا المساء.

ربت على ذراعي بسرورٍ عندما علم أني أريد «ويسكي» بالثلج. قال إن الرجال يحبون النساء اللاتي يشربن الكحول، وأن إيجاد امرأةٍ مثلي صار صعبًا. كل من عرفهن كن يشربن النبيذ الأبيض لأن سعراته الحرارية أقل. والأسوأ أنهن يشربن كأسًا واحدة طوال الأمسية. إنه لم يتبع نظامًا غذائيًّا أبدًا. وهو لا يحب النساء الهزيلات، فهن عظامٌ بلا لحم. بمعنى آخر، هن جلدٌ على عظم. أما أنا فنسيت ما كنت أريد التحدُّث بشأنه.

وصل الـ«ويسكي» الخاص بي أخيرًا. شربت أوَّل شَربة هذا المساء. بدأ حماسي يتحول إلى ملل، ويبدو أنني لن أتحمل هذا الرجل لو ظل ذهني صافيًا. أظن أن أحد إنجازات الحركة النسائية هو مساعدة النساء على تحمل الرجال أمثاله. إن صحبة الرجال الذين يجيدون الأعمال المنزلية أفضل بالتأكيد.

سألته:

- هل تعرف شخصًا يُدعى «عثمان قرقاش»؟

- نعم. لقد تعرض «عثمان» للقتل.

ثم نادى لجرسونٍ فورًا ليحضر له بعض الجبن الأبيض.

قُلتُ:

- إذًا، أنت تعرف أنه قُتِل بالفعل.

- بالطبع أعرف. ذهبت إلى الجنازة بالأمس. أنا وهو ننتمي للبلدة نفسها. كنت في إجازةٍ عندما قُتِل. إنه مكان في منطقة «كيمير» أذهب إليه كل عامٍ. لم أستطع مساعدة العائلة، لكنني حضرت الجنازة.

هزَّ رأسه بوقارٍ وتابع:

- لم يكن الأكبر سنًّا في العائلة، لكنه كان الأكثر حكمة. شابٌ طيب.

ثم عبس، وأضاف:

- لكن ما صلتكِ بـ«عثمان»؟

جعلت سؤالي يبدو عرضيًّا بمهارةٍ تمثيلية مذهلة وأنا أقول:

- هل تعرف مكتب «عثمان»؟

- ذلك الذي في «كوليديبي»؟ ذهبت بضع مرَّات. لماذا؟

- أردت شراء تلك الشقة لأعيش في...

قاطعني:

- لماذا هناك؟ ابحثي عن منطقةٍ محترمة للسكن. سأجد لكِ شقةً في الكومباوند الذي أعيش به. نحن نطل على أفضل المناظر في إسطنبول. وهناك حرَّاس وحمَّام سباحة وملعب تنس، وكل ما تريدين. «كوليديبي» ليست مكانًا مناسبًا للنساء.

- إنها تناسب ميزانيتي. وعلى كل حال، أنا لا أحب الكومباوند.

نظر إليَّ بدهشةٍ وكأنني فضائيةٌ، وقال:

- لديك بعض الميول البوهيمية إذًا؟

- بل كثير منها.

شعرت فجأةً أن سلوكه معي صار باردًا. يبدو أنه يمنع نفسه من طلب الفاتورة والمغادرة.

قال:

- إذًا، الصلة بينكِ وبين «عثمان» هي أنكِ أردتِ تحويل مكتبه إلى شقةٍ لتسكني بها، لكن ما علاقتي أنا؟

- تظن الشرطة أنني قتلت «عثمان».

أدركت فورًا خطأ ما قُلتُه. فلو كان في جنازة «عثمان»، لعرف بالتأكيد من هم الذين تشتبه بهم الشرطة.

- ماذا؟ أنتِ قتلتِ «عثمان»؟ مستحيل. إن عمه الوغد هو من فعلها على الأرجح. هل يعلم إخوته أنكِ من المشتبه بهم؟ مهلًا...

أخرج موبايله فقُلتُ له:

- انتظر! العم هو المشتبه به الرئيسي، أما أنا فالمشتبه به الثاني.

إن كلامي مربكٌ للغاية، وكل ما أقوله يدل على أنني كاذبة.

قال:

- أخبريني بكل شيءٍ من البداية يا صغيرتي. ماذا حدث بالضبط؟

أخبرته بقصة طفاية السجائر. ويبدو من نظرته أنني اكتسبت احترامه. سمعني حتى النهاية دون مقاطعة.

- حسنًا، وماذا تريدين مني؟

- ظننتكَ تعرف شركاء «عثمان» في العمل ومن قد يكون القاتل.

- نعم، فهمتكِ. لكن ما علاقة هذا بكِ؟ لقد تُوفي، ولا يهم من قتله. عيشي حياتكِ. يا إلهي، إن الشرطة لم تقبض عليكِ بتهمة القتل!

قُلتُ بهدوء:

- لكن المشكلة أنني كنت وحدي بالمنزل ساعة حدوث الجريمة. ليس لديَّ دليل براءة. لو اتضح أن العمَّ لم يقتله، فعندها الشرطة سوف...

- دليل براءة؟ لن يتهمكِ أحد.

- لديكِ دليل براءةٍ لتلك الليلة، صحيح؟ أما أنا فلا.

قال بارتباك:

- نعم، كنت في إجازة. بأي حال، لا أحتاج لدليل براءة. ما علاقة هذا بي؟

- ألا تفهم؟ إن لم تتضح الأمور فسنخضع جميعًا للاستجواب. سيسألون أين كنا تلك الليلة.

هزَّ كتفيه بلا مبالاة. لو لم أعرف أن هذا الرجل ممثلٌ، لأقسمت أنه لا علاقة له بما حدث. لكن هل يمكن الثقة بممثل؟

قال بغضب:

- كنت في إجازةٍ يوم الثاني عشر من أغسطس. يمكنهم السؤال عني في القرية السياحية. كنت أصور مسلسلًا مهمًا في الفترة الماضية، لذلك ذهبت إلى هناك للاستجمام. ولم أخرج حتى من القرية السياحية قط.

واصل كلامه:

- لماذا ستستجوبني الشرطة بشأن ذلك أصلًا؟ لأنني كنت أعرف الرجل؟ربما أعرف ملايين الأشخاص في هذا البلد، ما ذنبي إن قُتِل أحدهم؟

- هل تعرف من شركاء «عثمان» في العمل؟

بدأ «قسمت» بك يرتاب في أمري. سألني:

- لماذا تزعجي رأسكِ الجميل بالتفكير في هذا؟ تعالي نذهب لتناول الطعام.

ركبنا سيارة الـ«رانج روفر» في موكبٍ فخم، حيث اصطف الجرسونات بالخارج ليودعونا، أو بالأحرى ليودعوه هو. بدا واضحًا أننا لن نفتح موضوع «عثمان» مجددًا هذا المساء، وأنني لن أستفيد شيئًا من العشاء معه. أفضل ما يمكنني فعله هو ركوب أوَّل تاكسي حتى مكان سيارتي، ثم أعود للبيت قبل أن نبتعد أكثر عن مكان ركنها، وقبل أن يتأخر الوقت. هذا لو فكرت بالمنطق. أكاد أسمع صوت «سليم» يقول الكلام نفسه.

لكن هناك رغبةً تحثني على الذهاب لتناول العشاء مع هذا الرجل. عندما أحتار بين خيارين أحدهما حكيم والآخر ليس كذلك، لا أختار أبدًا الخيار الحكيم.

وهذا ما حدث هذه المرَّة أيضًا.

شققنا طريقنا ببطءٍ وسط زحام إسطنبول الفظيع متوجهين إلى «أورتاكوي». إن المقعد الخلفي للـ«رانج روفر» ضيق، لذلك كانت أرجلنا متلامسة.

قال «قسمت»:

- يجب أن لا ترانا الصحافة معًا.

- ماذا تعني؟

- سينتظرون أمام المطعم الآن. لماذا لا تنزلين هنا وتركبين تاكسي لباقي الطريق؟

- تاكسي؟ إن المطعم في آخر الشارع، أليس كذلك؟

قال ضاحكًا:

- هل ستسيرين إذًا؟

- بالطبع سأسير.

إن الرياضة الوحيدة التي أمارسها هي المشي. والآن بعدما قللت من استخدامي لسيارتي، أصبحت أسير بقدر المستطاع في شوارع إسطنبول. على الفرد أن يحاول تغيير أسلوب حياته مع تقدمه في العمر.

قال بنبرةٍ تدل على عدم إعجابه بالفكرة:

- كما تريدين.

ذهبنا إلى مطعمٍ إيطالي. هناك حشدٌ من الصحفيين خارج المطعم بانتظار أي شخصٍ يستحق التصوير. لم يهتموا، بي وأنا أمر وسطهم.

قُلتُ للجرسون الذي اعترض طريقي:

- جئتُ لمقابلة «قسمت» بك.

تراجع فورًا إلى الداخل، ثم عاد وقال:

- تفضلي يا سيدتي، من هنا.

ظل «قسمت» بك يوجه لي الأسئلة أثناء تناول الطعام. وعندما وصل الطبق الرئيسي، شعرت بأنني أخبرته بكل أسرار حياتي. إما أن السبب هو براعة الممثلين في جعل الناس ينفتحون معهم، أو أنني أسرفت في الشرب. لا أعرف، ولا تسمح حالتي بأن أعرف.

عندما وصلنا لطبق الحلو - أو عندما طلبه للتَّو - وضع يده فجأةً على ساقي. أظنني نسيت إخباركم بأني أرتدي جيبة عصرية خفيفة، يمتد طرفها بشكلٍ مائل من إحدى ركبتيَّ إلى منتصف الفخذ في الساق الأخرى. كانت يده على ساقي من الناحية القصيرة للجيبة. نظر إليَّ نظرةً جانبية ليرى ردة فعلي قبل أن يحرك يده للأعلى نحو فخذي. بأي حال، هناك كثير من المواقف التي تحتاج إلى التفكير بالفعل، لماذا إذًا نفسد الأمور على أنفسنا باستخدام العقل لمحاربة الرغبة؟ يجب استخدام العقل في الشؤون الزوجية أو العلاقات. العلاقات!

«سليم»! إنه سيد المنطق بلا منازع!

التفكير في «سليم» جعلني أحمرُّ خجلًا فجأة. أو لم أفعل، لكنني أتوهم. أشعر بحرارتي ترتفع.

أيًا كان ما أشعر به من ظروفٍ أو انفعالات أو رغبات، لن أسمح لنفسي بالاستسلام لما يغلي بداخلي. قد لا يكون مستقبلي مضمونًا، لكنني ما زلت مرتبطة. أحتاج لعلاقةٍ واحدة في حياتي. أريد الذهاب لتناول الطعام مع حبيبي وأصحابه وزوجاتهم. أحب أن يرافقني حبيبي إلى «الاستراحة»، وعندما أقول «استراحة» أعني بذلك الحمَّام.

يا لسخرية القدر! امرأةٌ تجلس بجانب رجلٍ يضع يده على ساقها هي نفسها المرأة التي تناولت العشاء مع زوجات مُحامين راقيات.

ليت أحدهم يظهر ويقرأ لي الطالع في التاروت، لكي أعرف ماذا سيحدث الليلة لو لم أبعد يده أو أجذب ساقي فورًا.

لكن هذا يتطلب الإيمان بالتاروت أولًا، صحيح؟

وبعيدًا عن هذه الليلة، ماذا عن الغد؟ هل سأتناول الفطور مع هذا الرجل؟ أم سأحاول الخروج قبل أن يستيقظ؟ أو قبل الفجر؟ كيف سيكون شعوري؟

هل زعمت للتَّو أنه لا داعي للتفكير؟ سامحوني. إنها عادةٌ قديمة.. مبدأٌ ظل معي منذ الفترة التي قضيتها بلا علاقاتٍ مستقرة. كما ترون، إن حياتي تتأرجح الآن بين المغامرات الطائشة والأمسيات المتحضرة مع سادةٍ محترمين وزوجاتهم.

لا أريد إثارة مللكم بمخاوفي بشأن فقدان هويتي لصالح قيم الطبقة المتوسطة، لكن لا يمكنك أن تعيش حياةً مزدوجةً مثلي دون الخوف من فقدان شيءٍ ما. لكن الأمر يستحق المحاولة للحصول على كل شيء!

أتمنى أن يكون شرحي كافيًا لتفهموا ظروفي.

بأي حال، العقل يفكر، سواء أحببنا ذلك أم لا، وسواء استدعت الضرورة أم لا. إنه يعمل بلا توقف. ليس الجميع على هذا الحال بالطبع، لكنني كذلك.

إذًا، ما هو الموقف الآن؟ لنراجع ما يحدث معًا أيها القارئ:

1) أنا امرأةٌ مرتبطة.

2) سئمت من حياتي.

3) نزوةٌ واحدة لن تضر.

بدأت أربت على يده التي على ساقي.

لا تسيئوا فهمي. ما زلنا نجلس على هذه الكراسي غير المريحة، وهناك جرسونات وزبائن يتحركون حولنا، كما أن الرجل الذي معي مشهورٌ جدًّا ويسهل التعرف عليه.

أما أنا فتغمرني الإثارة.

تمتمتُ له بهمسٍ مُثير وكأنني أداعب أذنه بهذه الكلمات السخيفة:

- لنغادر المكان.

أجابني بهمسٍ مماثل وأنفاسه تلامس عنقي فتثيره بهذه الكلمات السخيفة:

- لا يمكننا المغادرة معًا.

لم أسمع ما قاله بسبب الهمس والإثارة، فسألت:

- ماذا؟

- الصحافة تحتشد بالخارج. لا يمكننا الخروج وركوب السيارة نفسها معًا.

من الواضح أن قضاء ليلةٍ عاطفية مع أحد المشاهير لها مشاكلها.

لو لم أسأم من حياتي لما تحملت كل هذا على أغلب الظن.

لكن لِمَ لا؟

قال:

- اسبقيني واركبي تاكسي إلى منزلي.

قُلتُ بلطفٍ لا يناسبني أبدًا:

- حسنًا.

خسارة أن الأمر لا يحدث كما في الأفلام، عندما يذهب البطلان إلى الحمَّام بفارق دقيقةٍ، ثم يعودان بفارق دقيقة. لم أفهم أبدًا كيف يمارس البشر الحب في الحمَّام! إنه ليس نظيفًا. ولا داعي لأن تكون مهووسًا بالنظافة لتدرك ذلك. ما الوضع الأمثل لممارسة الحب في الحمَّام؟ أستطيع التفكير في خيارات عديدة، وكلها غير مريحةٍ ولا تطاق. لا أفهم كيف يتحمل الناس القيام بهذه الحركات البهلوانية. كيف تستطيع المرأة لف ساقيها ورفعهما في هذا الوضع المعقد؟ ولماذا؟ في حين أن هناك أوضاعًا متحضرة يمكن اتخذاها في السرير أو على الأريكة أو طاولة المطبخ أو سجادة الصالة؟!

لا يثيرني مطلقًا الخوف من أن ينكشف أمري أو أن أجد شخصًا على باب الحمَّام يريد الدخول بشدَّةٍ ونحن بالداخل. لو أن الشعور بالإثارة يتطلب كل هذا الجهد، فمن الأفضل أن لا أمارس الحب معه مُطلقًا.

لهذا السبب فكرت أنه من الأفضل لنا الخروج منفصلين بدلًا من أن نذهب للحمَّام خلف بعضنا.

وبصراحة، لم أفكر في شيءٍ سوى تلك اليد على ساقي إلى أن ركبت التاكسي.

أتمنى أن لا أزعجكم بقراراتي المتغيرة باستمرار. ليتني أستطيع إمتاعكم - أيها القراء - بوصف ممارسة حبٍ جامحة استمرت حتى الصباح. فهذا الرجل يستطيع حتمًا إثارة النساء، أو على الأقل استطاع إثارتي أنا.

لكن عليَّ الاعتراف أنه بمجرد أن ركبت التاكسي بمفردي، تغيرت نظرتي للأمسية بكاملها.

الجلوس في المقعد الخلفي للتاكسي أعطاني فرصة لأفكر وأقرر إن كنت أريد عبور البوسفور والبحث عن العنوان الذي أمسكه بيدي، ثم دخول شقةٍ غريبة وقضاء الليلة مع رجلٍ بالكاد أعرفه، حتى إنني شككت في كونه القاتل منذ بضع ساعات. بالإضافة إلى أنني لم أعد أشعر بالإثارة. فكرت بالعقل والمنطق. باختصار، تركزت أفكاري كلها على «سليم».

إن ليالي الحب التي سأحصل عليها في هذا العمر يجب أن لا تكون نزوةً عابرة.

ليس هكذا على الإطلاق.

قُلتُ للسائق:

- غيَّرت رأيي بشأن عبور البوسفور. خذني إلى «مجيدية كوي».

خرجتُ من التاكسي ووقفتُ في الشارع، ثم أشعلتُ سيجارة. كان الشارع خاليًا إلا من بعض السيارات العابرة. نظرتُ إلى ساعتي فوجدتها الثانية عشرة وعشرين دقيقة. فتحتُ الموبايل واتصلتُ بـ«سليم».

سألني:

- هل أنتِ سكرانة؟

- وماذا لو كنت كذلك؟

- يا إلهي، لا تقودي بهذه الحالة. سآتي وأحضركِ.

- لن أقود بالطبع. ماذا تظنني؟ تركية؟ سأركب تاكسي وآتي إليك.

- أعرف أنكِ لن تفعلي هذا، لأنكِ لن تهدري المال على تاكسي.

- لا تكن سخيفًا. ماذا تظنني؟ ألمانية؟

قال حبيبي الذي جعل اسمي - «كاتي» - كلمة السر لإيميله:

- أظنني أفتقدكِ.

- تظن فقط؟

(8)

شعرتُ بذراعي ترتطم فجأةً بشخصٍ ما، فنهضت مفزوعةً واهتزَّت المرتبة بجنونٍ من تحتي. في البداية ظننته زلزالًا، ففتحت عينيَّ ونظرت حولي باحثةً عن مكتبٍ أختبئ تحته. لكن لم أجد أي شيء. لماذا سيوجد مكتبٌ في غرفة نوم؟ نعم، أنا في غرفة نوم. إنها ليست غرفتي، لكنني تعرفتُ عليها. شعرتُ بالألم في رأسي وأكتافي. لم أعرف أين أنا إلا حين رأيت الشخص الذي صدمته بذراعي. عندما رأيتُ صلعة «سليم» تذكرت أحداثًا مشوشة من ليلة أمس. عندما وصلتُ لم أكن قادرةً على الوقوف معتدلة، وبكيت بينما أبرر موقفي. على الأرجح قُلتُ كلامًا مشينًا.. كلامًا لا يقوله شخصٌ واعٍ. تثاءبت بقوةٍ وارتطمت برأسه مجددًا. كيف لم يستيقظ بعد؟ إنه السبت بالطبع. هذا لا يشكل فارقًا معي، فمسؤولياتي لا تتوقف في العطلة الأسبوعية. لديَّ جريمة قتلٍ أريد حلها. أريد فقط معرفة كم الساعة الآن!

اتَّكأتُ على كوعي، ونهضتُ لأنظر إلى الساعة المجاورة لـ«سليم»، فاهتزَّ السرير مجددًا. إنها الثامنة وأربعٍ وثلاثون دقيقة. يا له من وقتٍ سخيف للاستيقاظ صباح السبت. تثاءبت بقوةٍ ثانيةً ولم أغط فمي. هَل أنهض وأعد الإفطار لنا؟ أم هل أستحمُّ؟ الاستحمام لن يساعدني، فدائمًا أشعر بالإرهاق الشديد بعد الإسراف في الشرب. أكون في حالةٍ مُريعة.

نهضتُ من على السرير وما زال «سليم» نائمًا بعمق. دخلتُ المطبخ وأضفتُ فوارًا مسكنًا للألم في كوب ماء. كان مذاقه مُقرفًا. شغلت الغلاية وجلست بانتظار الماء لكي أعد القهوة. عندما غلى الماء أدركتُ أنه لا توجد قهوةٌ بالمنزل. ربما هذا نوعٌ من التدخل الإلهي. إنه تحذيرٌ يقول: «لا تنسي الترهلات، حتى لو كانت القهوة هي كل ما تحتاجين إليه الآن». هكذا شعرتُ وقتها. كنت أستطيع أن أطلب قهوةً من البقال القريب أو أن أحضِّر شايًا بدلًا منها.

دخلتُ الحمَّام لأستحمَّ. لم أستطع الوقوف طويلًا لأخذ دُشّ، لذلك قرَّرتُ أن أملأ البانيو. وجدتُ على الرَّف سائل رغاوي برائحة التوت. أليس غريبًا أن يستخدم حبيبي منتجاتٍ برائحة الفواكه؟ عادةً يستخدم الرجال عطورًا نفاذةً جدًّا تحرق البشرة. فتحتُ الحنفية ووضعتُ كثيرًا من رغوة التوت في الماء، ثم أغلقت غطاء الحمَّام وجلستُ عليه بانتظار امتلاء البانيو، وما زلتُ أتثاءب. شعرتُ بالبؤس، فكل ما يحدث يفوق طاقتي. وفجأة بدأتُ أصرخ وكأن الباب انغلق على إصبعي.

ظللت أتلوى كالدودة، بينما أصرخ، ثم سقطتُ عن الحمَّام. آلمتني ساقي فاشتد صراخي. رحتُ ألهث وأصرخ وأزحف على الأرض حتى بكيتُ بحرقة. مستحيل أن يظل «سليم» نائمًا وسط كل هذا الصخب. ظللتُ أبكي.

ليس جيِّدًا أن ترهق عضلات وجهك كثيرًا أثناء البكاء أو الضحك، فهذا يسبب تجاعيد مبكرة، لكنني فكرتُ في ذلك بعدما توقفتُ عن البكاء العنيف. يحتاج الناس للبكاء أحيانًا، وكذلك للضحك.

خرجتُ من الحمَّام، واتصلتُ بوالدتي. قُلتُ:

- أنا أشيخ.

سألتني:

- هل تنامين جيدًا؟

- ليس حقًّا، لكن لا أعاني من الأرق.

- هل تتناولين الخضار؟

- إممم...

أنا أعيش على ساندويتشات الجبن بالخبز المحمص معظم الوقت، وأحيانًا أتناول زبادي بالشوفان.. مرَّة كل بضعة أشهر.

سألتني:

- هل تتمرنين؟

- لا.

- إذًا ستشيخين بالطبع.

أليست الأمهات رهيبات؟ أنا سعيدة لأنني لستُ أُمًّا. لا تنهي أي أُمٍّ كلامها بسؤال «كم عمركِ أصلًا؟! لماذا تظنِّين أنكِ تشيخين؟». بل إنهن يستجوبننا ويصلن لاستنتاجاتٍ غريبة من إجاباتنا.

قالت أمي:

- ستشعرين بمعنى التقدم في العمر عندما تصلين لسن اليأس.

نعم، إن أمي التي ولدتني قالت ذلك. تبدو من كلامها أنها عدوتي، أليس كذلك؟

قُلتُ لها:

- إن سن اليأس لا تبدأ في هذا العمر يا أمي.

- بلى، هذا يحدث في عائلتنا. بقي لكِ عامٌ أو اثنان.

سألتها أملًا في تغيير الموضوع:

- كيف حالكِ مع التهاب المفاصل؟

نجحت الحيلة. ظلت خمس دقائق تحكي لي عن طعامها في دار المسنين الألمانية في «مايوركا»، وعن السيدة «هيليرسدورف» - صديقتها هناك - التي سقطت عن السرير وكسرت رجلها، وعن

الجو الجميل. يجب أن أعدها بزيارتها في أكتوبر المقبل، وإلا ستخاطر بالقدوم إلى إسطنبول لرؤيتي. أمي لا تحب إسطنبول. إنها تتعجب من أن يعيش فيها أي شخصٍ - بمن فيهم أنا - ما لم يكن مضطرًا لذلك. فالشوارع مزدحمةٌ جدًّا، والناس ودودون للغاية. إنها تكره التصرف بودٍ مع أشخاصٍ تقابلهم لأول مرَّة، وتشتكي دائمًا. تشتكي من الرجال الأتراك الذين يبصقون في الشوارع، ومن صناديق القمامة، ومن الحيوانات الضالة. لقد جعلت حياتي بائسة.

لم أُرِد ارتداء البلوزة والجيبة اللتين لبستهما أمس، لذلك دخلت غرفة النوم لأبحث عن بعض الثياب التي ربما أكون قد تركتها عند «سليم» من قبل. ما زال نائمًا.

إنه ينام بعمق ولا يشعر بما حوله. ربما أغلقت الدولاب بصوتٍ عالٍ قليلًا، لأنه تقلب واستدار. وأخيرًا استيقظ، بينما أغلق درج الكومودينو. انحنيتُ بجانبه كعربون سلامٍ ومحبة، فتحسَّس شعري، وقال:

- هذا اللون جميل.

- كنتُ سكرى جدًّا بالأمس.

- لاحظتُ ذلك!

- ما الذي قُلتُه لك؟

- تحدَّثتِ عن رجلين؛ «عثمان» و«قسمت». من الواضح أن أحدهما قُتِل. هل كنت تقرئين الروايات البوليسية التركية مجددًا؟

يا له من رجلٍ لطيف. دفنتُ رأسي في كتفه التي تريحني تمامًا، ثم وضعتُ يدي على أردافه وأنا أسأله:

- ماذا فعلت في غيابي؟

- كذبت على الجميع وأخبرتهم أنكِ مسافرةٌ في إجازة، لكنني خشيت أن تقابلي أحدهم صدفة.

- وكيف قضيت وقتك؟

- شاهدت التليفزيون وقرأت أحد الكتب التي تركتها هنا.

هل حبيبي - الذي ينفر من الروايات الأدبية - كان يقرأ إحدى رواياتي في غيابي؟

- أي واحدة؟

- إنه كتابٌ بالألمانية اسمه «ماجيك هوفمان». عليكِ بقراءته. وأنتِ، ماذا كنتِ تفعلين؟

- سأخبركِ لاحقًا. عليَّ مقابلة «يلماز» كما تعلم. فأنا لم أذهب الأسبوع الماضي.

- ماذا؟ هل ستغادرين الآن؟

قبَّلتُ أذنه، وقُلتُ:

- حصلت «لالي» على وظيفةٍ في شركة دعاية.

- هل سنرى بعضنا هذا المساء؟

- سأتصل بك. وموبايلي مفتوح، يمكنكِ الاتصال بي أيضًا. ولعلمك، إن «بيلين» تقيم معي.

ركبت تاكسي من بيت «سليم» حتى حي «مجيدية كوي». فأخذت سيارتي من هناك وركنتها أمام المبنى الذي أسكن به. من السهل إيجاد مكانٍ للركن بالنهار في الإجازات. أردت الغناء بأعلى صوتي والرقص مع البقال. ليتني أجيد الرقص الشرقي أو الطبل. دوم دوم ترارام!

ضربت الجرس العام للمبنى، فأطلت «بيلين» من النافذة وصاحت:

- هل نسيتِ مفتاحكِ؟

- لا. سأذهب لمقابلة «يلماز» في المقهى في منطقة «فيروز أغا». هل تريدين القدوم؟

عبس وجهها، فهي لا تطيق «يلماز»، لكنها لا تريد الرفض مباشرةً من باب التهذيب. لذلك قالت:

- لديَّ ما أفعله في المنزل.

اتصلت بـ«باتوهان» بعدما تركني «يلماز» ليشاهد فيلمًا جديدًا في السينما.

قال لي:

- وجدنا العمَّ. لقد سافر إلى قريته. وجدنا معه كل المال. يبدو أنه لم يجد مكانًا أفضل من قريته لإخفائه. سنعيده إلى إسطنبول اليوم. وهكذا أغُلِقت القضية على ما أظن.

- مباركٌ لنا. يبدو أن الأفراح تأتي مجتمعةً أحيانًا كالمصائب.

- لنشرب نخب ذلك.

- في رأيي، يجب ألَّا نتسرع في الاحتفال. فالأمر يبدو بسيطًا جدًّا في نظري.

- ليس ذنبي أن الجرائم الواقعية ليست معقدة كما في الروايات. لهذا فالعمل في المباحث الجنائية ليس مُثيرًا.

- نعم، لكنني توقعت أن أجد لغزًا محيرًا. هل عرفت من قتل السيدة العجوز؟

- هل تظنِّين أن الجريمتين متصلتان؟

- لماذا لا نتقابل في «كوليديبي»؟ أريد أن أريك شيئًا.

لا أريد التورط في جريمة إخفاء معلوماتٍ عن الشرطة. أعرف واجباتي بصفتي مواطنة. مواطنة في غاية السعادة.

- لا أستطيع. لقد خرج زملائي من السيارة للتَّو وذهبوا ليحضروا العم. يمكننا اللقاء غدًا الساعة الثانية عشرة في حديقة الشاي.

جاء الأحد، وقابلت «باتوهان»، وجلست معه في حديقة الشاي في «كوليديبي». لم يكن الجو دافئًا كفايةً للجلوس في الهواء الطلق حسب المعايير التركية.

قال «باتوهان»:

- يقول العم إن لديهم ثأرًا مع العشيرة المجاورة لهم، لذلك من المؤكد أن أحدهم هو الجاني.

علقت:

- من الغريب أن الإخوة لم يقولوا شيئًا عن هذا الثأر.

- نعم، أتساءل لماذا لم يخبرونا بشأنه! لكن بما أن أحدًا لم يُقتل من الطرفين منذ ثلاثين عامًا، فقد ظنوا حتمًا أن الثأر قد انتهى.

- وهل ينتهي الثأر أبدًا؟

قال «باتوهان»:

- بالطبع، إن تصافوا.

- عليهم بفعل ذلك في هذا الزمن. لا أعرف ما الطقوس المطلوبة، لكن... قرأت تقريرًا كتبه والدي عن الثأر بين المهاجرين الأتراك في ألمانيا.

- والدكِ؟

- نعم، كان مُحاميًا جنائيًّا. طلبوه كثيرًا ليكون شاهدًا خبيرًا لأنه عاش في تركيا لفترةٍ طويلة ويجيد لغتها.

نظر لي «باتوهان» بفضولٍ وهو يُومئ برأسه في فهم.

واصلت:

- عرفت من ذلك التقرير أن العقوبة المخففة تُطبق على جرائم الثأر في تركيا. يعني أن ترتكب جريمة قتلٍ مع سبق الإصرار والترصد، لكنهم يخففون عقوبتك.

- ماذا قال والدكِ في تقريره؟

- أراد تخفيف العقوبة على جرائم الثأر في ألمانيا أيضًا!

وضع «باتوهان» يده على فمه وانفجر ضاحكًا وهو يقول:

- إذًا، لو قتلت أحدًا في ألمانيا، سأحصل على عقوبةٍ مخففة أيضًا؟

- لا أعرف إن كانت الحالة عامة، لكن القاضي خفَّف العقوبة في القضية التي تولاها أبي.

- تعرفين أنهم يحرِّضون أبناءهم على الثأر لأن العقوبة مُخفَّفة.

سألته:

- كيف يبدأ الثأر؟

- يمكن أن يبدأ بأي نزاع. على حدود الأرض مثلًا. يحتل أحدهم أرض آخر، فيقتله المالك. عندها يقوم أفراد عائلة القتيل بقتل أفرادٍ من عائلة القاتل، وتدور الدائرة.

- وينتهي الثأر عندما لا يبقى أحدٌ لقتله؟

- هناك دومًا من يمكن قتله. إنهم يُخبؤون أطفالهم في المدن الكبيرة ليكونوا بأمان. عندما يأتي دور القتل على أحدهم يهرب، فيطارده الطرف الآخر.

- إذًا، هل كان الدور على عائلة «عثمان» ليتم قتل أحدهم؟

- لهذا السبب جاءوا إلى إسطنبول أساسًا.

- وهل ظلت العائلة الأخرى في «وان»؟

- لقد هاجروا إلى أماكن كثيرة، واستقر بعضهم في مدينة «أضنة»، أمَّا الباقي ظلوا في «وان».

- وماذا ستفعلون؟

- سنستجوب العمَّ وإخوة «عثمان».

- أليس غريبًا أن سلاح الجريمة مسدسٌ دوَّار؟

ضاقت عيناه وهو يسألني:

- مسدسٌ دوَّار؟ كيف عرفتِ؟

- أنت أخبرتني.

- أنا؟ لا أذكر مُطلقًا. فليكن، ماذا عن المسدس الدوَّار؟

- هل تظن أن عم «عثمان» أو المنتقم سيستخدمان مسدسًا دوَّارًا؟

بحث في جيوب الجاكت عن علبة سجائره. ثم سقطت صورة على الطاولة، بينما يخرج العلبة من جيبه.

مرَّر الصورة لي، وقال:

- هذا هو العمُّ.

إنه أسمرٌ وطويل ونحيف ووجهه هزيل، له شاربٌ وعينان واسعتان. بالنسبة للألمان، هذا هو الشكل التقليدي للرجل التركي. أعدتُ الصورة لـ«باتوهان» الذي قال:

- لقد تساءلت أنا أيضًا إن كان هؤلاء الناس يستخدمون المسدسات الدوَّارة.

ثم ضاقت عيناه مجددًا وهو يسألني:

- ماذا تعرفين عن الأسلحة؟

- لا أعرف شيئًا، لكنني أعرف المسدس الدوَّار. إنها مسدساتٌ غالية وتحتاج لخبير، كما أنه من الصعب الحصول على رصاصاتها. هذا المسدس بعيدٌ عن منال أي صعلوكٍ مثل ذلك العمِّ البائس.

- أنتِ مُحقَّةٌ تمامًا، لكن إلاما يوصلنا هذا الكلام؟

- إلى السيدة العجوز.

- السيدة العجوز التي تعرضت للطعن؟

- هناك حتمًا صلة بين هاتين الجريمتين. تلك المرأة اعتادت الجلوس عند النافذة لتشاهد الشارع. إن وقعت الجريمة قبل حلول الظلام - في السابعة والنصف، أو الثامنة مساءً - فمن المرجَّح أنها رأت القاتل. لا بُدَّ أنه أدرك أن السيدة رأته يغادر المبنى، فقتلها عندما سمحت الفرصة. لقد كانت شاهدةً أساسية. هل فهمت؟

جلس يفكر بينما يعبث بولاعته لبعض الوقت، ثم قال:

- خيالكِ واسع.

منعت نفسي من الرد عليه. ماذا أقول لرجل شرطةٍ يرفض التعمق في القضية لأنه يريد أن يغلقها وينتهي؟

قُلتُ له:

- سأريك إن شئت. اعتادت المرأة المسنة أن تجلس على الأريكة المجاورة للنافذة. ويمكن رؤية سلالم المبنى المقابل من تلك الزاوية. ربما رأت المرأة القاتل.

- حسنًا، لكنه بالتأكيد لم يكتب على جبينه أنه القاتل. كيف ستعرف العجوز إن كان هو - أو هي - القاتل؟

- هي؟ لماذا قُلت «هي»؟

أدركت فجأةً أنني ركزتُ كثيرًا على كون القاتل رجلًا فقط.

- مجرد قولٍ مجازي. النساء يستطعن القتل أيضًا. أم أن كل القتلة رجالٌ في الروايات؟

لا، إنه يحاول تشتيتي فقط. لا بُدَّ أنه يظن أن القاتل قد يكون امرأة.

تحدث «باتوهان» في الموبايل، ثم قال إن عليه الذهاب فورًا، فتركني وحدي أتساءل عن خطوتي التالية.

التجول بالسيارة ليس أفضل وسيلةٍ لقضاء يوم الأحد في إسطنبول. في الواقع، القيادة ليست مناسبة في أي وقتٍ في إسطنبول، إلا إذا كنت مضطرًا.

سرتُ حتى الشارع الذي شهد الجريمتين. تختلف «كوليديبي» كثيرًا أيام الأحد. يسودها السكون مثل كل المناطق التي تتكون أساسًا من المكاتب. ليت كل يومٍ يكون يوم أحدٍ في «كوليديبي».

ذهبت إلى مدخل البناية التي تضم مكتب «عثمان». كان الباب الرئيسي مفتوحًا. ترددت قليلًا في الطابق الأول أمام شقة «يوجل» بك، ثم ضغطتُ الجرس. لم يرد أحد، فصعدتُ للطابق الثاني.

وجدتُ تحذيرًا كبيرًا أصفر اللون ملصقًا على باب مكتب «عثمان». كان المكان مُشمَّعًا بالشمع الأحمر. خفت من لمسه، لأنني فكرتُ في تحليل الحمض النووي وبصمات الأصابع وهكذا. كل شيءٍ ممكن. جلست على السلم واتصلت بـ«سليم» وسألته:

- ماذا سيحدث لو كسرت الشمع الذي وضعته الشرطة على بابٍ ودخلتُ؟

- هل جننتِ؟ أين أنت؟

- ما عقوبة كسر شمع الشرطة الأحمر؟

- «كاتي»!

كان يتحدَّث كأبٍ يُؤنِّب ابنته. قُلتُ له:

- لا أنوي فعل ذلك، بل أسأل وحسب.

سمعته يسأل شخصًا بجانبه: «ما عقوبة كسر شمع الشرطة؟ لا تنسَ أنني مَحامٍ تجاري. كيف سأعرف عقوبة كسر شمع الشرطة؟ لا! نعم، بلا سوابق. حسنًا، في صحتك». سألته:

- ما هي؟

- العقوبة خفيفة، من شهرٍ لثلاثة أشهر. ويمكن بالطبع الخروج بكفالةٍ تبدأ من سبعة ملايين ليرةٍ عن كل يومٍ في العقوبة. فلتكسري الشمع كما يحلو لكِ، فهناك مُحامٍ مستعد وبانتظاركِ. إنه يجلس بجانبي.

إنه يظنني أمزح. سألته:

- أين أنت؟

- في المكتب. لديَّ جلستا استماعٍ غدًا، لذلك أعمل عليهما الآن. يمكنكِ القدوم ثم نغادر معًا.

عادت علاقتنا كما كانت وبالوتيرة نفسها. يكتسب الناس بعض التصرفات التلقائية التي لا تتغير أبدًا، إلا إذا حدثت كارثةٌ رهيبة. أظنني مُحقَّةً في هذا الشأن.

قُلتُ له:

- سأتصل بكِ في الطريق. سأتجول قليلًا في «كوليديبي» أولًا.

- أنتِ لن تلمسي هذا الشمع، صحيح؟ كنت أمزح فقط.

- لن ألمسه. بأي حال، ما جدوى كسره إن لم أعرف كيف أفتح الباب؟

هناك من يفتح الأبواب بأشياءَ مثل مشبك الشعر. هذا يحدث في الواقع أيضًا، وليس فقط في الأفلام والروايات. ليتني مثلهم. فلو كنت كذلك، لما ترددتُ بسبب الكفالة التي تبلغ سبعة ملايين ليرةٍ عن كل يوم عقوبة.

أريد رؤية ما بداخل المكتب فقط، فهذا بالتأكيد سيلهمني بهوية القاتل.

جلستُ على السلم الرخامي وأشعلتُ سيجارةً بينما أفكر، ثم أرحتُ ذقني على يدي بانتظار الإلهام كما يفعل الشعراء. ظننته سينزل إن جلست في مكانٍ لم أجلس به من قبل، على باب شقةٍ أردتها سابقًا.

الإلهام الذي جاءني لم يكن نافعًا في معرفة هوية القاتل، لكنه أوحى إليَّ بقصيدة:

«مثل الروليت الروسي رصاصةٌ تسعة ملِّي من مسدسٍ دوَّار انطلقتْ وشريانًا في الساق اخترقتْ بشريانٍ ممزقٍ نزفتَ ونحو الباب زحفتَ فأثرًا بالدماء تركتَ في الممر الطويل ارتفع العويل وتصاعد نداؤك بلا مجيبٍ لك».

انتبهت لكيلا أرمي عقب السيجارة إلا بعد أن أنزل إلى الشارع. الحذر واجبٌ دائمًا.

ركنتُ سيارتي في شارعٍ بالقرب من معبد «واحة السلام». حتى في «كوليديبي» لا توجد مشكلة في الركن يوم الأحد. سرتُ إلى المعبد وأنا ألعب بمفاتيح السيارة. كنت واثقةً من أني لو تحدَّثت مع عائلة السيدة المسنة فسأحصل على معلومةٍ يمكنني الانطلاق منها. هذا ما أتمناه على الأقل، لكنني

لا أنوي الذهاب إلى ذلك القبو مجددًا من دون سببٍ مقنع. لو كنت محققةً خاصة، لأخبرتهم بأنني أمتلك سببًا رسميًّا لتوجيه الأسئلة، لكن ليس لديَّ ضباط شرطةٍ تحت إمرتي، ولا معامل جنائية تمدني بالمعلومات، ولا شهود لأستجوبهم. أنا وحدي.

تنهدت بغيظٍ وشغلت المحرك.

لا تبدو الاحتمالات مبشرة.

ليست كذلك مُطلقًا.

القاتل هو العمُّ.

أو منتقمٌ لأجل الثأر.

لا صلة بين مقتل العجوز ومقتل «عثمان».

لا أصدق ذلك.

لكنها الحقيقة.

ماذا إذًا؟

لماذا أهتم؟

لست محققةً خاصة.

أنا نكرة.

لا! الأمر ليس بهذا السوء!

أنا امرأة تبيع الروايات البوليسية.

عليَّ الاهتمام بحياتي.

إذًا، ماذا عن موضوع شراء الشقة؟

أطفأتُ المحرك واتصلتُ بـ«قاسم» بك.

قال لي:

- كنت على وشك الاتصال بكِ. مبارك. كانت الجلسة يوم الجمعة الماضي. لقد «كسر القاضي سن قلمه».

- «كسر القاضي سن قلمه»؟ ألا يُستخدم هذا التعبير عندما يصدر القاضي حكمًا بالإعدام؟ ألم يتم إلغاء عقوبة الإعدام؟ على كل حال، من كان المشتبه به؟

- لا، قصدتُ أن الأمور سارت على ما يُرام. هذا هو المقصود بمَثَل «كسر سن قلمه».

لا أنوي أبدًا تعليم «قاسم» بك أصول استخدام الأمثال التركية. سألته:

- كيف وصل لهذا القرار؟

- بما أنه لا يوجد ورثة، تقرر أن تؤول الملكية لوزارة المالية. الكرة في ملعبي الآن. سأسَرِّع الأمر وأعرض الشقة للبيع فورًا. اجمعي مالكِ وسأبلغكِ بتاريخ المزاد.

افرحي، بقي زميلٌ واحد فقط سأتحدَّث إليه.

إنه يريد مالًا مجددًا. عشت هنا بما فيه الكفاية لأفهم التلميحات التركية.

سألته:

- كم تريد؟

- ماذا؟

- كم من المال تريد؟

- إنه لصديقي وليس لي.

- حسنًا، كم يريد صديقك؟

- دعينا لا نناقش هذا على التليفون. سأتصل بكِ ونحدد مكانًا للقاء.

- رنَّ عليَّ وسأتصل بك.

هذا الرجل يثير اشمئزازي. لست واثقةً أبدًا من أن إخوة «عثمان» سيسمحون لي بأخذ الشقة. لكن لا داعي للتشاؤم. هناك شيءٌ واحد يسير على ما يرام ويستحق العيش لأجله؛ حياتي العاطفية.

- لا بُدَّ أنكِ تمزحين يا قطتي.

لا أحد غير «سليم» يناديني بـ«قطتي».

قُلتُ بملل:

- لا، لا أمزح. بأي حال، لماذا سأمزح بشأن شيءٍ غريبٍ كهذا؟

- عندما قُلتُ «لا بد أنكِ تمزحين» قصدتُ تعبيرًا مجازيًّا. أعلم أنكِ لن تمزحي في أمرٍ كهذا. لا تقلقي.

لا أعرف لماذا يحدثني الجميع فجأةً بالتعبيرات المجازية.

- لقد رشوت «قاسم» بك لكي يجد لي شقة. إنه يعمل في قسم الإدارة بهيئة الإسكان.

- لا يعقل أنكِ رشوت أحدهم، هذا... لا، لا أصدق.

- لمَ لا؟ أنت ترشي الموظفين في وزارة العدل.

- ليست رشوةً، بل بقشيش يا قطتي. مثلما تعطين إكراميةً للجرسون عندما يخدمكِ في المطعم. إنه الشيء نفسه.

- هراء، أنت تعطى رِشى دائمًا.

- أعطي مالًا للناس إن قاموا بما يفوق عملهم المعتاد. إنهم يقومون بالمطلوب وأنا أكافئهم. لكن إن أعطيتهم مالًا مقابل ما يجب عدم فعله أو ما هو خارجٌ عن القانون، عندها تُعتبر رشوة.

- حسنًا، لم أجعله يخالف القانون، بل أعطيته إكراميةً صغيرة ليعطيني صلاحيةً قانونيةً تمامًا لشراء شقة. إنها الوسيلة الوحيدة. لماذا تعتبر ما تدفعه «بقشيشًا» بينما تعتبر ما أدفعه «رشوة»؟

- حسنًا يا عزيزتي. سنسمي ما دفعته «بقشيشًا». ماذا أقول؟ أعني... هذا يبدو غريبًا بالنسبة لشخصٍ بمبادئكِ. لا أتخيلكِ ترشين أحدهم. كيف أعطيته المال؟ في ظرفٍ بني؟

- ماذا؟ أعطيته كما تعطي أنت البقشيش. ولست فخورةً بذلك.

اضطررت لإخبار «سليم» بصفقتي مع «قاسم» بك لكي يجد لي من يرافقني إلى المزاد. لم أكن أتفاخر أمام حبيبي بما فعلت.

قال أخيرًا:

- حسنًا. سأجد لكِ مُحاميًا ليذهب معكِ إلى المزاد.

كان يرقد على الأريكة ويحرك أصابع قدميه. انحنيت بجانبه وتحسست بطنه، ثم قلت بإخلاص:

- أنت حبيبي الوحيد يا «سليم».

لم أنعم براحةٍ في أوَّل يومين بالأسبوع. دفعت ضريبة جمع القمامة لأتخلص من اتصالات مالكة العقار المزعجة. قابلت محاسبي. ذهبت مع «أوزلم» لجمع أغراضها من شقة الزوجية لأنها على وشك الطلاق من زوجها. حتى إنني حاولت التوفيق بين «بيلين» وحبيبها. فشلت بشدَّةٍ في هذا الموضوع، لكنني نجحت في الأمور الأخرى بكل سهولة. أما مشكلة «بيلين»، فقد تحولت إلى صراعٍ للإرادة.

انهالتَ عليَّ المشاكل يوم الأربعاء. اتهمتني «بيلين» بكوني غير متعاطفة، فيما جاء «باتوهان» إلى المكتبة فجأة. كنت قد نسيت كل شيءٍ عن «عثمان» والثأر والعم.

عندما رأيت «باتوهان» تذكرتُ أنني لا أعرف شيئًا عن «إنجي» منذ أيام. بغض النظر عن تجاهلي لأعمال التحقيق، لا يصح أن أتجاهل صديقةً جديدة بهذا الشكل.

من الواضح أن «بيلين» فاض بها الكيل. لقد استغلت وصول «باتوهان» لتغادر على الرغم من المطر. أعلم فيما تفكر. إنها تظنني أريد مصالحتها مع حبيبها لكي تغادر شقتي، لكن لا علاقة بين هذا وذاك. أعرف مدى صعوبة إيجاد رجلٍ محترمٍ وشريف. أؤمن بأنه يجب علينا التمسك بما لدينا حتى يأتي الأفضل. ليت الشباب يستمعون إليَّ، ستصبح حياتهم أفضل. خسارة أنهم لا يفهمون كلامي.

سألني «باتوهان»:

- هل أزعجكِ؟

- على الإطلاق.

- غادرت صديقتكِ بمجرد أن رأتني.

هكذا هم الأتراك، يظنون أنهم محور الحياة. أحيانًا أشعر بصعوبة التعامل معهم. الحياة أسهل مع الألمان.

- ما علاقة هذا بك؟ لديها مشوار وكانت على وشك الخروج أساسًا. ماذا بشأن جماعة الثأر؟

- لا شيء. رفعنا أربعًا وعشرين مجموعةً مختلفة من البصمات من المكتب، لكن ولا واحدة تعود للعم الذي قال إنه لم يدخل المكتب قط. وفقًا للبصمات، ربما كان صادقًا. كان يرتدي الثياب نفسها التي ارتداها عندما هرب بالمال. هذا ما أكدته زوجته. كان متسخًا بالكامل، لكن لا يوجد أثرٌ للبارود على ملابسه.

- هل وجدتم أثرًا للبارود على يديه؟

- يداه؟

- ألا يستخدم الناس أيديهم لإطلاق النار؟

- حدثت الجريمة منذ أسبوعين. هلسيظل البارود على يديه كل هذه المدة؟!

- لا؟

- مستحيل!

- ماذا عن جماعة الثأر؟

- أخذنا بصمات كل من استطعنا إيجاده منهم، وقارناها بالبصمات التي وجدناها في المكتب. لا يوجد تطابق.

- هل بدأت تظن بوجود صلةٍ بين هذه الجريمة ومقتل السيدة المسنة؟

- حبيبتي، لا أعرف ماذا أظن. لقد أتيت للتَّو من القبو، حيث قُتِلت السيدة المسنة. ربما أنتِ مُحقَّة. جلست على الأريكة التي اعتادت العجوز الجلوس عليها. ومن هناك يمكنكِ بالتأكيد رؤية كل من يدخل أو يخرج من البناية المقابلة. أمرت أحد رجالي بالوقوف أمام المدخل، بينما جلست مكانها. كان واضحًا تمامًا، كما يمكنكِ رؤية الأشخاص الواقفين على السلم. إنه شارعٌ ضيق والمباني مكدسة بجوار بعضها، لذلك استطعت رؤيته بالطبع. تحدثت مع الطبيب الشرعي مجددًا بشأن وقت الوفاة. قال إنه بين السابعة والنصف والتاسعة والنصف، لكنه أقرب إلى السابعة والنصف على الأرجح. بما أن الشمس غربت في السابعة والنصف أو الثامنة في إسطنبول في التاسع والعشرين من أغسطس، إذًا فمن المرجح أن العجوز رأت القاتل يغادر المبنى. نحن نعتمد على افتراض أن القاتل غادر قبل حلول الظلام. فلو كان الظلام قد حل، لما رأته العجوز بالطبع.

- عظيم. أنت مقتنعٌ تمامًا.

- ليست مسألة اقتناع. إن نظريتيَّ العمِّ والثأر لم توصلانا إلى أي نتيجة.

ابتسمتُ وقُلتُ:

- إذًا عليكم إيجاد مشتبهٍ بهم جدد. هل كان نظر العجوز سليمًا؟

- أحسنتِ، هذه نقطةٌ مهمة. وفقًا لحفيدها، لم تكن ترى الأشياء القريبة. هذا الفتى ذكي، فهو يدرس بالجامعة. قال إن جدَّته كان لديها نظارة، لكنها لم تستخدمها للمسافات البعيدة لأنها ترى بوضوحٍ عن بعد. لم أحقق في الأمر بعد. سآخذ النظارة للفحص. إن كان نظرها سليمًا، إذًا لا يوجد ما يمنع رؤيتها للقاتل وهو يخرج من البناية. في هذه الحالة، سيكون علينا التحقق من كل من رأى المرأة، ومعرفة سبب الاشتباه بهم. هل كانت ستشك المرأة في كل من يغادر المبنى في ذلك الوقت؟ ليس إخوة «عثمان» على الأرجح، فهم يدخلون ويخرجون طوال الوقت. هناك عمال بناءٍ في الطابق العلوي. اشترى أحد المفكرين الشقة العلوية وبدأ تجديدها. كثير من الناس يدخلون ويخرجون طوال اليوم من هذا المبنى، بدايةً من المهندس المعماري حتى العمال والكهربائيين. ما كان أحدهم – أو من مثلهم - سيلفت نظر العجوز. لهذا أظن أن قاتل «عثمان» هو شخصٌ تعرفه السيدة، وتفاجأت لرؤيته في شارعها. لقد عادت السيدة للتَّو إلى إسطنبول، حيث لا تعرف أحدًا غير عائلتها وجيرانها وأقاربها. أمرت بالحصول على بصمات كل من بالحي وكل الأقرباء وأي شخصٍ قد تعرفه العجوز. سنرى إلى ماذا يوصلنا هذا. إن لم نجد تطابقًا مع البصمات التي رفعناها من المكتب، سأعيد التفكير من جديد.

- كيف عرف القاتل أن السيدة رأته؟ ولماذا خاف؟ هل تظن أن السيدة نادته من الشباك؟ أم تبادلا النظر؟ ربما قالت له شيئًا؟

- طلبتُ من أحد زملائي الجلوس على الأريكة، بينما وقفت أنا على السلم، لكن ما كان القاتل ليستطيع رؤيتها عبر نافذة القبو بسهولة. لهذا أظن أنها فتحت النافذة ونادت على الأرجح. ربما هناك شاهد عيان رآها تتحدَّث مع القاتل.

- أظننا لو وجدنا قتيلًا آخر في الحي سنعرف عندها أنه كان الشاهد.

بدا «باتوهان» منزعجًا من كلامي. قال:

- حاليًا يدور الرجال على الشقق والمحلات ليسألوا إن كان أحدهم قد رأى العجوز تتحدَّث مع أحدٍ بعد الساعة السابعة في الثامن والعشرين من أغسطس.

- فليسألوا أيضًا إن سمع أحدهم طلقًا ناريًّا ذلك اليوم.

- سألناهم من البداية. لم يقر أحدهم بسماع أي طلقات. فالمكان صاخبٌ جدًّا ومن المحتمل ألا يلاحظ أحدٌ صوت الرصاص.

هذا صحيح. من الممكن أن يضيع صوت رصاصةٍ وسط صخب إسطنبول.

قُلتُ:

- أظن أن القاتل شخصٌ مشهورٌ بما يكفي لتعرفه العجوز.

- ما قصدكِ؟

- ممكن أن يكون ممثلًا أو مطربًا أو مذيعًا، أو ما شابه. لا أعرف بالضبط.. ربما شخصٌ يظهر في الإعلام.

ضحك، وقال:

- لا يوجد مشاهير بين معارف «عثمان»، صدقيني.

نظر إليَّ بثقةٍ ليؤكد لي ذكاءه.

سألته:

- لماذا تستخف بـ«عثمان» كثيرًا؟ أي شخصٍ قد يعرف بعض المشاهير.

- ليس إن كان مدير جراجات.

- لكن الرجل مثيرٌ للاهتمام. كم شخصًا تعرفه بدأ من الصفر، ثم امتلك جراجات عديدة ومطعمًا ومقهى وشركةً شحن خلال خمس عشرة سنة؟

- لقد حققتِ عن الضحية جيدًا. ماذا فعل أيضًا؟ هل تعرفين أنه كان يدير جلساتٍ للقمار في قبو المقهى؟ أو أنه كان يتاجر بالنساء؟ هل عرفتِ أنهم طلبوا منه الترشح في الانتخابات لصالح حزب

«المسعى المتحد»؟

- حزب «المسعى المتحد»؟

دخل بعض دخان السجائر في عيني، فرمشت كي لا تدخل الماسكارا فيها.

- هذا ما أرادوه. تنتمي العائلة إلى أكبر عشيرةٍ في «وان»، واكتسب «عثمان» سُمعةً لا بأس بها. لو تم ترشيح فردٍ من عائلةٍ معروفة، سيكسب الحزب مزيدًا من الأصوات. هذا متوقع. كان «عثمان» مهتمًا في البداية، ثم خاف أن يلاحقه ماضيه على ما يبدو.

- أظن أن ماضيه أشرف من القتلة ورجال العصابات والنصابين الموجودين حاليًا في البرلمان. ما الخطير في بعض القمار أو الدعارة هذه الأيام؟

- هناك أيضًا حرق مبانٍ تاريخية وتحويل أراضي الناس لجراجات وتجارة السلاح... أنا واثقٌ بأننا سنجد مزيدًا إن بحثنا.

أشعل سيجارةً، ثم قال فجأةً وكأنه تذكر للتَّوِ:

- أنتِ مدينةٌ لي بوجبة.

- نعم، أنت مُحقٌّ. لكن لا يمكننا الخروج قبل عودة «بيلين». إنها تمطر على كل حال. أستطيع طلب بعض الساندويتشات المحمصة إن شئت.

لا يسمح مزاجي بالذهاب إلى مطعم السمك في «كوليديبي» مع «باتوهان».

- حسنًا، اطلبي لي ساندويتشين، وبعض اللبن.

جلسنا نأكل، ثم رنَّ موبايلي مرَّة وسكت فورًا. عرفت أن «قاسم» بك هو المتصل من دون أن أنظر، لكنني شعرت بأنه ليس صائبًا التحدُّث مع موظفٍ حكومي رشوته مؤخرًا، بينما أجلس مع ضابط شرطة. قررت الانتظار حتى يغادر «باتوهان» ثم سأتصل به.

قال «قاسم» بك عندما اتصلتُ به:

- لقد تأخرتِ في الاتصال.

كل الرجال الأتراك هكذا. إذا زادت ثقة أحدهم بنفسه، توقع أن يسرع الجميع إليه.

- نعم.

اكتفيت بذلك الرد، فمن المستحيل أن أعلِّم اللباقة لكل تركي أقابله. يكفيني «سليم» وحسب.

قال:

- هناك مشكلة بخصوص شقتكِ. ذهبت اليوم لأحدد سعر البدء في المزاد، وهو شيءٌ نفعله قبل كل مزاد. يبدو أن بعض الأشخاص كانوا يستخدمونها كمكتبٍ بوضع اليد. ومن الواضح أن أحدهم قُتِل فيها منذ أسبوعين. كان الباب مختومًا بالشمع الأحمر، لذلك لم نستطع الدخول. سأعمل على إزالة الختم، لكنني فكرت في إخبارِكِ في حال رفضتِ شراء شقةٍ شهدت جريمة قتل.

لست شخصًا عاطفيًّا. قُلتُ له:

- لا فارق لديّ. متى موعد المزاد؟

- سنضعها في المزاد بمجرد أن نُثمِّنها. لو استطعنا الدخول اليوم، سيكون المزاد الأسبوع المقبل. ما زلت أعمل على القضية.

أردت معرفة كم يريد من النقود فسألته:

- ذكرت شيئًا عن صديقٍ لك سابقًا. كم يريد؟

- سنتحدث في هذا الأمر لا حقًّا. لننتهي من هذه المشكلة أولًا. عليك فقط أن تستعدي. جهّزي عشرين بالمائة من الثمن المبدئي لتشاركي في المزاد. من الأفضل أن تضعي المال في البنك وتحصلي على خطاب ضمان. حوّلي المال إلى وديعةٍ بالدولار، واطلبي من البنك خطاب ضمان. هكذا ستستفيدين بالفائدة وارتفاع سعر الدولار معًا.

من الواضح أن البقشيش الذي أعطيته لـ«قاسم» بك لم يضع هباءً.

- كم تبلغ نسبة العشرين بالمائة؟

- سنبذل ما بوسعنا ليكون مبلغًا معقولًا. فلهذا السبب تستعينين بنا، أليس كذلك؟

- «تقبلون اليد التي تطعمكم»، صحيح؟

- ماذا؟

لا أعرف إن كان هذا المثل موجودًا بالتركية أم لا. فقلت له:

- لا شيء.

لم أستطع مغادرة المكتبة حتى موعد الإغلاق، لأن «بيلين» أطفأت موبايلها واختفت. بدأت بقراءة كتاب، لكنني شعرتُ بالملل بعد ثلاث صفحات. أعددت بعض الشاي الأخضر ولم أشربه. كما أطفأت سيجارتي بعد تدخين نصفها فقط. حتى إنني عاملت الزبائن بفظاظة. هاجمني شعورٌ فظيع بأنني نسيتُ شيئًا كان عليَّ فعله. إنه شعورٌ بالذنب. رافقني هذا الشعور منذ الطفولة، انحفر في هويتي ولم أستطع التخلص منه أبدًا وأنا راشدة. لقد أحرق روحي كتنينٍ يختبئ في أعماقي، ويرفع رأسه لينفث النار في أسوأ اللحظات. مثل الوقت الذي دخلت فيه مكتب والدي لأقرأ مذكرات كنت ممنوعة من حتى لمسها، وتعلمت أشياءَ ما كان عليَّ معرفتها.

تساءلت إن كنت نسيت سؤال أحدهم سؤالًا معينًا، أو لم أنتبه لأحد الردود، أو لم أدقق في أحد الأدلَّة. لماذا لا أستطيع التخلص من هذا الشعور؟ ما الصلة بين السيدة العجوز وأحد معارف «عثمان»؟ ربما لا يوجد أي دليل وأنا قد بالغتُ في التفكير في هذه الصدفة؟ ما الذي يمنع حدوث جريمتين متتاليتين في الشارع نفسه؟ لماذا لا تكونان جريمتين منفصلتين تمامًا؟

لكن ماذا لو أن هناك صلة بين الجريمتين بالفعل؟

قد يكون القاتل من سكان الحي مثلما قال «باتوهان»، وقد يكون مشهورًا كما فكرت أنا. شخص تستطيع العجوز أن تتعرف على المشاهير. ها قد عدت من جديد لـ«قسمت أكان». فادِّعاء وجوده في قريةٍ سياحية ليلة الجريمة لا يُبرِّئه تمامًا.

بمجرد أن عرفت أن هذا سبب شعوري بالضيق، ذهبت مباشرةً للتليفون واتصلت بـ«باتوهان». حان الوقت لكي تستجوب الشرطة «قسمت أكان». وهناك أيضًا الصديق المشهور الآخر لـ«عثمان»، لاعب الكرة المتقاعد «يالتشن تكتاش».

لا يمكنك أن تحل جريمة قتلٍ بالجلوس والتفكير فقط، لكي تحل جريمة قتل، عليك أن تجوب الشوارع، وأن تتحدَّث مع الناس. يجب أن تعرف ماضي الضحية وخططها المستقبلية. كلما عرف المحقق عن الضحية، اقترب أكثر من الحل. بمعنى آخر، إن متابعة أعمال الضحية تقودك إلى حل القضية. على سبيل المثال، في آخر كتابٍ قرأته، قام رجلٌ عجوز بقتل جاره لأنه أراد بيع حديقته لشركة مقاولات. أراد الرجل المسكين أن يقضي أيامه الأخيرة في سلام، لكنه ارتكب جريمة قتل لأنه لم يتحمل فكرة العيش وسط ضوضاء عملية البناء التي ستجري بجانبه. لو لم تعرف أن الضحية كان على وشك إمضاء عقد البيع مع شركة المقاولات، لما حللت القضية، لكن دافع القاتل كان واضحًا لي، بل وتعاطفت معه. أنا مندهشةٌ لأنني لم أقتل أحدًا على الرغم من إقامتي في إسطنبول. ربما الإجابة بسيطة، لأنني لا أملك جينات القتل.

للأتراك جينات شعرية بلا شك. يا إلهي، هذا البلد يمتلئ بالشعراء! حتى الناس العاديون يتضح أنهم شعراءٌ في السر والخفاء ويتعرضون لسوء الفهم، ويفاجئونك بمفكراتهم الجلدية المليئة بالشعر الهزلي. كما أنهم يعتزون بأنفسهم وهم يعرضون عليك شعرهم البائس. قلت إن السبب هو جينات الشِعر، لكن الواقع هو أن من يمضي وقتًا طويلًا في هذا البلد الشهير بالشعراء المسرحيين، سينتهي به الحال بكتابة القصائد. مثلي أنا. ألم أؤلف قصيدةً منذ بضعة أيامٍ خارج الشقة التي قُتِل فيها «عثمان»؟! إن لم يكن الأمر صدفةً أنني جلست، وأسندت ذقني على يدي لأؤلف قصيدة، فهذا يعني شيئًا واحدًا. أنا أتحول إلى تركية!

نعم، أنا أتحول إلى تركيةٍ بالتأكيد. توقفت عن قول الحقيقة مراعاةً لشعور الناس، وأصبحت أحافظ على صداقاتي وأتجنب المتاعب. صرت أنظر إلى تسريحات صديقاتي الغريبة وأقول لهنَّ إنني أحببتها. أصبحت أنظر إلى كروشهنَّ وهن يجلسن وأقول إن أوزانهنَّ لم تزد مُطلقًا.

عندما أعدت لـ«إنجي» مفكرتها التي تحتوي على قصائدها الهزلية التي تسميها شعرًا، قُلتُ: «إنها رائعة».

أغلقت المكتبة بعدما اتصلت بـ«باتوهان»، وأسرعت لرؤية «إنجي»، فأنا لن أحل هذه القضية بالجلوس.

سألتني:

- هل أعجبتكِ حقًّا؟ حقًّا؟ صارحيني.

الحقيقة المُرَّة تحطم قلوب الأتراك. لكن كما قلت، لم أعد قويةً كالألمان. أو حتى كسكان برلين على الأقل. لذلك قُلتُ:

- إنها جميلة. هل عرضتها على أي شخصٍ آخر؟

- لا، أنتِ أوَّل من يقرؤها. فقدت التواصل مع كل أصدقائي بسبب «عثمان». ليس لديَّ من أعرضها عليه.

- كيف كان «عثمان»؟ لا بُدَّ أنه كان لا يُطاق بما أنه منعكِ من رؤية الناس؟

هنأت نفسي على تغيير الموضوع باحترافيةٍ شديدة.

أجابت:

- لم يكن سيئًا على الإطلاق. كان فقط غيورًا قليلًا.

- قليلًا؟

- حسنًا، لم يكن يحبسني عندما يخرج مثلًا. أستطيع الخروج والدخول متى وأينما أحب. كان يقول لي: «أنا أثق بكِ، لكن لا أثق بالناس. إن تركتكِ مع كتيبة جنود، أعرف أنكِ ستعودين كما أنتِ». كان مُحقًّا بالطبع. لا فكرة لديكِ عن شر الناس. انظري إلى ما حدث، لقد قتلوا «عثمان».

بدأت «إنجي» تفتقد «عثمان». لم تقل شيئًا كهذا عندما تقابلنا أوَّل مرة.

- نعم، ماذا عن كونه لم يسمح لكِ بالقراءة وما إلى ذلك؟

- اسمعي، لقد تخرجت في الثانوية، أما «عثمان» فلم يحصل حتى على الابتدائية. كان أفقر من أن يدخل المدرسة. لم يستطع الحصول على رخصة قيادة لأنه لم يحصل على شهادة. كان يجيد القراءة والكتابة بالطبع، وحاول التحسين من نفسه. اعتاد أن يقول: «لقد تخرجت في جامعة الحياة». هذا صحيح. كان واسع المعرفة.

- هل تظنّين أن سبب رفضه عرض حزب «المسعى المتحد» هو أنه لا يملك شهادةً تعليمية؟ على حد علمي، يجب الحصول على الشهادة الابتدائية للعمل في البرلمان.

- هل حاول حزب «المسعى المتحد» ضمه إليه؟ لم يخبرني. يا إلهي، ما كان سيتورط أبدًا مع هؤلاء المتعصبين دينيًّا. من أخبركِ بهذا؟

- القهوجي في «كوليديبي». إنه يعرف تفاصيل كل نميمة.

إنه كذبٌ بيّن، لكن ما باليد حيلة. هل أخبرها أنني عرفت ذلك من صديقي ضابط الشرطة؟

- بصراحة.. لم يناقشني «عثمان» قط في أعماله. أعرف فقط ما أسمعه يقوله في التليفون. لكنه ليس كما تظنين. كان يهتم كثيرًا بالعلم والمعرفة. لديه أربعة أطفال، وكلهم في مدارس خاصة. حاول أن يجبر «أوزجان» على الدراسة، لكنه هرب من المدرسة. احترم «عثمان» الدارسين كثيرًا. كان شخصًا غير عادي، قليلون من هم مثله.

إن «إنجي» تفتقده حقًّا.

- هل عرفتِ شيئًا من مكالماته التي سمعتها؟ ما نوع الأعمال التي كان يقوم بها؟

- كان يحمل عبئنا جميعًا على عاتقه. وهناك الجراجات. لا شيء غير قانوني في هذا، فقد كان يحترم القانون. هناك أيضًا مقهى بالقرب من «أكساراي»، أظن في «لالالي». لم أذهب إلى هناك مُطلقًا. قال: «إنه ليس مكانًا مناسبًا للسيدات المحترمات»، فلديهم راقصات. كما امتلك شركة شحن. لقد أخبركِ «أوزجان» بذلك من قبل، هل تذكرين؟ تعمل الشركة بين «وان» وإسطنبول. لا أعرف كم شاحنةً يملك، لأن كل من يملك شاحنة كان يسمح له بالعمل باسم شركته. أظنهم وضعوا اسم «عثمان» على شاحناتهم وأعطوه نسبةً من الأرباح. لا أعرف بالضبط كيف يتم الأمر.

- هل هذا كل شيء؟ ظننته عمل في كل المجالات.

- لا، كان «عثمان» مثابرًا. بمجرد أن يفكر في شيءٍ ما، يفعله. فمثلًا، كان يفكر في العمل في مجال المقاولات. ظنها وسيلةً لكسب الرزق. فلديه كثير من الأقارب، ومعظمهم يعمل في مجال البناء.. أعني عمالًا. أراد تأسيس شركةٍ تدر المال وتمد أقرباءه بالعمل في الوقت نفسه. لكنه لم يعش ليحقق حلمه.

بدأت تبكي بالفعل. لا أشفق على دموع النساء مثل بعض الرجال الحمقى، لكنني أنزعج إذا بكى أحدهم أمامي. الأمر سيان، سواء كان رجلًا أم امرأة. لا أعرف ماذا أقول ولا كيف أخفف عنهم.

هكذا شعرت بالعجز التام معها. قُلتُ:

- يا له من مسكين. لكنه ارتاح على الأقل.

- ارتاح؟ لماذا تقولين ذلك؟

توقفت عن البكاء ونظرت إليَّ بتركيز.

السبب هي لغتي التركية بالطبع، فأحيانًا أخلط الردود في المواقف المختلفة.

قلت لها من دون أن أفهم معنى ما أقول:

- أعني أنه مات دون أن يتعذب كثيرًا.

عادت تبكي مجددًا.

- لم يتعذب كثيرًا؟! لقد زحف على الأرض حتى الباب لكي يطلب النجدة. كم يمكن أن يتعذب أكثر؟ لم يستطع الوقوف حتى. لقد مات زحفًا على الأرض.

تحول بكاؤها إلى نحيب، فذهبت إلى المطبخ لأحضر لها كوبًا من الماء.

لكنني غيَّرت رأيي عندما فتحت الثلاجة، فأخرجت بيرةً وسكبت لنا كأسين. هذه الكمية القليلة من الكحول لن تؤذي امرأةً حاملًا على ما أظن.

شربتُ البيرة ثم طلبتُ سيجارة. سررتُ كثيرًا، فهي في العادة لا تسمح بالتدخين في منزلها. لذلك أخرجت واحدةً لي أيضًا.

فكرتُ أنه ربما نقص المال يزعجها، فسألتها:

- ما وضعكِ المالي إلى حين تسوية الميراث؟

- لقد فتح حسابًا باسمي في البنك بالفعل. لا يوجد كثير به، لكنه يكفيني لثلاثة أو أربعة أشهر. كما أنه نقل ملكية هذه الشقة لي. قال «أوزجان» إنه سيحرص على أن لا أواجه مشاكل مالية، لكنه لا يعلم أن «عثمان» اشترى لي هذه الشقة. قد تحدث مشكلة عندما يعلم.

- ماذا يظن إذًا؟

- يظن أن هذه الشقة مؤجرة.

- إن لم تخبريه بالحقيقة فلا مشكلة.

- الإيجارات هنا مرتفعة، ماذا لو طلب مني الانتقال لمكانٍ أرخص؟

- عندها تنتقلين. فأنتِ لم تولَدي هنا أصلًا.

لم أقصد إهانتها، لكنني أشعر بأنني فعلت. فأضفت:

- أعني أن هناك أماكن أجمل وسعرها مناسبٌ في إسطنبول. عندها يمكنكِ عرض هذه الشقة للإيجار.

قالت بعينين مليئتين بالدموع:

- أنتِ لا تفهمين.

- ما الذي لا أفهمه؟

- كنا في فقرٍ مدقع. عشت طفولةً بائسة. أنا أفضل من يعرف مذاق الفقر. اعتادت أمي الخروج فجرًا لتسير حتى العمل لأنها لا تملك ثمن تذكرة الأتوبيس. أنا وإخوتي وأخواتي كنا نعمل جميعًا، مع ذلك لم يكفنا ما نجمعه من نقود. لا أريد العودة إلى تلك الحياة، فأنا أعرف مذاق المال الآن. هل تفهمين؟ لديَّ سيارةٌ وخادمة لتنظيف شقتي. أشتري ثيابي من أرقى المحلات التي ينادنيي مديروها بـ«هانم» بعدما كانوا يرفضون تشغيلي كبائعة. لن أعود. لن أعود للعيش في «باغجلار» أو «جونجوران». كما أنني أرعى عائلتي. هل تعرفين مصاريفهم؟ مثل مصاريفي تمامًا.

- نعم، لكن فرضًا أنكِ ربحتِ القضية وحصل ولدكِ على نصيبه في الميراث، ما أملاك «عثمان»؟ إنه بالتأكيد لم يمتلك مصانع وبيوتًا. لقد كوَّن ثروته بإدارة الجراجات وأعمال الشحن. كان يباشر الأعمال بنفسه ليكسب المال. لا يمكنكِ الاستمرار في أسلوب حياتكِ المعتاد، حتى لو حصلتِ على نصيبٍ في الميراث أو أعطاكِ «أوزجان» مصروفًا شهريًّا.

- هذا ما أقوله بالضبط.

- إذًا؟

انهارت باكية وهي تنتفض وتقول:

- كان من الأفضل أن يقتلني قاتل «عثمان»! والطفل الذي في رحمي أيضًا! لقد انهارت حياتي!

ظلت تبكي وهي تغطي وجهها بيديها وتدفن رأسها بين ركبتيها:

- حياتي انهارت!

لا أعرف ماذا أقول أو أفعل، هذا ليس مفاجئًا. جلست لبعض الوقت كالحمقاء أشاهد المرأة تبكي. أخيرًا قررت أن البيرة لن تحل شيئًا، لذلك بحثت في دولاب الخمور عن «ويسكي». أخذت الزجاجة إلى المطبخ وسكبت كأسين مع الثلج.

عندما عدت لغرفة الجلوس، وجدتها قد انتهت من البكاء. شربت الـ«ويسكي» بصمتٍ، ثم قالت:

- أظن أن الشرطي المسؤول عن القضية يظنني القاتلة. إنه يضمر لي شرًا، يتهمني فعليًّا بقتل «عثمان».

- لماذا تظنّين أنكِ من المشتبه بهم؟

- لقد أخذ بصماتي. لا بُدَّ أن «أوزجان» قال شيئًا ليقلبه ضدي. عندما لم يعد «عثمان» إلى المنزل في تلك الليلة، قال «أوزجان» إنه اتصل بي ليسأل أخاه شيئًا. لكنه يكذب! لا أعرف لماذا اتصل. إنه لم يتصل بي قط ليتحدث إلى «عثمان». كان «عثمان» يبيت معي أربع ليالٍ في الأسبوع على الأقل، ولم يعرف أحد أين كان. لم يهتم أحد. لماذا شعروا بالفضول تلك الليلة بالذات عندما لم يعد للمنزل؟ لماذا اهتموا بشأنه في الليلة ذاتها التي قُتِل فيها؟ لقد قضى معي الليلتين السابقتين لها ولم يتصل به أحد. لماذا يطمئنون على رجلٍ ناضجٍ أصلًا؟

تذكرتُ ما قاله «أوزجان» فقُلتُ:

- ربما لأن موبايله كان مغلقًا.

- حتى لو كان موبايله مفتوحًا، ما كانوا سيتصلون به. حسنًا، ربما طرأ شيءٌ ما، وربما كانت مصادفة، لكنني أرى أنها مصادفة مبالغٌ فيها.

- إممم.

هناك عديد من المصادفات بالفعل، ألا تتفقون معي؟

سألتها:

- لكن ما المشكلة في أن يتصل بكِ «أوزجان»؟

- هذا يعني أنه اكتشف أنني لم أكن في المنزل ذلك المساء، لأنني لم أرد على التليفون.

- ماذا تعني؟ ألم تكوني في المنزل تلك الليلة؟

هذه المرة بكت بصمتٍ وانحدرت دموعها على خديها، ثم سألتني بصوتٍ مبحوح:

- هل تكتمين السر؟

بم أجيب عن سؤالٍ كهذا؟ لا يمكنني أن أقول «لا، لن أفعل». قُلتُ لها:

- بالطبع، سأفعل.

- لم أكن في المنزل.

أردتُ شخصًا يُدلِّك لي عنقي. أدرتُ رأسي من اليسار إلى اليمين، ودلَّكتُ العضلات المتيبِّسة، لكن تدليك الشخص لنفسه لا يفيد أبدًا. لم أكن بارعةً فيه. فهو يتطلب جهدًا كبيرًا مقابل نتيجةٍ بسيطة.

سألتها:

- هل لديكِ حبيب؟

عادت للنحيب، وقالت:

- ليس كما تظنين.

- لا أظن بكِ شيئًا. اهدئي، لا أظنكِ القاتلة. وعلى كل حال، لستُ في وضعٍ يسمح لي بالحكم عليكِ.

هذا صحيحٌ بالفعل، فأنا خنت كل رجلٍ عرفته حتى جاء «سليم». وكنت على وشك خيانته أيضًا، إنها مسألة وقت.

- ماذا أخبرتِ الشرطة عندما سألوكِ عن مكانكِ وقت الحادث؟

- أخبرتهم أنني كنت في البيت أشاهد التليفزيون.

أخبرتني «إنجي» الشيء ذاته.

- هل كان «أوزجان» معكِ عندما أخبرتهم ذلك؟

- لا، لكن «أوزجان» أيضًا سألني أين كنت.

- وماذا أخبرته؟

قالت وهي تبكي:

- أخبرته أنني كنت أشاهد التليفزيون أيضًا.

ناديتها بحزم:

- «إنجي»!

ثم أمسكت كتفيها وهززتها، وقلت:

- اهدئي! تماسكي واذهبي لغسل وجهكِ.

ذهبت إلى الحمَّام وهي تبكي.

أشعلت سيجارة. ليتني أستطيع التخلي عن روح المحقق هذه، وأصبح شخصًا واثقًا ومهذَّبًا وعاديًا مثل أصدقائي، وأتمسك بأخلاق الطبقة المتوسطة الجميلة. لا عيب أبدًا في أخلاقيات الطبقة المتوسطة، حتى إن لم أحصل على نصيبي في هذا المجال.

- لم يخبرني «أوزجان» أنه حاول الاتصال بي تلك الليلة. لو عرفت، لاختلقت كذبةً أخرى، لكن حين سألوني قلت إنني كنت في المنزل، حيث أكون عادةً. بمجرد أن قُلتُ ذلك لم أستطع تغييره. أخبرت «أوزجان» أنني كنت في الحمَّام على الأرجح عندما اتصل، ولم أسمع التليفون. لم أعلم أنه ظل يتصل حتى الصباح.

- ظل يتصل حتى الصباح؟

- هذا ما قاله.

- كان يجب أن تقولي أنكِ لا تجيبين على التليفون بعد وقتٍ محدد.

- لم أفكر بذلك. لقد تفاجأت. تظاهر أنه لم يلحظ غرابة الموضوع، لكنه شك بالطبع. يا له من وغد. لقد أبلغ الشرطة عني. وإلا لماذا أخذت الشرطة بصماتي؟!

- ألم يخبروكِ بالسبب؟

- قالوا إنهم يأخذون بصمات الجميع، وإنهم سيحصلون على أمرٍ من المحكمة إن رفضت. قالوا: «وافقي بهدوءٍ وإلا سنلجأ لهذه الوسائل». ما الذي كنت أستطيع فعله؟ لو رفضت لشكوا بي كثيرًا، لذلك تركتهم يأخذون بصماتي. قالوا إنهم يتخلصون من كل البصمات بعد ذلك.

- أظنه من الطبيعي أن يحصلوا على البصمات. ولا مشكلة إن أخبرتِ الشرطة أنكِ لم تكوني في البيت تلك الليلة. سيشهد حبيبكِ أنكِ كنتِ معه. تحاول الشرطة حل جريمة قتل، لا يهمهم أين كنتِ، ومع من، وماذا فعلتِ.

- و«أوزجان»؟

- هل تظنّين أن الشرطة ستخبر «أوزجان» أنكِ كنتِ تخونين «عثمان»؟

- لا أعرف. ماذا إن انكشف السر؟

- المخاطرة الوحيدة هنا هو أن كذبكِ قد ينكشف. عليكِ اختلاق حجةٍ لـ«أوزجان»، لكن أخبري الشرطة الحقيقة، ودعيهم يتصلون بحبيبكِ إن أرادوا.

عضَّت شفتيها لتكبح دموعها وهي تقول:

- لا يمكنهم الاتصال بحبيبي.

- لم لا؟

- لأنه سيقتلني.

- هل هو متزوج؟

نظرت لي برعب. يا إلهي! هل قُلتُ شيئًا بشعًا؟ أنا في الرابعة والأربعين. بالطبع أعرف لماذا يخفي الناس هوية عشاقهم. أعني أنه ليس عليك أن تكون عاشقًا لروايات الجريمة لتخمن ذلك.

- «ألب» هو حبي منذ الطفولة. كنا في الفصل نفسه. والده كان مدرسًا، لذلك حرص على تعليم ابنه جيدًا. تخرج في كلية الهندسة العام الماضي. إنه متزوجٌ من ابنة مديره في العمل، لكنه لا يحبها. لقد رأيت زوجته. إنها قبيحةٌ جدًّا، لكنها ابنة المدير الثري جدًّا. إن انكشف السر الآن... لو عرف أحدٌ بشأننا...

أحرق الـ«ويسكي» حنجرتي بينما أفكر، ثم قُلتُ:

- مهلًا لحظة!

صمتت «إنجي» ونظرت إليَّ بشرودٍ وهي ما زالت تفكر في ما كانت ترويه لي. نقرت بأصابعي على الطاولة. تك تك تك تك... الموضوع ليس معقدًا. امرأة في علاقةٍ مستقرة تخون حبيبها مع

رجلٍ متزوج. حسنًا، أعرف القليل عن هذه الأمور. إن كان اللقاء ليلًا، يقول الرجال إنهم ذاهبون لعشاء عمل. وإن كان اللقاء نهارًا، يقولون إنهم ذاهبون للبنك أو لاجتماع عمل أو لدفع فاتورة التليفون، لكن ما الذي يمكن أن تقوله امرأة؟ امرأة لا صلة لها بالعالم الخارجي؟ ما الذي يمكن أن تقوله امرأة لتخرج من البيت في المساء، علمًا بأنها لا يأتيها أبدًا عشاء عمل؟ امرأة ليس لديها حتى عذر لتخرج بالنهار؟

سألتها:

- كيف أخفيت الأمر عن «عثمان»؟

- اعتدنا أن نلتقي عندما أعلم أن «عثمان» لن يأتي.

- في المساء؟

- بالكاد تقابلنا في المساء، لأننا لم نعرف أين يمكننا الذهاب. منذ ستة أشهر، اتفق «ألب» مع صديقٍ له يملك شقةً بالقرب من هنا. دفع «ألب» جزءًا من الإيجار في مقابل أن يسمح لنا باستخدام إحدى الغرف، لكننا لم نتقابل ليلًا أكثر من ست مرَّات، بسبب زوجة «ألب» و«عثمان». الأمر خطير، لكن في ذلك الأسبوع كانت زوجة «ألب» مسافرة في إجازة. تملك العائلة بيتًا للعطلات، فذهبت لقضاء شهرٍ هناك.

- كيف عرفتِ أن «عثمان» لن يأتي تلك الليلة؟

- اتصلت به.

- بـ«عثمان»؟

- بالطبع «عثمان»، ومن غيره؟

- متى؟

- لا أعرف. مهلًا، هل تقصدين أنني آخر من تحدث مع «عثمان»؟

أومأت برأسي. أردت حقًّا أن أضيق عينيَّ لأدقق في تعابير وجهها، لكن تضييق العين يسبب تجاعيد. إن تضييق العينين هو السبب في ظهور التجاعيد التي تشبه رجل الغراب حولها. اكتفيت برفع حاجبيَّ ونظرت إليها.

قالت «إنجي»:

- حسنًا، دعيني أتذكر. اتصل بي «ألب» ثم اتصلت بـ«عثمان» فورًا. لم أرَ «ألب» منذ أسبوع لأنه كان في إجازةٍ مع زوجته. اشتقتُ إليه كثيرًا.

حاولت أن لا أفكر في حقيقة أنها حامل، لكن هذه الأشياء تعلق في تفكير الطبقة المتوسطة البسيطة.

- لديَّ موبايل لا يعرف رقمه سوى «ألب». أشغله حين لا يكون «عثمان» هنا. إنه كشفرةٍ بيننا. لو أن التليفون شغال، يعرف «ألب» أنني وحدي. مهلًا لحظة.

جرت بنشاطٍ وحماس يتناقضان مع بكائها منذ قليل، ثم عادت ومعها موبايل وهي تقول:

- إن وقت اتصال «ألب» مسجلٌ هنا. أظنه كان في السابعة أو قبلها بقليل. لِنرَ، لم أستخدم هذا التليفون منذ ذلك اليوم. لم أحتج له، كنت أستخدم فقط الموبايل العادي.

انتظرت بصبرٍ ليفتح الموبايل. جرت أصابعها على الأزرار. أتساءل لو سأتمكن يومًا من استخدام موبايلي بهذه الاحترافية.

- كان اليوم التاسع والعشرين من أغسطس. تحدَّثنا بضع مراتٍ ذلك اليوم. لا بُدَّ أنه كان الاتصال قبل الأخير. مكتوب أن آخر اتصال كان في العاشرة. هل تعرفين أن هناك موبايلات مزودة بكاميرا حاليًا؟ يمكنكِ التقاط صورٍ وإرسالها عبر التليفون.

صرخَت بحماسٍ أفزعني. لا أحتمل كل هذا الصراخ والبكاء والنحيب.

- انظري! انظري إلى هذا!

ألصقت الموبايل في وجهي فلم أستطع رؤية شيء.

قُلتُ بنفاد صبر:

- ماذا؟ متى تحدَّثتِ مع «ألب»؟

- في السابعة وأربع عشرة دقيقة. حمدًا لله يا إلهي!

تنهدت بارتياحٍ عميق وهي تقول:

- لقد تحدَّثت مع «عثمان» قبل مقتله. ربما قبله بعشر أو خمس عشرة دقيقة. سألتني الشرطة أين كنت بين السابعة والنصف والتاسعة والنصف. لذلك ربما وقعت الجريمة في السابعة والنصف، لأنني اتصلت بـ«عثمان» بعدما اتصل بي «ألب» مباشرةً، أي في السابعة والربع.

- هل اتصلتِ به على موبايله؟

- نعم، يقول «أوزجان» إن موبايل أخيه كان مغلقًا، لكن بما أنني تحدثت معه في السابعة والربع، فهذا يعني أنه لم يكن كذلك.

- من المحتمل أنه أغلقه بعدما تحدَّث معكِ مباشرةً.

قالت:

- احتمال.

ثم أضافت:

- سألته ماذا سيفعل ذلك المساء، فقال إن لديه عملًا كثيرًا ولن يأتي. كما قال إن معه «أخًا محترمًا»، وكانا يتحدَّثان بشأن العمل. إنه يقول «أخًا محترمًا» عندما يقصد شخصًا مهمًا، ما يعني أنه لم يكن بمفرده.

انفعلت فجأة وأمسكت ركبتي، وهي تقول:

- ما رأيكِ؟ هل تظنِّين أن الشخص الذي كان معه هو القاتل؟

هززت رأسي، وسألتها:

- فكري جيدًا. هل لمَّح لكِ عن هوية هذا الرجل؟

- تحدَّثنا باختصارٍ شديد. لو ذكر اسمًا لتذكرته.

- ما قصدكِ؟

- حسنًا، هل كان معه «قسمت أكان» مثلًا؟

- هل تظنِّين أنه القاتل؟

هززت كتفيَّ.

قالت «إنجي»:

- لا أعرف. أظنه كان سيذكره بالاسم. لستُ واثقة. ربما لم يردني أن أعرف من هو في حال كانا يتحدَّثان في أمرٍ سري.

- كيف تأكدتِ من أنه لن يأتي تلك الليلة؟

- من نبرة صوته. لقد بدا مُشتَّتًا. عندما يكون هكذا... أعني عندما يكون مشغولًا في العمل، لا يأتي إليَّ. كان يقول إن القدوم إليَّ أشبه بالإجازة. وهو لن يأخذ إجازة إذا كان مشغولًا بالعمل أو هناك مشكلة.

- ما سبب المشاكل؟

- أعمال البناء. كان غارقًا في المكالمات لمدة شهرين. يتحدَّث في التليفون ثم يخرج فجأة. أظن أنه كانت هناك مشكلةٌ في السيولة. لم يواجه أزماتٍ مالية في العادة، لكن مؤخرًا بدأ يغضب من مصاريفي. لم يكن بخيلًا أبدًا في المعتاد. كنا نسافر إلى الخارج في الإجازات. سافرنا إلى لندن

وباريس في العام الماضي، وتسوقت كما يحلو لي. لكن عندما طلبت مالًا هذا الصيف لأشتري ملابس جديدة، كان مترددًا وهو يعطيني إياه. حتى إننا لم نأكل في الخارج مؤخَّرًا.

- ربما هناك امرأةٌ أخرى...

لم أتم جملتي. حتى الخائنون لا يتحملون أن تتم خيانتهم.

- فكرت بذلك، لكن كنت سأعرف إن كان صحيحًا. كما أنه كان دائمًا في بيته أو بيتي. اعتدت الاتصال بـ«أوزجان» لأعرف ماذا يفعل «عثمان» في الليالي التي لا يكون عندي فيها. «أوزجان» كان يعرف مكانه دائمًا.

لم أشأ أن أقول لها أن «أوزجان» قد يكون كاذبًا.

- كما أنه لم يمل مني. الأمر ليس هكذا أبدًا. بالتأكيد كانت المشكلة في السيولة. حتى إنه ندم على شراء سيارةٍ جديدة. سمعته ذات مرَّة يقول في التليفون إن هذه الفترة صعبة بسبب الأزمة الاقتصادية. كان يفكر في بيع السيارة باهظة الثمن. أردت حقًّا سيارة «رانج روفر»، لكنني لم أحب أن أطلب منه. كيف أطلب منه سيارة «رانج روفر» بعدما انزعج لأنني اشتريت بضعة تيشيرتات مزيفة من ماركة «سيسلي»؟ يجب أن أكون منطقية.

- متى بدأت الضائقة المالية؟

- في البداية كان يقول إنه لم يتأثر بالأزمة الاقتصادية. وهذا صحيح. سافرنا إلى أوروبا العام الماضي، وكانت الأزمة في بدايتها. لكن لاحقًا هذه السنة تغيَّر الوضع.

- لهذا قرر الدخول في مجال المقاولات؟

فكرت «إنجي» في سؤالي بينما تشير إليَّ بسبَّابتها ووسطاها بأنها تريد سيجارة. فناولتها علبة السجائر. قالت:

- لم يخطر ببالي أن مشكلة السيولة وأعمال المقاولات مترابطان. لكن أظنكِ على حق. كان يدرس المشروع ثم... حسنًا، أظن أن المال نفد. لم يكن بارعًا في ادِّخار المال. هناك كثير من الأقارب المحتاجين. فعائلتهم ليست كعائلتي أو عائلتكِ. العائلات ضخمةٌ جدًّا في الشرق. احترقت قريتهم أثناء الحرب، وجاء كثير من الناس إلى إسطنبول. كيف سيجدون عملًا؟ يأتون إلى «عثمان» بالطبع. حتى المتورطون في الثأر كانوا يأتون إليه طلبًا للمساعدة. هل ما زال الثأر يسري في هذا العصر؟ كان الناس جائعين. أرادوا الرحيل بعيدًا، لكنهم فقراء. هل تتصورين ذلك؟ من استطاعوا المجيء إلى إسطنبول كانوا أغناهم. أمَّا الفقراء منهم ذهبوا بالكاد إلى «ديار بكر» أو «أضنة»، حيث عاشوا بجوار مقالب النفايات ينبشون فيها. هناك سكان في هذا البلد لا يملكون ثمن تذكرة الأتوبيس إلى إسطنبول. لهذا عمل في المقاولات ليوفر فرص عملٍ لأقربائه وأهل قريته.

- هل كان من بين هؤلاء القرويين من ينتمي للطرف الآخر من الثأر؟

- نعم. لقد ضاق بهم الحال لدرجة أنهم تسوَّلوا العمل والمال. اقترحوا هدنة. أعطاهم «عثمان» مالًا على الأرجح، لأنه لم يملك فرص عمل لكل هذا العدد. كلهم فلاحون، رجالٌ يعملون في الحقول وتربية الماشية. ماذا سيعملون في المدينة؟ حتى عامل الجراج يجب أن يجيد القيادة على الأقل.

- إذًا، نفدت السيولة المخصصة لأعمال المقاولات.

- هذا ما أظنه. فكري في الأمر...

- هل اشترى أراضي ليبني عليها؟

- لا أعرف. أظنه وجد أرضًا في حي «قاسم باشا»، لكن كما قلت، إنه لم يتحدث معي بشأن العمل. سمعت فقط بعض الكلام من اتصالاته. ذكر حي «قاسم باشا»، لكنه لا يدير عملًا هناك. ربما كان يشتري جراجًا. لكن لا. بالتأكيد يتعلَّق الأمر بالمقاولات.

- هل سمعتِ أي أسمٍ آخر خلال محادثاته؟

لم يذكر أبدًا أسماء الناس. كان يخاطب الجميع بـ«أخي».

صمتت قليلًا، ثم هزَّت كتفيها، وأضافت:

- أو ربما لم أسمع جيدًا.

وضعت «إنجي» يدها على فمها ونظرت للسقف بتفكيرٍ عميق، ثم قالت:

- مهلًا، هناك «تيمال». يا له من اسمٍ غريب. تفاجأت عندما سمعته أوَّل مرة. له رنين مناطق البحر الأسود. أربطه دومًا بالدعابات، لا أعرف لماذا. لم أصدق أذني عندما سمعت «عثمان» يتحدَّث مع شخصٍ يُدعى «تيمال». لقد علق في ذهني لأنه ذكره كثيرًا مؤخَّرًا. أظن أن «عثمان» كان مدينًا له بالمال ولم يستطع السداد.

أحيانًا لم يكن يجيب على التليفون إذا كان هو المتصل.

- هل تعرفين لقب عائلته؟

- لا، لا أعرف. لكنه بالتأكيد يعمل في المقاولات والجراجات أيضًا. سمعت «عثمان» ذات مرَّة يقول: «أنا مضغوطٌ للغاية حاليًا، لكني سأدبر لك المال. أعطني بعض الوقت».

صمتنا بعض الوقت. عبثت بكأس الـ«ويسكي» الفارغة. يجب ألا أن أشرب الكحول على معدةٍ خاوية، لكن دخلت المطبخ وسكبت لنفسي كأسًا أخرى. عُدتُ لغرفة الجلوس والثلج يصدر صوتًا في الكأس. حان الوقت لأشرب وأرحل.

كانت «إنجي» جالسة تضبط ببلوزتها وجيبتها. سألتها:

- ما الأمر؟

- خطر ببالي شيء، لكني لست واثقة. كنت أفكر في مكالمتي مع «عثمان». أظن أن أحدهم طرق الباب بينما كنا نتحدَّث. ثم أغلق «عثمان» الخط بسرعة، أنا متأكدة.

كانت مكالمة قصيرةً جدًّا. كان يحاول إنهاء المكالمة على كل حال، لكنه أغلق بسرعة بسبب طرق الباب.

- هل أنتِ واثقة؟

- لا، لست واثقة. لم أفكر في تلك المكالمة من قبل، بل نسيتها تمامًا. أما حين أتذكرها الآن، أشعر كما لو أنني أدركت شيئًا فجأة، لكن بلا أساس أستند عليه.

أخشى أن تكون مجرد أوهامٍ بسبب محاولتي لإيجاد أدلةٍ في تلك المكالمة.

- بالطبع، فهناك كثير من الاحتمالات.

فكرت «إنجي» لحظاتٍ، ثم كررت:

- نعم، هناك كثير من الاحتمالات.

سألتها:

- هل تعرفين عم «عثمان»؟

- لم أقابله قط. قال «عثمان» إنه مخبولٌ وكسولٌ ولا فائدة منه.

- هل تعرفين أن الإخوة حاولوا إلصاق التهمة به؟

- حقًّا؟

- أنا متأكدة أنه لم يفعلها. حتى سلاح الجريمة لا يناسب العم. إنه مسدسٌ لا يحمله إلا خبير.

- كيف عرفتِ؟

- أعرف القليل عن الأسلحة.

ها ها، يا لسخافتي!

- لا، أعني كيف عرفتِ نوع السلاح الذي قتل «عثمان»؟

حككت أنفي، وقُلتُ:

- سألت الضابط الذي يتولى التحقيق.

- تقصدين «باتوهان» بك؟

- نعم.

- إنه وسيمٌ جدًّا، صحيح؟ أعشق الرجال السمر، ربما لأنني شقراء. بشرتكِ جميلةٌ أيضًا. ما لون شعركِ الطبيعي؟

- بني فاتح.

قالت وهي تنظر للسقف بشرود:

- لونكِ الطبيعي يناسبكِ أكثر. لكن «باتوهان» بك رجلٌ جاد، وهذا يجعل النساء يلزمن حدودهنَّ. لو صحَّت الإشاعة التي تربط بين طول أنف الرجل وعضوه، فلا بد أن عضو «باتوهان» بطول ذراعي.

ثم فردت ذراعها لتوضح لي الحجم.

بصراحة، لم ألحظ أبدًا طول أنف «باتوهان»، لكني أعرف عنه ما يدعم نظرية «إنجي» المتعلقة بالنسبة بين طول العضو الذكري والأنف. لم أتفوه بكلمةٍ بالطبع، بل تنحنحت لأعبر عن ضيقي بالموضوع ورغبتي في تغييره. هل هذه الإشارة لها المعنى نفسه في الثقافات الأخرى؟ لا أعرف، لكن هذه هي الشفرة التي يستخدمها الأتراك لذلك. إنهم لا يتحدَّثون بوضوحٍ أبدًا، لذلك لديهم مجموعة شفرات.

قالت «إنجي» بنبرةٍ أشبه بالتوبيخ:

- ما المشكلة في هذا؟

- لا شيء.

عدنا للصمت، فشربت كأسي دفعةً واحدة ثم قالت «إنجي»:

- إذًا، تقولين إنهم يحاولون إثبات أن العم هو القاتل! ربما كانوا مُحقِّين. لم أفكر بذلك. ألم يسرق المال؟

يا إلهي! نسيت أن أسأل «باتوهان» ماذا حل بالمال. يا لي من حمقاء. إنه لم يذكر الأمر أيضًا. أو ربما فعل؟ رأسي يؤلمني. لا أتذكر عما إذا كنت تحدَّثت مع كل شخص. هل أبدأ في تسجيل محادثاتي؟

قُلتُ لها:

- نسيت أمرها تمامًا. عندما تكلمين «أوزجان» اسأليه سؤالًا عابرًا عن المال.

قدت حتى شقة «سليم» وأنا شبه سكرى. ما كنت لأفعل هذا أبدًا في العادة، لكنني لن أتحمل العودة صباحًا إلى شقة «إنجي» لآخذ السيارة لو تركتها هناك.

قابلني «سليم» على الباب وهو يبتسم بسعادة. أشعر كما لو أننا نمارس لعبةً من مجلةٍ نسائية عن كيفية الحفاظ على العلاقة بالابتعاد قليلًا أو الذهاب في إجازاتٍ منفصلة. «عشرة طرقٍ لإثارة العواطف في العلاقات». إنها الاقتراحات التي تثير اشمئزازي. ماذا تعرف المرأة عن علاقات الحب المشتعلة أو الإثارة، خاصةً إن كانت غبيةً لدرجة اللجوء لتلك المجلات من أجل «إثارة العواطف في العلاقة»؟ هل الكاتبات المسكينات يضطررن لسماع هذا الشرح حتى يكتبنه للناس؟ لماذا لا تنشر مجلات الرجال نصائح كهذه لقرائها؟ هل هي مسؤولية النساء وحدهُنَّ أن يشعلن العلاقة ويطلن عمرها ويحققن النشوة الحسية المثيرة؟!

لو أن هذه هي مسؤولية النساء في هذا العالم، فهذا لا ينطبق على علاقتنا. ليس في تلك الليلة على الأقل. قام «سليم» بمحاولةٍ شجاعة لتجربة النشوة المثيرة. فقد استقبلني على الباب ووضع يديه على أردافي ثم داعب عنقي بوجهه. دفعته برفقٍ شديد حتى لا أجرح شعوره، فعقلي مشغولٌ بأمورٍ أخرى. إن ممارسة الحب تحتاج لانتباهٍ كامل من الجسد والعقل. أما ذهني فمشغولٌ عن واجباتي النسائية بجريمة قتل.

ذهبت للثلاجة مباشرةً. ثلاجة «سليم» فخمةٌ جدًّا. لا أعرف لماذا. ربما أحضرها من المنزل الذي عاش فيه مع زوجته السابقة. لم أسأله ولن أفعل. أكره الاستماع إلى ذكريات أحبائي في علاقاتهم السابقة. ومن لا ينزعج من هذا؟ لكن هذا أوَّل ما تتم مناقشته في بداية أي علاقة. الرجال يفعلون ذلك أكثر من النساء. أما المرأة فتحاول دومًا إقناع حبيبها أنه حب حياتها. والرجال يصدقون، لأن هذا ما يريدون تصديقه. إنهم يكرهون سماعها تشكو من أحبائها السابقين، لكنهم يحبون أن يسردوا مأساوياتهم.

فتحت الثلاجة فلم أجد شيئًا. أو بالأصح، لم أجد ما يعجبني. هناك برطمان مسطردة فرنسية بها حبوبٌ صغيرة، «ديجون»، إنه النوع الذي أحبه. هناك أيضًا بيضتان لا أعلم منذ متى وهما في الثلاجة، وعلبة لبن ساري الصلاحية، وموزةٌ سوداء أوشكت على التعفن. وأخيرًا، هناك مجموعةٌ هائلة من الكحول.

سألته وهو في غرفة الجلوس:

- ماذا أكلت؟

من الواضح أنه قادمٌ إلى المطبخ وهو يتحدَّث، لأن صوته بدأ يرتفع تدريجيًّا. قال وهو يمرر أصابعه صعودًا ونزولًا على ظهري:

- أنا أيضًا جائع. هل أطلب البيتزا؟

قُلتُ باستياء:

- بيتزا؟ تقصد قطعة عجين.

- هناك محلات كباب لديها خدمة التوصيل.

يا له من خيار! بيتزا أو كباب. كلاهما أسوأ من الآخر. قُلتُ:

- بيتزا.

أسوأ ما في طلب الطعام بالتليفون هو الجوع القاتل الذي تشعر به أثناء الانتظار. أشعلت سيجارةً لأسكت صرخات معدتي. فكرت في أنني سأشيخ قبل أواني حقًّا لو استمرت حياتي على هذا النحو.

سألته:

- هل تستطيع معرفة اسم شركةٍ إن أعطيتكِ اسم أحد مساهميها؟

كان يتابع فيلمًا مملًا ولا يرغب في الإزعاج على ما يبدو، لذلك رد باختصار:

- نعم. هل طلبتِ كولا؟

هكذا ستكون حياتنا لو كنا متزوجين.

اتصلت بـ«سليم» في ظهر اليوم التالي. كان في المحكمة صباحًا، وقال إنه لن يستطيع البحث عن اسم شركة «عثمان» بعد ذلك.

سألته:

- ماذا حدث؟ هل عرفتهم؟

- عرفت ماذا؟

قلت بعصبية:

- باقي المساهمين في شركة «عثمان قرقاش».

- لقد نسيت تمامًا يا قطتي. جيدٌ أنكِ اتصلتِ. أخبريني اسم الرجل مجددًا، وسأرسل شخصًا يبحث في الأمر فورًا. اسمعي، سأتصل بكِ لاحقًا. سيذهب موظفي إلى مكانٍ قريب في منطقة «أمينونو» ليجمع المعلومات.

سيقتلني الغيظ إن لم أتمالك نفسي.

فكرت في مشكلة حبيب «بيلين» لأمضي الوقت. بدأت تلين، لكن ماذا عساها تفعل؟ فهي لا تريد قضاء حياتها في منزلي.

رنَّ التليفون فطرت إليه. كان «سليم».

- هذا الرجل ليس مساهمًا في أي شركةٍ يا قطتي. أرسلت المحامية التي تتدرب عندي لتتقصى أمره. إنها فتاة ذكية وكانت ستعرف كل المعلومات لو كانت موجودة.

أخبريني مجددًا، ما المجال الذي يعمل به؟

دائمًا أضطر لتكرار كلامي لـ«سليم» لأنه لا يستمع إليَّ.

- كان ينوي الدخول في مجال المقاولات.

- إممم. هل بدأ في أعمال البناء بالفعل؟

- لا أعرف. أظنه اشترى أرضًا في «قاسم باشا».

- حي «قاسم باشا»؟

- نعم.

- حسنًا، هذا تابعٌ لبلدية «باي أوغلو». بالتأكيد حصل على تصريح بناءٍ من هناك. سأرسل «أسو» للبلدية كي تسأل قسم التصاريح، كما أنني أعرف موظفًا هناك.

سيعرفان إن كان حصل على تصريح بناءٍ أم لا.

- هل تقصد موظفًا تعطيه البقشيش؟

ضحك، وقال:

- أرأيتِ؟ إن البقشيش الذي أدفعه يفيدكِ كما يفيد عملائي.

ماذا أقول؟ إنه مُحقٌّ.

بعد نصف ساعةٍ رن موبايلي. سمعت صوت امرأةٍ تقول:

- «كاتي» هانم؟

- نعم، أنا.

- أنا أعمل في مكتب «سليم» بك. اسمي «أسو كيتينجي»، محامية تحت التمرين. طلب مني «سليم» أن أتصل بكِ. لقد غادرت البلدية للتَّوّ. إن مهمتي كانت لصالحكِ على حد علمي. هل أستطيع القدوم لأبلغكِ بما توصلت إليه؟

- اذهبي إلى مقهى «كافيه هاوس» عند مترو «تونيل». إنه أقرب إلى البلدية من محلي. سأصل خلال عشر دقائق.

وصلت بأسرع ما يمكنني.

مترو «تونيل» هو ثاني مترو في العام بعد مترو لندن، وقد بناه الإنجليز أيضًا. إنه يغطي مسافةً قصيرةً جدًّا للأسف، محطة واحدة. يمر تحت منحدر «كوليديبي»، ويصل بين البحر وشارع «استقلال»، وهو شارعٌ تجاري مزدحم متفرع من ميدان «تقسيم». «تونيل» هو اسم المنطقة التي تضم مدخل المترو الصغير في شارع «استقلال». اِفتُتِح كثير من البارات والمقاهي هناك خلال السنوات القليلة الماضية، ومنها مقهى «كافيه هاوس».

تعرفت على «أسو» هانم فور دخولي. لا يمكن أن لا ألاحظ شعرها المستقيم القصير المحيط بوجهها، وبلوزتها المزررة بالكامل. في رأيي، تبدو طموحةً جدًّا وربما تنافس «سليم» في المستقبل على لقب أغنى مُحامٍ في إسطنبول. وقفت «أسو» لتصافحني. من الواضح أنها تحسن التصرف، فأنا بالطبع حبيبة رئيسها وعليها احترام ذلك.

قالت:

- أعطت البلدية قطعة أرضٍ لـ«عثمان قرقاش».

لو كنت مكانها لبدأت الثرثرة قليلًا، لكنها لم تضع الوقت ودخلت في صلب الموضوع.

- ماذا تعنين؟

- أعني أن البلدية باعت له أرضًا بسعرٍ أقل من سعر السوق. يجب أن يوافق مجلس المحافظة على هذا. تمت الموافقة على تخصيص الأرض في يونيو الماضي.

- هل تقصدين أن البلدية منحت أرضًا من أراضيها لفردٍ واحد؟

- لا يا سيدتي. لقد أسَّس «عثمان قرقاش» شركة مقاولات تعاونية لبناء العقارات السكنية، أو - تحريًا للدقة - كان يعمل على ذلك. هذه الأمور تستغرق وقتًا.

عليكِ انتظار موافقة وزارة التجارة والصناعة على إنشاء شركةٍ تعاونية. مع ذلك، يستطيع الأعضاء المؤسسون شراء الأراضي قبل الانتهاء من إجراءات بدء الشركة.

يمكنهم أيضًا تسجيل أسمائهم. هذا قانوني تمامًا. لا أعرف ما مصلحتكِ في هذا، لذا...

قاطعتها:

- كيف عرفتِ بشأن تخصيص الأرض؟

- أمرني «سليم» بك بالذهاب إلى قسم التصاريح في البلدية. نتعامل مع هذا القسم من حينٍ لآخر لأجل عملائنا. لهذا لدينا صلاتٌ هناك. قابلت «عرفان» بك. لقد تذكر اسم «عثمان قرقاش» فورًا، وعرف أنه تم بيع أرضٍ لشركةٍ تعاونية تضم «عثمان» بين أعضائها. اسمها «شركة نيشيكينت التعاونية للعقارات السكنية». إن شئتِ، أستطيع الحصول على ملفها من إدارة التجارة والصناعة.

- هل معكِ عنوان لهذه الشركة التعاونية؟

- نعم يا سيدتي. إنها في شارع «باباغان»، في «كوليديبي».

- هل عرفتِ أسماء باقي الأعضاء المؤسسين؟

- نعم يا سيدتي. لحظة من فضلكِ.

- سئمت من تعاملها الرسمي.

بحثت في حقيبة أوراقها وأخرجت قائمة أسماء. نظرت إليها فوجدت سبعة أشخاصٍ ينتمون لعائلة «قرقاش»، و«أوزجان» ليس بينهم. لكني وجدت اسم «تيمال».

لماذا لا يوجد اسم «أوزجان» بينما هناك اسم «تيمال»؟

اتصلت بـ«سليم» عندما عُدتُ للمكتبة.

قال:

- نادرًا ما توزع البلدية الأراضي، وبالتأكيد ليس لأشخاصٍ نكرة مثل هؤلاء. سمعت عن أراضٍ تُخَصَص لفنانين ومُحامين، لكن ليس لمُتشرِّدين. لا بُدَّ أنهم دفعوا ثروة.

- هل يجب أن ينظم مجلس المحافظة هذه العملية؟

- يمكن أن تتولى البلدية الأمر، لكن على المحافظة الموافقة عليه، وهذا ليس صعبًا. على كل حال، إن رئيس بلدية «باي أوغلو» ومحافظ «إسطنبول» ينتميان للحزب نفسه. لذلك لن يقوما بإعاقة أعمال بعضهما. هذا يحدث فقط إن كانا ينتميان لحزبين مختلفين. لا أعرف كثيرًا عن شؤون البلدية لأنني لا أعمل على قضايا تتعلَّق بها كثيرًا. في العام الماضي استخرجت تصريح بناءٍ لأحد العملاء، هكذا تعرفت على «عرفان»، لكنني أعرف شخصًا على درايةٍ واسعة بمجلس بلدية «باي أوغلو».

لن تجدي أفضل منه. «باكي» يعرف كل شيء؛ تخصص كل موظف، والمبلغ الذي تدفعينه، وكيف تدفعينه. إنه يملك عشرة مطاعمٍ في «باي أوغلو»، ويصنع أفضل أطباق سمك الـ«بينيت» المخلل.

- أذكر أننا تناولنا سمك «بينيت» مخللًا في بارٍ يسمى «خيوس»، صحيح؟

- نعم، في «باليك بازاري». نسيت أنني اصطحبتكِ إلى هناك. «خيوس» هو الاسم اليوناني لجزيرة «ساقز». ينحدر «باكي» من جزيرة «ساقز»، أعني عائلته بالطبع.

استقروا في إسطنبول منذ سنواتٍ طويلة. عشر أرباحه يأتي من المطاعم والبارات، أما الباقي فمن أعماله مع المجلس. سأتصل به وأجعله يتحدَّث معكِ. هل يمكنكِ الذهاب الآن إن كان متفرغًا؟

- بالطبع.

لن أفوت هذه الفرصة أبدًا.

خرجت «بيلين» لتأكل بينما انتظرت مكالمة «سليم». رأيت شاحنةً تحاول المرور من شارعنا الضيق وهي تصطدم بالأشياء يمينًا ويسارًا. أشعلتُ سيجارةً، وراقبتُ جهود الرجال من خلال واجهة المكتبة. بدأتُ أدخن سجائر خفيفة التأثير منذ فترةٍ قصيرة، والنتيجة هي أنني أصبحت أدخن أكثر. إما أن السجائر الجديدة هي السبب أو هو التوتر. خطر لي فجأةً أنني ربما أشعر بالتوتر لأنني على وشك الوصول إلى سن اليأس. أخافتني الفكرة، بل أفزعتني. لا أعرف متى تبدأ سن اليأس في العادة. لست مهتمةً بإنجاب الأطفال. في الواقع، لم أنظر أبدًا إلى طفلٍ وأقول «ما أجمله». مع ذلك، إن فكرة سن اليأس ليست محببةً للنفس. حتى المصطلح نفسه ليس جذابًا.. سن اليأس. إنه يستحضر في ذهني صورة امرأةٍ واهنة وعصبية وعروق رقبتها ظاهرة. أخرجت علبة البودرة من حقيبتي. ليس لأضع البودرة على أنفي، لكن لأنظر إلى وجهي في المرآة الملحقة بها. نظرتُ لنفسي وكأنها المرَّة الأولى. دققْتُ في ملامحي كلها. هل هذا وجه امرأةٍ على وشك الدخول في مرحلة سن اليأس؟ بشرتي نضرةٌ كما يُفترض أن تكون. لقد أنفقتُ ثروةً على الكريمات والمستحضرات التي تحتوي على مكوناتٍ غريبة مثل «DNA» و«RNA» وبيض السلمون.

أخرجت لساني لنفسي في المرأة. الأحمق فقط من يظن أنني سأبدأ سن اليأس. لقد أصبحت متوترةً فقط بسبب «سليم»، ولا علاقة لسن اليأس بهذا.

لكن هذا الاستنتاج لم يرحني. لقد تصالحت مع «سليم» بالفعل، إذًا لماذا ما زلت متوترة؟ جريمتا القتل هما السبب بالتأكيد. إن هاتين الجريمتين كافيتان ليشيب الشعر. بالإضافة إلى ولعي الشديد بالتحقيق، صحيح؟ لماذا أهتم بمقتل رجلٍ وامرأة؟

نعم، لماذا أهتم؟

ليتني أستطيع تصديق ما يحدث لي!

(9)

بعد ساعةٍ وجدتُ نفسي جالسةً في بارٍ مع الوسيط الذي عرفني به «سليم»، إنه أسمن رجلٍ رأيته في حياتي وما زال قادرًا على السير. لم يستطع الجلوس على كرسيٍّ عادي، لذلك أحضروا له كرسيًا ضخمًا، أو بالأحرى مقعد فوتيه. كان يلهث بينما يتحدَّث. لا بُدَّ أن قميصه مقاس 70 على الأقل، إن كان هناك هذا المقاس أصلًا. عروات الأزرار مشدودةٌ عن آخرها، وكأن يدين تجذبان جانبي القميص بقوة. يظهر جلده الوردي وبعض الشعر من بين الشقوق. ليس مقززًا، بل كان مثيرًا للاهتمام، فهو أشبه بكائنٍ غريب يستحق الفحص والدراسة أكثر من كونه بشرًا. كان يلهث كالكلاب، فأنفاسه متلاحقة ولسانه يخرج قليلًا. رأسه صغير مقارنةً بجسده، لكنها ضعف حجم رأسي. أعني أن حجم رأسه يعتبر صغيرًا بالنسبة لحجم جسده.

كان يميل على الطاولة ويستند بأصابعه الضخمة، يبدو أنها تدعم توازنه بينما يميل وهو يتحدَّث. سألني:

- لماذا تهتمين بهذه الإجراءات؟

كان الجرسونات يتحركون حولنا ليجهزوا البار من أجل المساء. جاء أحدهم إلينا، وقال:

- هل أحضر بعض الشاي أيها الرئيس؟

- هل تريدين تناول شيئًا؟ إن المقبلات طازجة. سآمر الموظفين بإحضار البعض لكِ.

- لا بأس بالشاي، فأنا لست جائعة.

بصراحة.. لم آكل شيئًا منذ البيتزا مساء أمس، لكن الجلوس مع رجلٍ بدين يُفقِدك الشهية.

قال إنه سيشرب الشاي أيضًا، ثم قال لي:

- بدأت نظامًا غذائيًّا بأوامر الطبيب. فقدتُ ثلاثة كيلوجرامات.

ابتسمتُ، وهززتُ رأسي، بينما أفكر في أنه لا يضر المحيط إن خسر بضع قطرات، وهكذا حال هذا الرجل مع وزنه.

أشار لكرشه، وقال:

- من السهل اكتساب الوزن، لكن الصعوبة في خسارته.

حاولت أن لا أنظر إلى جلده الوردي ما بين شقوق الأزرار، وابتسمت مجددًا.

- ما علاقتكِ بـ«سليم» بك؟

- أنا حبيبته.

- إنه من أفضل عملائي، وهو رجلٌ شريف. ساعدني كثيرًا في فترةٍ من حياتي. أخي شخصٌ متهور. إنه ذكي، لكنه تورط مع الأحزاب السياسية.

قُلتُ:

- لو كان ذكيًّا لانضم للأحزاب اليسارية.

لم يعلق «باكي» بك، لكنه رفع يده بصعوبةٍ ليحكَّ خدَّه، وقال:

- لا يورط «سليم» بك نفسه في السياسة.

- صحيح، إنه يتولى القضايا التجارية.

- خذيني أنا مثلًا. أنا لا أقدِّم اللحم أو الكباب، فخبرتي تكمن في السمك، لذلك أتخصص فيه. يجب أن يعمل الجميع في المجال الذي يبرعون فيه. هذا هو طريق النجاح. أستطيع معرفة مدى صلاحية السمك من على بُعد عشرين مترًا. لا أقدم سوى الأسماك في مطاعمي. ما فائدة افتتاح مطعم كباب لمجرد أنه عملٌ مربح؟

مال للأمام ووضع ملعقتين من السكر في الشاي، ثم كرَّر سؤاله:

- لماذا تهتمين بإجراءات المجلس؟

فكرتُ في إجابةٍ لهذا السؤال قبل قدومي. قُلتُ:

- أملك مكتبةً في «كوليديبي». لا بأس بسير العمل، لكن...

- سيتحسن الوضع إن شاء الله.

- اقترح أحد أصدقائي أن أفتتح بارًا هنا. لم نحدد مكانًا بالضبط، لكن عندما ذكرك «سليم» فكرت في كيفية تكوين علاقاتٍ وصلاتٍ مع من في المجلس.

- من الجيد أنكِ أتيتِ إليَّ قبل شراء المكان. هناك أمورٌ يجب وضعها في الحسبان. مثلًا، يجب ألَّا يقل بُعد المبنى عن مائة مترٍ من أي دار عبادةٍ أو مدرسة أو مركز تدريب. وكلمة دار عبادة تشمل المساجد والكنائس والمعابد اليهودية. إنهم حازمون في هذه القاعدة. يجب أن تتأكدي من الموافقة على المكان قبل تأجيره. ففسخ العقود مكلفٌ جدًّا.

- لا يوجد مكان في «باي أوغلو» يبتعد بما يكفي عن دور العبادة والمدارس، لذلك من المستحيل افتتاح بارٍ هنا.

- هذا صعبٌ طبعًا. لذلك يفضل الناس الحصول على المباني المرخصة بالفعل، لكن هذا يرفع السعر كثيرًا. نحن نتحدَّث عن مئات الآلاف من الدولارات. هكذا تسير الأمور. البداية صعبة،

فهناك التعامل مع المجلس والشرطة والمافيا. مسائل لا تنتهي. الأعمال الليلية صعبة، خاصةً لامرأة. فأنت ستبدئين العمل مع عودة «سليم» إلى المنزل. عمل البار لا يناسب الحياة العائلية.

شربت الشاي.

إذًا، فالتراخيص لا تُمنح غالبًا إذا استحكمت القواعد.

- الأمور ليست سيئة كالماضي. بعض الناس يديرون أماكن بطريقةٍ غير قانونية وبلا تراخيص. هناك بارات في أماكن لا تتخيليها، حيث يستمع المراهقون إلى أغانيهم الصاخبة الغريبة، ويشربون البيرة، ويتعاطون كل أصناف المخدرات. لو ذهبت الشرطة لتفقد الوضع، سيدفع المالك رشوةً بسيطة فتتجاهل الشرطة ما يحدث.

هكذا تسير الأمور بمبدأ «نفَّع واستنفع». أملك شقةً هنا في شارع «استقلال». افتتح أحد الأشخاص بارًا غير قانوني في القبو ويشغل الموسيقى طوال الليل. بووم بووم بووم. آسف، إنها تربك الذهن. أحاول إغلاقه منذ سنة. وفي النهاية لجأت للقضاء، لكنهم حرصوا دائمًا على إبعاد الشرطة. وإذا ذهبت للبلدية، قالوا إنهم لا يملكون السلطة للتصرف. هذا فظيع. إلى من تلجئين؟ عرضت الشقة للإيجار. لديها منظرٌ خلاب يطل على البوسفور، كما أنني وضَّبتُها جيّدًا من الداخل، لكن لا يبقى المستأجرون أكثر من شهر. فلا أحد يحتمل هذا الوكر الصاخب. إنهم يبيعون البيرة بقروشٍ معدودة، لا أعرف كيف يربحون. لا بُدَّ أنهم يبيعون شيئًا آخر.

لكن لا يمكن إثبات ذلك. وحتى لو استطعتِ إثباته، ماذا سيحدث؟ لقد اشتروا الشرطة بالفعل. فمن دون تعاون الشرطة لا يمكنهم بيع المخدرات. كلهم مُرتشون.

إنهم حثالة، معظمهم كذلك.

- ما دمت لا تعمل في استخراج التراخيص الآن، إذًا ما علاقتك بمجلس البلدية؟

- هناك كثير من الأعمال يا آنستي. فمثلًا، إن صدر حكمٌ بالإغلاق على أحد المحلات لأنه يشغل موسيقى صاخبة، يأتي المالك إليَّ لأرفع له الحكم. كما أملك صلاتٍ بمركز الإطفاء. أستطيع المساعدة في استخراج تراخيصٍ من هناك. أقوم بكثيرٍ من الأعمال.

- كيف يخصص مجلس البلدية أراضي؟

- الآن دخلتِ في الكلام المهم. هذا خارج حدودي. عليكِ التعامل مع جهاتٍ عليا جدًّا.

- رئيس المجلس؟

لا يمكنك تنفيذ الأمر عبر مجلس البلدية. أظن أنه عليكِ الوصول إلى المحافظة. فهم لا يوزعون أراضي على الناس الذين يقدمون استماراتٍ عادية. تحتاج العملية إلى كثير من الرشاوى والمعارف. فالحصول على أرضٍ من البلدية من أجل نادٍ رياضي أو بيتٍ مسالمٍ مثلًا ليس بالأمر السهل، خاصةً بالنسبة للعقارات السكنية.

- ماذا عن الشركات التعاونية؟

- لا أستطيع القول إنه لا يحدث، لأنه يحصل فعلًا. فمثلًا، منح مجلس بلدية «شيشلي» قطعة أرضٍ لشركة «بارو» التعاونية، لكن كانت المنطقة تضم كثيرًا من الإسكان غير القانوني، وكانت إزالته مكلفةً جدًّا لدرجة أنهم عجزوا عن بدء البناء. حدث هذا منذ ست أو سبع سنوات عندما بدأ بيع الأراضي الحكومية. لا أعني أن تخصيص الأراضي عملٌ غير مربح. لكن إن وزع المجلس أرضًا ربحها التجاري مؤكد، فهي لن تخرج أبدًا عن دائرة معارفه. لن يبيع إلى شركة «بارو» التعاونية أو إلى نقابة الأطباء، وبالتأكيد ليس لأشخاصٍ مثلي ومثلكِ.

- لكي أحصل على أرضٍ من المجلس في منطقة «باي أوغلو»، مَن عليَّ أن...؟

لم أستطع إكمال سؤالي.

- هل تخلَّيت عن فكرة افتتاح بارٍ أم لا؟

- أنا أسأل من باب الفضول فقط.

- هذه الأمور تحتاج إلى كثير من العمل. لا أعرف الإجراءات، لكني أظن أن الأمر بيد رئيس البلدية أو النائب. إن «باي أوغلو» تحت سيطرة الأحزاب الدينية حاليًا.

كان الأمر مختلفًا في الماضي أثناء سيطرة الديمقراطيين الاشتراكيين. كنتِ تستطيعين الجلوس والاتفاق مع الموظف المنشود. هو يخبركِ بالمبلغ الذي يريده وأنتِ تدفعين له نقدًا. وهكذا انتهت الصفقة. أما الأحزاب الدينية فتختلف. إنهم لا يأخذون الأموال لأنفسهم. يذهب جزءٌ من أي رشوة إلى خزنة الحزب، والباقي يأخذه الأعضاء. هل يتحسن حال أعضاء الأحزاب الديمقراطية الاشتراكية؟ لا. لماذا؟ لأن كل ما يفكرون به هو زيادة ثرواتهم الخاصة. أما الأحزاب الدينية فتختلف. إنهم ينهضون بالحزب. يفيدونه كما يفيدون أنفسهم. لا أقصد الحزب بشكلٍ مباشر. مثلًا، إن الحزب يمتلك أغنى نادٍ رياضي في تركيا، ويدر عليه ملايين. يقولون للشخص: «اذهب وتبرع بمبلغ كذا إلى نادي «هاليتش» ثم عُد إلينا بمطالبك». هذا هو أسلوبهم. لا يأخذون مالًا لأنفسهم، لكن إن ذهبتِ إليهم ومعكِ وصلٌ بالتبرع إلى النادي الرياضي، سيقضون مصلحتكِ. هذا هو الإجراء المتبع. إن أسأتِ التعامل معهم أو جادلتهم، فانسي مطلبكِ. لن تحصلي على شيءٍ إلا هكذا. هذا ليس متاحًا للجميع لأنهم لا يأخذون مالًا إلا من أشخاصٍ محددين. لا يطلبون التبرع إلا من الأشخاص الذين يثقون بهم. لو كان الأمر متاحًا للجميع، لتبرعت أنا وغيري من الأشخاص العاديين. لا، إنهم يختارون. هذه وسيلتهم لأنهم لا يريدون إشراك الجميع. إن الرجل الذي أتعامل معه يثق بي وليس بغيري، لهذا يأتي الناس إليَّ لقضاء مصالحهم في المجلس. وهذا ليس مجانًا. أنا لا أخدم بلا مقابل، لا أحد يفعل...

- إنه نادي «هاليتش» الرياضي إذًا.

لم أستغرق وقتًا طويلًا لأتذكر أين سمعت اسمه من قبل.

- حتى مع كل هذه الأموال، ما زال فريق الكرة لديهم ضعيفًا. ليس أفضل من الفرق المحلية. ذهبت إلى النادي ورأيت ما فيه. لديهم مرافق منفصلة للرجال والنساء، مثل حمَّامات السباحة وملاعب التنس. هذا ما يحبونه. إنهم يتدخلون في كل شيء. الرياضة والتعليم. يريدون أن تذهب الفتيات إلى الجامعة بالحجاب.

لو سألتهم: «ألا يفترض أن تبقى نساؤكم في البيت لتربية الأطفال؟»، ستجد لديهم ردًّا جاهزًا. سيقولون: «إن كان واجبهنَّ هو تربية الأطفال، إذًا يجب أن يكن متعلمات». فهمتِ؟ كل شيءٍ مخططٌ له. إنهم يجهزون أمهات المستقبل لتربية الجيل الجديد، فالجيل الحالي لم ينجب بعد على كل حال. كلهم رجالٌ أقوياء من أبناء هذا البلد. إنهم يحصلون على الأصوات من أبسط طبقات المجتمع. لا يصوت لهم سوى الفلاحين الجهلة الذين يعيشون في قلب القرى. لماذا؟ لأن كلًا منهم يقول لنفسه: «لا أملك شيئًا في هذه الدنيا، لذلك سأعمل لأجل آخرتي». هؤلاء الرجال يشترون أصوات الناس مقابل عملٍ أو مالٍ أو صكوك غفران. رأيت ذلك بنفسي، رأيتهم يعطون الناس صكوك غفران. يعطونكِ صكًا ويطلبون منك القسم على المصحف أنكِ ستعطيهم صوتكِ. إن زوجتي طيبة ومثالٌ على المسلم الحق.

كادت تعطيهم صوتها لولا أني غيَّرت رأيها بصعوبة، فعائلتي تؤيد «أتاتورك» بشدة. أخبرني أبي - رحمه الله - عن أفعال اليونانيين الملحدين. نحن من جزيرة «ساقز»، حيث عشنا معهم. أنقذنا «أتاتورك» من هؤلاء الكفار. لماذا سأصوت لعدوه الآن؟ مستحيل.

- كيف تقوم بأعمالٍ مع المجلس إن كان هذا رأيك؟

- الجميع يعرفني. أنا أبيع الكحول في مطاعمي وباراتي، وأشرب الخمر ليلًا. ليس لديَّ ما أخفيه، حمدًا لله. ماذا سأخفي بأي حال؟ هم من يخفون حقيقتهم.

إنهم منافقون، بينما أنا صادق. أنا مسلم أفضل من معظمهم. هذا ما أقوله لزوجتي. يوم الحساب، سأنعم مع حور العين في الجنة، بينما يشتعلون في جهنم.

هؤلاء الرجال لن يقرروا من يدخل الجنة. المسلم هو الرجل الشريف الصادق، وليس من يطيل ذقنه ويلبس عمامة.

- إذًا، تستطيع التعامل منعهم لأنهم يثقون بك؟

- بالطبع، إنهم لا يثقون ببعضهم البعض، لكنهم بحاجةٍ إلى شخصٍ يثقون به. لن يثقوا بشخصٍ يعرفون أنه مثلهم، صحيح؟ كلهم يعرفون نيات زملائهم.

كلهم يسعون خلف المال. لن يصمد بينهم رجلٌ شريف. تسير الأمور بطريقةٍ لا يحلم بها حتى الشيطان. لا أملك إثباتات، وإلا لما ترددت لحظةً في الإبلاغ عنهم.

لست مهتمًا بالمال وخلافه. لو أملك دليلًا لكشفت ألاعيبهم. لا أعرف من صاحب عبارة: «وهل يوجد وثيقةٌ لإثبات الرشوة؟!». هكذا هو الأمر. لقد أعطيت مليارات لنادي «هاليتش» الرياضي.

انحنى بصعوبةٍ ليأخذ كوب الشاي بأصابعه السمينة، ثم قال:

- لقد تحدَّثتُ كثيرًا حتى برد الشاي. أنا أشبه الثرثار الذي يتحدَّث والسيجارة في فمه فلا يستمتع بها.

ثم نادى على أي جرسون:

- جرسون! هذا الشاي مذاقه كالماء بالصابون. أحضر لنا كوبين آخرين. أم أنكِ تفضلين القهوة يا سيدتي؟

- لا، شكرًا لك.

- أنا أثق بـ«سليم» بك. سأبذل جهدي لمساعدتكِ. لو طلب مني «سليم» بك مليون دولار، سأعطيها له من دون وصل أمانة. اعذريني، لكنني أنفعل حين أغضب.

لديَّ ارتفاعٌ في ضغط الدم وسكري وما يتبعهما من أمراض. يقول طبيبي إنه عليَّ خسارة الوزن. قال إن البقلاوة والمخبوزات كالسم لي. لكن الطعام هو ما يبقينا أحياء. أعرف أنه لا يجدر بي تناول هذه الأطعمة، لكن ما باليد حيلة. إن تناول كيلو بقلاوة دفعةً واحدة لا يؤثر بي ولا يسوّس أسناني. لقد منعت زوجتي من عمل الحلويات والمخبوزات في البيت. إنها ألبانية. تلك الشقية تصنع مخبوزاتٍ شهية بالكرَّاث، تجعلكِ تأكلين أصابعكِ وراءها. ولديهم حلوى تسمى «كايماتش»، هل تعرفينها؟ بالطبع لا، وكيف ستعرفينها؟! إنها تشبه الكريم كراميل، لكن ألذُّ. يا إلهي، ما أشهاها! لا تصنعها زوجتي في المنزل، لكن الأولاد يشترونها، وهكذا آكلها أنا أيضًا.

ثم نظر إلى معدته باستياءٍ، وقال:

- كلما ازددت بدانةً، انتفخت معدتي. أعطاني الطبيب نظامًا غذائيًّا. يجب أن آكل قطعتين من الجبن حجم علبة الكبريت على الفطور، لكنني آكل كيلو دفعةً واحدة. كيف ستشبعني هذه الفتافيت؟ هل عليَّ أن أقطع الجبن إلى قطعٍ صغيرة وكأنني أعيش في ميتم؟ لكن لا بُدَّ أني قللت من طعامي وشرابي، فأنا خسرت ثلاثة كيلوجرامات في ثلاثة أسابيع.

أحيانًا يتوقف عقلي عن العمل حين أتحدَّث مع الأتراك. قُلتُ له:

- هل يمكن أن نعود إلى موضوع تخصيص الأراضي؟

- نعم، آسف. عليكِ التحدُّث مع أحد كبار رجال الحزب ثم تجعليه يتعامل مع مجلس البلدية. إنهم أغلبية في مجلس بلدية «باي أوغلو»، لا مشكلة. يمكن تدبير الأمر. يجتمع المجلس مرتين في العام، في أكتوبر ويونيو. من الصعب تجهيز أي شيء في اجتماع الشهر المقبل. لا وقت أبدًا. لكن إن أحببتِ، سأعرف موقع الأراضي التي يملكها المجلس ومن المسؤول عنها. سنحاول تجهيز المطلوب على يونيو المقبل. لكن كما قلت، هؤلاء الرجال لن يبيعونا شيئًا فيه ربحٌ لهم. إنهم يحتفظون به.

- هل ستكلم رئيس مجلس البلدية؟

- لا، فهو لا يتولى هذه الأعمال.

سألته بدافع الفضول:

- إذًا ماذا يتولى؟

- يقولون أنه جمع فريقًا يتكون من «فوزي» بك المسؤول عن مؤسسة الشؤون التاريخية، ورئيس المجلس نفسه، وصديقٍ لهما يعمل مقاولًا عقاريًّا. يعمل ثلاثتهم معًا. يختارون المباني مرتفعة الإيجار. فمثلًا هنا في شارع «استقلال»، هناك جمعيةٌ خيرية إسلامية كبيرة تعود لعصر العثمانيين. قررت مؤسسة الشؤون التاريخية تحويلها إلى فندق، ووافق رئيس المجلس على القرار. هل من الصواب تحويل جمعيةٍ خيريةٍ إسلامية عظيمة إلى فندق؟ لا، لكنه يحدث. ومن سيبني الفندق في رأيكِ؟ المقاول «طارق» بالطبع. سيقتسمون الأرباح معًا. هكذا يسير العمل. سينهبون شيئًا بناه العثمانيون وصانوه لسبعة قرون. هذا يشعل غضبي. إن لليتامى حقوقًا أيضًا. هؤلاء الرجل محتالون.

احتفظت بهدوء أعصابي وسألته:

- مع من تتعامل حاليًا؟

- مع الذراع اليمنى للرئيس، نائبه «تيمال». نناديه «زعيم» لأن هذا هو معنى اسمه. إنه من منطقة البحر الأسود. هذا هو من أتعامل معه.

بالتأكيد ظهرت الصدمة على وجهي عندما شهقت بشدةٍ وكأنني أُسرع في ماراثون، وكرَّرتُ:

- «تيمال»؟

- «تيمال إكشي»، إنه المساعد الأول للرئيس. إنه نهاية الخيط الذي تتجمع عنده المصالح. فالرئيس لن يتدخل بنفسه. كان «تيمال» مقاولًا، لهذا يستطيعون معرفة الأراضي الجيدة فيحجزونها لأنفسهم. سأسأل معارفي إن كان هناك أراضٍ ستعرض للبيع.

- في الواقع، كنت أسأل فقط. أميل أكثير لعمل البار، فأنا لا أفهم شيئًا في مجال المقاولات والبناء. أخبرني عن «تيمال».

- قبل انقلاب العشرين من سبتمبر 1980، كان يعمل في كل المجالات. اعتاد هو ورفاقه مطاردة اليساريين، لكنهم توقفوا بعد الانقلاب. ما زال يميل للتيار القومي أكثر من الإسلامي. علاقتي به وثيقة. «تيمال» هو الشخص الوحيد بينهم الذي يستحق الذكر.

- هل يحمل سلاحًا في العادة؟

- هؤلاء الناس لا يتخلون عن السلاح أبدًا. الأسوأ يأتي حين يحملون بندقيةً قصيرة، فهم يفككونها تمامًا حتى يكفي وضعها في الجيب. الذخيرة رخيصة. يستخدم الإسلاميون هذا النوع من الأسلحة، لكن «تيمال» ليس مثلهم. إنه يفضل المسدسات. إنها هوايته ولديه مجموعةٌ منها في البيت. إنه يحمل مسدس «ماجنام» ذا قبضةٍ ذهبية. يا له من أداةٍ رائعة. ذات مرَّة نشب عراكًا في مطعمي حين كان هناك، فجعلهم يرون المسدس دون أن يسحبه. قال: «إن سحبته، فلن أعيده إلا إذا أطلقت النار». هكذا هو. إنه يشرب الكحول أيضًا. إنه مختلفٌ عن الآخرين. يقول: «كيف تكون الخمر محرمة وهي موجودةٌ في كل الثقافات؟ لقد حرمها النبي على من لا يتحملها أو من يسرف فيها ». إنه مُحقٌّ.

بدأ ظهري يؤلمني، لأسبابٍ نفسيةٍ بالتأكيد. نظرت إلى ساعتي وقُلتُ:

- عليَّ أن أذهب الآن. سأعود إليك حين أتخذ قرارًا بشأن عمل البار.

- كان عليكِ تناول بعض الطعام. نحن لم نقدم لكِ شيئًا بعد.

هذا جانبٌ آخر من السحر التركي! الألمان لا يلحُّون أبدًا على ضيفهم لكي يأكل شيئًا. بالكاد يعرضون عليه بعض القهوة على مضض.

قُلتُ:

- شكرًا لك، لكنني أكلت قبل قدومي.

قال لي بينما أخرج:

- أبلغي «سليم» بك تحياتي. إنه لم يتصل بي منذ زمنٍ طويل. لا بُدَّ أن نخرج معًا ونشرب ذات مساء.

(10)

لم أعد إلى المكتبة، بل اشتريت سجقًّا حارًّا مع الكباب - وهي أحدث الأكلات التركية الشهية - ثم عُدتُ إلى المنزل، لكن عندما وصلت كان السجق المشوي قد برد، والدهن قد تجمَّد. تشبَّع الخبز بالدهون برتقالية اللون. رميتُ الطعام في سلَّة القمامة من دون تذوقه، ثم أعددتُ شايًا أخضرَ، وجلستُ على مكتبي لأكتب قائمةً بأفكاري. كتبت أولًا أكثر سؤالٍ يحيرني، على الرغم من أن إجابته لا تبدو متعلقةً بالأحداث.

من هو والد طفل «إنجي»؟

لديَّ بعض الأسئلة عن «إنجي»، وهي تحتاج إلى إجابات. مثلًا، السيدة «حفيظة» التي تساعد «إنجي» في أعمال المنزل. لست مرتاحةً إليها، فما السبب؟

هناك أيضًا الماضي المشترك بين «حبيبة بويوكتونا» و«إنجي». هذه النقطة تزعجني. إحدى السيدتين تكذب بشأن بداية علاقة «عثمان» و«إنجي». لماذا؟ من منهما على حق؟ فكرتُ في هذا لبعض الوقت ثم قرَّرتُ أن إجابته لن تفيدني في حل لغز الجريمة، فأنا أبحث عن قاتلٍ وليس كاذبًا. حذفت هذا السؤال.

النقطة الثالثة تتعلَّق بحبيب «إنجي» المتزوج. أنا واثقة من أن اسمه يتكون من ثلاثة أحرف، لكنني لا أستطيع تذكرها. لا يهم. لديَّ تصورٌ عن سير الأحداث معه لو كان الفاعل. يكتشف «عثمان» هذا الحبيب، ويستدعيه إلى المكتب. ينشب قتالٌ بينهما ويصاب «عثمان» بطلقٍ ناري، لكن هذا ليس منطقيًّا تمامًا، لأن الصورة التي رسمتها «إنجي» عن حبيب طفولتها - المهندس الذي يعمل أبوه مدرسًا - لا تناسب هذا السيناريو. علينا استخدام علم الاجتماع في التفكير. هناك ملاحظةٌ أخرى؛ لو أن المهندسين وأبناء المدرسين يسيرون مسلحين ليشعروا بالأمان، إذًا فعليَّ الهرب من هذا البلد فورًا. لو كنت أعرف أن هذه الأمور تحدث هنا، لعملت محققةً هاوية ومالكة مكتبة في أمريكا. فلا أرى فارقًا بينهما.

هناك عاملٌ آخر يفسد هذا السيناريو، إنه مقتل السيدة العجوز. لا أعرف كيف دخلت في الأحداث. حتى لو أدرك الحبيب المتزوج أن العجوز تعرفت عليه، ما الذي قد تقوله ويستدعي قتلها؟

بالإضافة إلى ذلك، ما الجدوى من قتل رجلٍ لا تواعده «إنجي» بجدية؟ بالتأكيد سيدرك الخطر الذي قد يعرضها له. اعترف الطبيب الشرعي أنه غير مقتنع بأن الرصاصة كان غرضها قتل «عثمان». في هذه الحالة أراد ابن المدرس أن يرسل تهديدًا مفادُه: «حاذر من أفعالك وإلا ستصبح حياتك جحيمًا». لم يدرك أن مسار الرصاصة سيتجاوز نياته إلى هذا الحد.

بالنسبة لـ«أوزجان» شقيق «عثمان»، لماذا لم يرد اسمه في قائمة المساهمين بالشركة التعاونية؟ هل أثر هذا في علاقته بـ«عثمان»؟ ربما تشاجرا بعنفٍ حتى أخرج «عثمان» مسدسه. فلو أن

«أوزجان» سيتولى إدارة الأعمال بعد وفاة «عثمان»، هذا يعني أنه سيستفيد كثيرًا. وهذا بالتأكيد دافعٌ قوي.

دعونا لا ننسى أن السيدة العجوز تعرف «أوزجان» على الأرجح. فلو كانت رأته يغادر المبنى ومعه مسدس، هذا يعني أنها حكمت على نفسها بالموت. من المحتمل أن «أوزجان» جرى في الشارع حاملًا المسدس، هذا لو أنه قتل أخاه، لأنه في هذه الحالة سيكون مذعورًا. لا بُدَّ أن العجوز رأته يلقي المسدس فظنت أنه القاتل. لا تفسير آخر.

هناك السيناريو المتعلق بـ«تيمال إكشي» نائب رئيس مجلس البلدية. لقد رتب لتخصيص أرضٍ لشركة «عثمان» التعاونية، لكنه لم يستطع الوصول لخزينة الحزب للدفع مقابلها. كان قادة الحزب يعيقونه، فظل يتصل بـ«عثمان» ليلح عليه في طلب المال لدرجة أنه ذهب إلى مكتبه. في ذلك اليوم الذي كاد «عثمان» يخنقني فيه على باب مكتبه، سمعت صوتًا غامضًا يناديه من الداخل. ربما كان صوت «تيمال» نائب الرئيس. السبب الذي منعه من الخروج وقتها هو أنه خاف من أن أتعرف عليه.

كان سيضطرب حين تراه العجوز من نافذتها يوم الجريمة، وسيعجز عن إبعادها عن تفكيره، لكنني فشلت في إيجاد دافعٍ لـ«تيمال» ما الذي كان سيربحه من إصابة «عثمان» وليس قتله؟ إنه يحتاجه بأفضل صحةٍ لكيً يكسب له مالًا وفيرًا يسدد به ديونه، ثم تذكرت أن الرجال الأتراك لا يفكرون بمنطقيةٍ مثلي. فـ«تيمال» كان سيطلق النار في لحظة غضب، لأنه إن سحب مسدسه، لن يعيده قبل إطلاق النار. لماذا؟ لأنه سيد الرجال وأفضلهم في نظر نفسه.. إنه رجلٌ تركي.

أما «قسمت أكان»، فسأترك الأسئلة المتعلقة بهذا الممثل المشهور السابق إلى «باتوهان». لذلك كتبت اسمه فقط على الورقة.

يبقى لدينا لاعب الكرة السابق الذي لم أكتب اسمه حتى. من الأفضل أن يثق الإنسان بغرائزه أحيانًا. بصراحة.. إن غرائزي مع القتلة ما زالت ضعيفة، لقد ثَبُت هذا مع قضية قتل «كيرت مولر» (راجع مغامرتي السابقة)، لكنني قرَّرت أن أتبعها مجددًا. لقد شعرت أنه لا صلة له بالجريمة منذ البداية.

أشعلتُ سيجارةً وقرأتُ ملاحظاتي. ليست طويلة جدًّا.

ثم ذهبتُ للاستحمام. تقلصت معدتي من الجوع. قرَّرتُ أن أمر بمطعم «بامبي بوفيه» السريع قبل أن أقابل البواب الخاص بعمارة «إنجي».

أكلت ساندويتش برجر تركي يسمى «كومرو». ليتني لم أفعل، فهذا ليس ما أفضله. بالنسبة إليَّ، لا شيء يساوي ساندويتشين من الجبن في الخبز المحمص. لكني أحاول تناول غذاءٍ متوازن. لذلك أكلت ساندويتش «كومرو» التركي الذي يتكون من بسطرمة وأنواعٍ مختلفةٍ من السجق. كل هذا من أجل الحصول على فيتامين «B12» الموجود فقط في اللحوم. هناك كثير من الفيتامينات التابعة لفيتامين «B»، وكلٌ منها لديه رقم. هذا مُربك. لماذا لا نسميها بحروفٍ أخرى أسهل؟

لنجعلها فيتامين «T» وفيتامين «Z» مثلًا. لا أفهم حقًّا. من المفترض أن نحصل على توازن غذائي، لكن هذا مُعقَّد.

علقت في إشارة مرور ميدان «تقسيم»، لكن لم يكن هناك زحام. انتظرت بصبرٍ حتى انتهت الأربعون ثانية الخاصة بالعد التنازلي وتغيَّر لون الإشارة. لا أعرف ما أنسب وقتٍ للتحدُّث مع البوابين، فلا يوجد واحدٌ حيث أعيش. يندهش أصدقائي الأتراك المنتمون للطبقة الوسطى، ويعتبرون الأمر كارثة. ظن «يلماز» أن هذا الأمر في غاية الغرابة، وسألني بذهولٍ ذات مرَّة: «من الذي يخرج القمامة؟». أجبته: «أنا. هناك صندوق قمامةٍ في آخر الشارع». ثم سألني مؤخرًا: «ما زلتِ بلا بواب؟». نظر إليَّ بدهشةٍ شديدة عندما قلت: «يا إلهي، هل يجب توظيف شخصٍ مخصوص لإلقاء القمامة ومسح السلم مرَّة في الأسبوع؟!».

في الواقع، لديَّ خادمة تأتي للتنظيف مرَّة في الأسبوع، لكن الأمر مختلف، صحيح؟ عندما كنت يساريةً متشددة، كنت أرفض بشدةٍ أن أدفع لأي شخصٍ كي ينظف ما سببته من فوضى. لكن أمي كانت دائمًا توظف خادمة، لذلك أصبح لديَّ واحدة بحكم العادة. ذات مرَّة جعلت أصدقائي يقصُّون لي شعري مثلما فعلت أمي.

إنها معجزة أني حصلت على حبيبٍ أصلًا.

لم أرد الركن في جراج بناية «إنجي»، لذلك بحثت في شوارع حي «إتيلير» عن مكانٍ للركن. عليَّ التزام الحذر حتى لا تراني «إنجي» من البلكون وأنا أخرج من السيارة كالجواسيس, فأنا سأستجوب البواب.

لاحظتُ في زيارتي السابقة كلمة «بواب» مكتوبة على أوَّل جرس. ألا يملك هذا المسكين اسمًا؟ «أحمد» أو «محمد» مثلًا؟ ضربت جرس البواب عند مدخل البناية، فانفتح الباب الرئيسي مباشرةً قبل أن أرفع إصبعي عن الجرس. إن فتْح الأبواب عند ضرب الجرس هو من مهام البواب الأساسية. لا أحد يفتح الباب أسرع من البواب.

خفق قلبي بينما أنزل السلالم. يعيش البوابون في القبو دومًا. الجميع يعلم ذلك حتى لو ليس لديهم بوابون. لا أعلم إن كانت عائلته تعرف السيدة «حفيظة»، ولا أعرف كيف سألعب هذا الدور.

طرقتُ باب القبو، لكن لم ينفتح بسرعة. من الواضح أن من فتح الباب الرئيسي بالزِّرّ عن بعد لم يتوقع أن القادم سيأتي إليه في القبو. شممتُ رائحة الفقر بمجرد أن انفتح الباب. هناك بصلٌ مقلي، ودِهن، وشاي ثقيل، وجوارب مخرومة، و«شباشب» خفيفة، وجيبات منقوشة وخامتها مطاطية، وبيجامات قطنية رخيصة...

حاولت أن لا أتنفس من أنفي، لكن هذا مستحيلٌ بالطبع.

فتح الباب شابٌّ أسمر وعيناه زرقاوان لامعتان. سألته:

- هل أنت البواب؟

أليس لدى المسكين اسم؟

أحنى رأسه وحيَّاني وهو يقول:

- نعم يا آنسة.

- أبحث عن السيدة «حفيظة». كانت تعمل عند أحد سكان المبنى، لكن أظنها غادرت.

نادى على أحدهم:

- تعالي يا «جدرية». أحدهم يسأل عن زوجة أخيكِ.

استخدم حرف الـ«ج»، وليس الـ«ق» في أوَّل اسم زوجته، لكن هذا لا يهم.

جاءت «قدرية» وهي تضبط حجابها. ما زالا لم يدعياني للدخول، وهذا غريبًا بالنسبة للأتراك. يبدو أن المعايير الأخلاقية تنحدر عندما يهاجر الناس من القرية للمدينة.

سألتني الزوجة الشابة:

- هل تسألين عن زوجة أخي؟

ما زالت فتاة صغيرة وبشرتها نضرة. لن تستطيع الحصول على هذه النضارة بعد عمرٍ معين إلا باستخدام أغلى الكريمات.

أجبتها:

- نعم.

- إنهما لا يعيشان هنا.

- أعلم. أريد أن أعرف أين أجدها.

- لقد تركت عملها.

هذه المرَّة لم أقل شيئًا ونظرت إليها فقط.

قال زوجها:

- أستطيع إعطاءك رقمها يا آنستي.

قالت الفتاة:

- نعم، يمكننا ذلك.

- عظيم، هذا ما أريده بالضبط!

سألتني الفتاة:

- لماذا تسألين عن «حفيظة»؟

- أريد شخصًا يعمل عندي.

قال الزوج:

- رأيتها تذهب إلى الشقة رقم 13 بضع مرَّات.

- إنها شقة «إنجي» بالتأكيد.

سألتني الفتاة:

- هل أنتِ قريبة «إنجي» هانم؟

أشرق وجهها وهي تذكر اسم «إنجي». يبدو أن «إنجي» أعطتها حذاءً غاليًا شبه جديد.

قُلتُ باختصار:

- لا، لست كذلك.

كتب الرجل رقمًا على قطعة ورق وأعطاها لي وهو يقول:

- تعيش «حفيظة» بالقرب من هنا.

- شكرًا لك.

- خرجتُ إلى الشارع.

يبدو أن كل البوابين في «إتيلير» أقاربُ وعائلات من القرية نفسها، مثلما الحال في «جيهانجير». تسير الأمور هكذا؛ يأتي بوابٌ بعائلته ليعمل في أي منطقة، ثم تدريجيًّا يأتي أقاربهم ويحتلون البدروم في كل المباني. تقريبًا كل سكان القرى التركية أقارب. حتى لو لم يكونوا أقارب فهم «هِمشيريhemşeri » أي «بلديات». لا يوجد مصطلحٌ يوازيه في اللغة الألمانية. إنه يعني الناس المولودين في نفس القرية أو المنطقة أو المدينة. إنهم يدعمون بعضهم بعضًا عندما ينتقلون للمدن الكبيرة.

يتشكل عددٌ من الجمعيات في إسطنبول لهذا الغرض. فمثلًا الناس القادمون من «ملطية» و«سيواس» و«أرضُروم» لهم جمعياتٌ تعاونية خاصة بهم. هناك أيضًا «مؤسسة أغادير للتطوير والإعانة» و«جمعية أذير للتطوير الثقافي». ويبدو أن مفهوم الـ«بلديات» بدأ يطبع على الألمان. فلقد سمعت عن جمعيةٍ متكونة من الألمانيات المتزوجات بأتراك. لا أعرف ما نوع النشاطات اللاتي يقمن بها، فأنا لم أتزوج تركيًّا من قبل. في الواقع، أنا لم أتزوج أصلًا.

قابلتُ السيدة «حفيظة»، ثم توجَّهتُ إلى البيت، وفي الطريق رنَّ الموبايل. إنه «سليم». قال لي إن عيد ميلاد والدته غدًا، وإنه خشي أن أغضب لو أخبرني فيما بعد.

بصراحة، أنا أغضب دومًا عندما يتصل بي أحد بينما أقود. هذا يغضبني مهما كان السبب.

هناك طبعًا مشكلة البحث عن هديةٍ لوالدة «سليم». إن اختيار هدايا لصديقاتي المقربات أمرٌ في غاية الصعوبة، فما بالكم باختيار هديةٍ لأُمٍّ عجوز حنبلية. في الواقع، تلك السيدة الطيبة ليست حنبليةً أبدًا، لكن والدتي كذلك. فهي لا يعجبها شيئًا مما أشتريه إلا لو كان خاتمًا ماسيًّا، وكأن حياتي مليئةٌ بالماسات التي أخفيها عنها. أما والدة «سليم» فتبدو من الطراز الذي يسعد بباقة زهور. أقول «تبدو» لأني لم أشترِ لها شيئًا من قبل، لذلك لا أعرف ردة فعلها عند تلقي الهدايا.

أما أنا فأظهِر سرورًا زائفًا من باب التهذيب حتى لو تلقيت أسطوانة موسيقى. وهذا هو رد الفعل الذي أنتظره من الآخرين.

إن شراء هديةٍ لوالدة حبيبي أمرٌ حساسٌ جدًّا. لو اشتريت شيئًا قيّمًا، سأبدو كمن تريد اصطياد ابنها والاستحواذ عليه. ولو اشتريت شيئًا تافهًا، سأبدو كمن تحتقر السيدة العجوز وتقول: «من تظنِّين نفسكِ أيتها العجوز؟ إن ابنكِ يحبني الآن، ولا أهمية لكِ». لذلك عليَّ شراء شيءٍ متوسط القيمة لأحافظ على التوازن.

ظللت أفكر في الموضوع طوال المساء. في أوقاتٍ كهذه أتمنى لو كنت رسامًا. ما كنت سأضطر لشراء هدايا لأحد. كنت سأرسم لوحةً وأغلفها. بالطبع يجب أن تبدو اللوحة مدهشة وعظيمة التأثير على البشرية كلوحات «بيكاسو»، لكنني أعجز عن رسم خطٍ مستقيم. رسمي كالخربشات.

ربما من الأفضل لو كنت ملحنًا. كنت سأؤلف أغنية عيد ميلادٍ قصيرة وأغنيها. لا، الرسام أفضل. فالرسمة ستكون معلقةً على الجدار. أما الأغنية لن تكون هديةً إلا أثناء العزف، فيما عدا ذلك ستكون بعض الورق الموضوع على البيانو.

بالتأكيد كنت سأجد حلًا مبتكرًا لو كنت مصممة مجوهرات أو صانعة خزف، لكن عليَّ أن أقبل الواقع بأنني صاحبة مكتبة لروايات الجريمة، ومستحيل أن أجد هديةً مبتكرة.

في النهاية، قرَّرتُ أن أعطيها كتابًا من مكتبتي، مختارات من أشعار لورد «بايرون» نُشِرت في 1946. إنه يلخص الكثير:

1) ليس قيّمًا جدًّا، لأنه لم يكن طبعةً أولى وغلافه ليس بارزًا وفخمًا.

2) ليس عديم القيمة، لأن غلافه صلب وطبعته جيدة.

3) إنه هديةٌ مناسبة من سيدةٍ تدير مكتبة.

4) له معنى، لأننا تحدَّثنا في جلستنا الأخيرة عن لورد «بايرون» وأسباب عداوته للأتراك.

شعرتُ بالرضا عن نفسي عندما استيقظتُ في الصباح التالي ووجدتُ الكتاب بجوار السرير. على الأقل لن أقضي اليوم بحثًا عن هدية. أيقظتُ «بيلين» لتذهب إلى المكتبة. لو لم يكن لديَّ مشاغل كثيرة لذهبت بنفسي بدلًا من أن أتحمل معاناة إيقاظها. إنها مُتعِبةٌ جدًّا. لم تعد الموظفة المجتهدة منذ انفصالها عن حبيبها. لم أضع وقتًا واتصلت بـ«باتوهان». أريد أن أعرف ما توصل إليه بشأن «قسمت أكان»، وأن أبلغه بالمعلومات الجديدة. الله وحده يعلم لماذا أحاول العمل مع الشرطة في سني هذه. من يعرفني يتعجب من تصرفي، لكن الحياة تأخذنا في مسارات مختلفة، وأهواء الناس لا تعرف حدودًا. وهوسي الخاص هو التحقيقات، لا حيلة لي في ذلك.

رد «باتوهان» على التليفون بعد أوَّل رنَّة. سألته:

- هل يمكن أن نتقابل اليوم؟

- نعم، لكن ليس قبل العصر. سأمرُّ عليكِ لأصطحبكِ. ما رأيكِ في تناول العشاء معًا أيضًا؟

لم أخبره بأنني مرتبطة بعشاءٍ عيد ميلاد والدة حبيبي. من الأفضل أن لا أحطم آمال الناس، خاصةً إن كانوا يستطيعون مساعدتك لتحقيق هوسك الخاص.

لذلك قُلتُ له:

- لديَّ موعدٌ هذا المساء. سأذهب مع صديقتي إلى السينما.

في نظر الرجال، إن الذهاب إلى السينما هو النشاط الأقل ضررًا بين نشاطات السيدات. فلو قلتِ مثلًا أنكِ ستشربين الكاكاو أثناء مشاهدة التليفزيون، سيتخيل الرجال أنكِ ستقيمين حفلة عربدة.

سألني:

- متى ستذهبان؟

- سنحضر عرض الثامنة إلا ربعًا.

لم أكن واثقة إن كان هناك عرضٌ في هذا التوقيت، لكنني متأكدة أن «باتوهان» لا يعرف أكثر مني في هذا الشأن.

- حسنًا، سآتي إلى مكتبتكِ في الخامسة.

لم تحن الساعة التاسعة صباحًا بعد، لذلك أمامي ساعاتٌ أواصل فيها بحثي. اخترتُ ما سألبسه هذا المساء قبل خروجي. فهذه الأمور لا يمكن تركها للحظة الأخيرة.

بعد ساعةٍ من اتصالي بـ«باتوهان»، كنت واقفةً أمام باب القبو الذي قُتِلت فيه السيدة العجوز منذ عشرة أيام. اختلقتُ بعض الأعذار الجديدة في الطريق. ضربتُ الجرس، لكنه لم يعمل، لذلك طرقت الباب.

من الواضح أن المرأة التي فتحت الباب هي والدة «فيجين»، فهما صورةٌ طبق الأصل. أتمنى أن يكون الشبه في الشكل فقط. فأنا لن احتمل امرأةً أخرى تنهار باكية متى تريد.

سألتني المرأة:

- من تريدين؟

يا له من ترحيب! هل أصبحت الضيافة مجرد شعارٍ إعلاني لجذب السياحة إلى تركيا؟

قُلتُ:

- أنا جارتكم. أملك مكتبةً بالقرب من هنا. جئت لتقديم التعازي.

قالت دون أن تدعوني للدخول:

- فليرحمها الله.

- لقد أعرت «فيجين» كتابًا.

ثبتت المرأة نظارتها وربطت طرفي طرحتها خلف أذنيها، من الواضح أنها مندهشةٌ لأنني أعرف ابنتها. قالت:

- «فيجين» في المدرسة. لا أعرف شيئًا عن كتابكِ. ادخلي وابحثي بنفسكِ.

لن أفوت هذه الفرصة! خلعت حذائي على الباب ودخلت. بدت المرأة غير مرتاحة، وكأنها ستغيّر رأيها في السماح لي بالدخول. دخلت الشقة وتوجهت إلى الغرفة التي دخلتها في زيارتي السابقة، ثم جلست بجوار النافذة، حيث اعتادت أن تجلس العجوز. كانت أريكة العجوز أعلى من الأريكتين الأخريين. عندما جلست أصبحت رأسي بمساواة النافذة، ما جعلني أرى الشارع بوضوح.

قالت والدة «فيجين» وهي تتبعني إلى الغرفة:

- اعتادت حماتي الجلوس هنا دائمًا.

- يمكن رؤية الشارع من هنا، لذلك لن تملي أبدًا.

قالت بشرود:

- حتى السلطان «سليمان القانوني» لم يُخَلَّد في الدنيا. وها هي حماتي رحلت وصارت غبارًا منثورًا. إنها كأسٌ يذوقها الجميع.

ثم أضافت:

- هل أعد لكِ بعض الشاي؟ أم تحبين النسكافيه؟

قلت كالأتراك:

- لا أريد إتعابكِ.

هذا يعني أني أريد أن أشرب شيئًا، لكن بالشفرة التركية من باب التهذيب.

- لا تعب أبدًا يا عزيزتي، شاي أم نسكافيه؟

- شاي، إن لم يتعبكِ الأمر.

دخلت المطبخ فتبعتها.

لم يتغيَّر منذ المرَّة السابقة. ما زالت الملصقات مُعلَّقة.

سألتها ومن الواضح أني أقصد حزب «المسعى المتحد»:

- هل تعملين لصالح الحزب؟

- ليس حاليًا. أخذت إجازةً منذ وفاة حماتي. كانت مريضة، لذلك كانت وفاتها متوقعة، لكن ليس بهذه الطريقة. فليقوينا الله. الأمر صعبٌ علينا جميعًا. لقد عانت بشدة، لكن إن كانت مشيئة الله، ليس بوسعنا شيء.

هزَّت رأسها، وأضافت:

- تعالي وابحثي في كتب «فيجين» كما يحلو لكِ. خذي كتابكِ.

- الكتاب ليس مهمًا. يمكن أن تأتي إليَّ «فيجين» في المكتبة وتعيده.

نظرت إليَّ المرأة بارتياب. من الواضح أنها تتساءل لماذا جئت إذًا. لكن لا داعي للإجابة عن أسئلةٍ صامتة.

عُدنا إلى غرفة الجلوس، وعُدتُ أجلس مكان العجوز.

عندما استدرتُ لأسأل والدة «فيجين» سؤالًا، لمحت صورةً على الجدار. كانت مُعلَّقة بجانب الملصق الذي يظهر الفتاة الصغيرة التي تدعو بعينين دامعتين، مثل الملصق الموجود بالمطبخ. كانت الصورة تظهر أربعة رجال يقفون أمام المبنى الوردي الجميل الخاص بمجلس بلدية «باي أوغلو». مكتوب تحت الصورة بخطٍ كبير:

«رئيس البلدية والمهندس الخبير «خيري توكتشان»، والمستشارون – المسعى المتحد». غمرني الانفعال، وسألتها:

- من هؤلاء في الصورة؟

- رئيس البلدية والمستشارون.

نعم، هذا واضح. سألتها:

- هل «تيمال» بك بينهم؟

أجابت وهي تشير إلى أحدهم:

- نعم. هل تعرفين «تيمال» بك؟ إنه رجلٌ طيبٌ جدًّا. لقد وجد لزوجي وظيفةً في البلدية. حمدًا لله.

ناولتني برواز صغيرًا على التليفزيون وقالت:

- هذا هو مع «تيمال» بك. إنه يحب زوجي كثيرًا. قال له: «الرجل الشريف مطلوبٌ دائمًا».

لم أعرف ماذا أقول. نظرت إلى الصورة لبعض الوقت بلا كلام، ثم سألتها:

- هل تعرفينه أيضًا؟

- نحن ننظم زياراتٍ منزلية للدعاية إلى أهداف الحزب. نذهب لمنازل المواطنين وتقوم ربَّةُ البيت بدعوة جيرانها من المسلمات. نجلس جميعًا ونتناقش، ونخبر الناس بأهدافنا إذا فاز حزبنا. نجتمع بالنساء صباحًا، والرجال مساءً. يقوم «تيمال» بك بالاجتماعات المسائية بالطبع، لكن إذا كان بيننا شخصٌ من أبناء بلدته، يأتي بنفسه أحيانًا ويلقي كلمةً على النساء.

سألتها باندفاع:

- هل جاء إلى هنا من قبل؟ أو هل ذهب إلى اجتماعٍ حضرته حماتكِ؟

عبست المرأة. ربما ما كان عليَّ سؤالها عن هذا، لكن الانفعال غلبني. حاولت تلطيف الكلام، فأضفت:

- أعرف أنه متحدثٌ بارع، وكنت أتساءل إن كانت عائلتكِ قد استفادت من حكمته.

يبدو أنها اقتنعت بكلامي رغم سخافته. لا يشك الناس في كلامك أبدًا إن استخدمت المجاملات.

- بالطبع، نحن ننظم اجتماعاتٍ في بيتنا. وشرفنا «تيمال» بك بحضوره. لم يساعدنا أحدٌ كما فعل عندما مرضت حماتي. الفضل لله أولًا. نحن نعرف زوجته أيضًا.

«تيمال» بك واسع المعرفة. إنه فقيهٌ في أمور الدين. أتمنى من الله أن يكون كل الناس مثله.

صمتت قليلًا ونظرت إليَّ، ثم سألتني:

- ألا تتبعين دينًا ما؟

لقد شكَّت بي بسبب ملابسي على الأرجح، على الرغم من أنني ارتديت قميصًا طويل الرقبة وبنطلون جينز من أجل هذه الزيارة مخصوص. أجبتها:

- لا، ليس لي دين.

- معاذ الله. هذا مستحيل. يجب أن يكون لكل شخصٍ ديانة.

لن أخوض هذا النقاش. قُلتُ:

- في الواقع، أنا لست تركية.

- وما الفارق؟ هناك مسلمون في كل البلاد. الإسلام لا يفرق في العرق أو اللغة.

بما أنني عرفت ما جئت لأجله لم أعد أطيق البقاء، حتى إنني قد أتحدث كالمسلمين قليلًا لتتركني في حالي وتنهي المحادثة. فعلى عكس الرجال، لا تضطر النساء لإجراء عملية ختان - «طهور» - لتثبت دخولها في الإسلام.

لكنني لم أفعل ذلك بالطبع، فأنا لن أرضي هذه المرأة، لكنها سياسيةٌ بارعة.

قُلتُ لها بحزم:

- ليس لي دين، وسأظل هكذا.

هزَّت المرأة رأسها بمعنى أنني لا أستحق المناقشة، وتمتمت بدعاء. لا فائدة بالطبع من مناقشة أمثالي. يمكنك المناقشة لساعاتٍ مع مسيحي أو يهودي حول أي الديانات أفضل، لكن ماذا تقول لملحد؟ إنه من الأفضل أن تكون متدينًا بدلًا من ملحدٍ؟

عرضت عليَّ شايًا مجددًا على الرغم من أنه لم يبقَ ما نقوله. بعد تفكيرٍ طويل قالت لي آخر جملة وأنا أرتدي حذائي على الباب:

- لو لم تؤمني بالله قد ترتكبين جريمة قتلٍ أو سطوٍ أو زنى، لأنكِ لن تجدي رادعًا لنفسكِ! دعيني أحدثكِ على الأقل. اعرفي عن الإسلام أولًا ثم قرّري.

- شكرًا على الشاي.

قالت بينما أغادر:

- الإسلام دين التسامح. إنه يرحب بالجميع.

تمتمتُ لنفسي، بينما أنزل السلالم: «يا لها من امرأةٍ كسولة». على الأقل يسافر المبشرون المسيحيون عبر القارات لينشروا عقيدتهم. ألم يذهبوا إلى كوريا الجنوبية وحولوا نصف الشعب من البوذية للمسيحية؟ إنهم يعملون بجد. ماذا يفعل الإسلاميون؟ يزورون بيوت المسلمين الآخرين ليجمعوا الأصوات، في حين أنهم لا يعرفون شيئًا عن الملحدين الموجودين على بُعد شارعين منهم إلا عندما يطرقون بابهم. حتى أنا أستطيع عمل حملةٍ دعائية لكل شخصٍ يزورني. لا يفعل الإسلاميون شيئًا سوى انتظار ظهور أي ملحد. لا فائدة من ذلك.

حانت الساعة الخامسة. لو لم أضطر للذهاب إلى الكوافير، لطلبت من «باتوهان» تقديم الموعد، لكنني هدأت قليلًا، بينما جلست في الكوافير الجديد في فندق «تاور هوتيل» الذي افتُتِح مؤخرًا في «كوليديبي». يا للإثارة! لقد حللت جريمة قتلٍ أخرى! أستطيع أن أترك أمر إثبات نظريتي للشرطة التركية. فهم يملكون حق التواصل مع المعامل الجنائية وخبراء الطب الشرعي.

لكن ما زال هناك بعض النقاط الغامضة. واحدةٌ بعينها تؤرقني وتمنعني من الاستمتاع بنشوة انتصاري. لماذا لم يكن «أوزجان» على قائمة مؤسسي الشركة التعاونية؟ خاصةً أنه أكثر الإخوة براعةً وكفاءة.

تركتُ المكتبة في رعاية «بيلين» وذهبت لحديقة الشاي مع «باتوهان». شعرتُ أنني مديرةٌ شريرة، فأنا أشكو دائمًا من كسلها على الرغم من أن لها الفضل في أنني أستطيع الخروج متى وأينما يحلو لي، لكني أتركها تستخدم منزلي فندقًا. لن تجد كثيرًا من المديرين يسمحون لك بالسكن معهم، أليس كذلك؟

لا وقت لديَّ للدردشة، يجب أن أستعد لكي أبدو في قمَّة أناقتي في بيت والدة «سليم» في «نيشانتاشي» في الثامنة والنصف. لذلك دخلت في الموضوع مباشرةً قبل حتى أن يصل الشاي.

- أعرف من القاتل.

كتم «باتوهان» فمه بيده وضحك بصوتٍ عالٍ وهو يسألني:

- حقًّا؟! من هو؟

إنه يظنني أمزح. هل سأشعر بتحسنٍ إن لكمته في وجهه؟ ربما لا، فالرجل الذي أريد سحق رأسه يعمل ضابط شرطة. تنفَّست بعمقٍ لكي أهدأ وأتجاهل ضحكه السخيف.

- إنه نائب رئيس بلدية «باي أوغلو»، «تيمال إكشي».

اضطرب وجهه وطقطق بلسانه، ثم قال:

- صغيرتي...

يا للقرف! يا لها من كلمةٍ مُقزِّزة، لكنني ابتلعتها في صمت. الله أعلم بحالي.

-... ما علاقة نائب رئيس البلدية بكل هذا؟

لو حصل هذا المُغفَّل على ميدالية الشرطي المثالي - إن كانت توجد هذه الميدالية أصلًا - فالفضل لي. ربما يحصل أيضًا على علاوةٍ أو ترقية. ربما يصبح مأمورًا.

لا، ليس إلى هذا الحد!

- أخبريني ما الصلة يا قطتي؟

قررت أن أتمالك أعصابي وأقول بأدب:

- اسمع، أنا أناديك «باتوهان». لا داعي لألفاظ التَّحبُّب والتدليل، نادني باسمي كفاية.

- عذرًا؟

بدا أنه لم يفهمني. ليس لأنني قلت شيئًا معقدًا، بل لأن عقله الغبي كان يفكر في أمورٍ أخرى. من الأفضل أن تكون صريحًا ومباشرًا مع الناس لكي يفهمونك بسهولة.

- فقط نادني «كاتي». لا داعي لـ«صغيرتي» أو «قطتي».

هزَّ رأسه يمينًا ويسارًا وطقطق بلسانه، ثم قال:

- حسنًا يا «كاتي». هل تشرحين لي - من فضلك - ما الصلة بين نائب رئيس البلدية والجريمة؟

- أولًا، ليست جريمة، بل جرائم.

- حسنًا، لكن اشرحي من فضلك.

وفعلت بينما استمع إليَّ بلا مقاطعة. ثم قال عندما انتهيت:

- هذه نظريةٌ بالطبع. لكنها نظريةٌ منطقية بصراحة.

- لو كان لديَّ فقط الضباط والمعامل الجنائية تحت تصرفي.

- فهمت. أنتِ لا تستلطفينني اليوم.

يا له من مستفز!

- عزيزي، أنا أستلطفك دائمًا. كنت أتحدَّث بسخريةٍ كما تعلم.

- ماذا عرفتِ أيضًا؟

يا له من سؤالٍ يسأله الضابط المسؤول عن التحقيق في جريمة قتل!

سألته:

- أخبرني أولًا في من تشتبه. هل تحرَّيت عن «قسمت أكان»؟

- هناك على الأقل أربعة شهودٍ موثوقين مع ذلك الرجل، بالإضافة إلى الموظفين في القرية السياحية.

- هل كان معهم في ليلة الجريمة؟

أومأ «باتوهان».

- إذًا، في من تشتبه؟

ضحك، وقال:

- لقد شككت بالجميع أثناء التحقيق. لم يبقَ أحد.

- وماذا عن حبيبة «عثمان»؟

قال بابتسامةٍ ساخرة:

- «إنجي» هانم؟

- نعم.

قال وهو يشير للجرسون أن يحضر كوبين آخرين من الشاي:

- دعيني أشرح لكِ كيف تسير الأمور. «إنجي» لديها حبيب، وهو زوج ابنة رجلٍ مشهور. اكتشف «عثمان» الأمر. قبل وفاته بخمسة عشر يومًا، طلب من أحد إخوته أن يتتبعها. إنه «موسى» الذي يعتني بالجراج هنا. وهكذا تتبعها صباحًا ومساءً. يا لتفكير هؤلاء الرجال! من قد يظن أنهم سيتصرفون كالمحققين؟ لم تشك المرأة في شيء. لقد تتبَّعوا أيضًا الرجل الذي تقابله واكتشفوا هويته، لكن «عثمان» تعرض للقتل قبل أن يتصرف.

سألته:

- من أخبركِ بهذا؟

- الأخ الأصغر، «أوزجان».

- لماذا لم يقل هذا منذ البداية؟

- دعكِ منه الآن. لم تكن «إنجي» في المنزل ليلة الجريمة.

قُلتُ بغيظ:

- وبالصدفة لم يتبعها «موسى» تلك الليلة. لقد ظن أنه لا فائدة من ذلك بما أن الجميع يعلم أنها تخون «عثمان».

- نعم! هذا ما حدث بالضبط.

سألته:

- كيف عرفت أن «إنجي» لم تكن بالمنزل ليلة الجريمة؟

- اعترفت بذلك بنفسها. طلبناها للاستجواب هذا الصباح وأخبرتنا بكل شيء. الشيء الوحيد الذي لم تخبرنا به هو اسم حبيبها. تظننا لا نعلم. إنها لا تهتم إن اتهمناها بالقتل، لكنها لن تعطينا اسم حبيبها. طلبنا منها أن تثبت لنا أنها لم تذهب إلى مكتب «عثمان» ليلة الجريمة، لكنها لم تفعل. كان يمكنها المحاولة على الأقل، لكنها لم تعرف.

- لم تعرف ماذا؟

- لم تعرف أنها اتصلت بموبايل «عثمان» من تليفونها الأرضي في السابعة وأربع عشرة دقيقة. أي قبل مقتله بالضبط.

- ما دمت تملك سجلات التليفون، إذًا أنت تعرف إن كان «عثمان» تحدث إلى «تيمال إكشي» أم لا.

- مهلًا، سأصل إلى تلك النقطة. اصبري.

لا أستطيع أن أصبر، فهناك عيد ميلاد والدة حبيبي. قُلتُ له:

- أخبرني بسرعة، عليَّ الذهاب إلى السينما.

أخرج موبايله وناوله لي وهو يقول:

- بالله عليكِ، ألغي السينما.

- مستحيل. لا أستطيع الاتصال بـ«لالي»، فهي في اجتماعٍ وستأتي إلى السينما بعده مباشرةً.

- كان يمكننا أن نتناول العشاء معًا ونقضي وقتًا لطيفًا.

- آسفة، لا أستطيع.

- اكتشفت مطعم كبابٍ رائع. يزيل الطهاة هناك كل الأعصاب من اللحم. إن لحومهم مميزةٌ جدًّا. أما عصير اللفت فيأتون به من مدينة «أضنة». كبابهم لذيذٌ جدًّا لدرجة تجعلكِ تأكلين أصابعكِ.

- مستحيل. على كل حال، انس العشاء. كنت تتحدَّث عن سجلات التليفون.

أمسك يدي فلم أبعدها، ثم قال:

- أريد التحدُّث معكِ.

قُلتُ لنفسي: «ها قد عدنا مجددًا لهذا الموضوع».

سألني:

- ماذا بشأننا؟

- وماذا بشأننا؟

نظر إلى عينيَّ مباشرةً، ثم قال بنبرة كمن يشعر بالإهانة:

- حسنًا، لا يجب أن تتأخري على السينما. هيا بنا.

هذا ما يحدث لي دائمًا. الرجال الحساسون هم من ينجذبون إليَّ. لا أقابل رجالًا أقوياء أبدًا. لو أعجب بي واحدٌ من هؤلاء، لصارت حياتي أسهل.

وقف بالفعل فقُلتُ له:

- اجلس من فضلك.

جلس فورًا لأنه - على الرغم من كونه حساسًا - لا يملك الشجاعة ليلعب دور الرجل صعب المنال. إنه يعرفني جيّدًا، أنا لا أتذلل لأحد.

سألته:

- هل أنت متزوج؟

- ماذا؟! هل مشكلتنا هي أنني قد أكون متزوجًا؟ لماذا تظنِّين ذلك أصلًا؟

- لو لم تكن متزوجًا لما أصررت على العشاء الليلة، يمكننا أن نذهب غدًا.

- لا يمكن الغد.

أومأت وفكرت أنه حتمًا قال لزوجته إنه سيعمل هذا المساء. ولا يمكنك أن تكرر الكذبة نفسها ليلتين متواصلتين. قُلتُ له:

- حسنًا، ليكن الأسبوع المقبل.

أخفض رأسه، وقال:

- موافق.

- هل تشكُّ بـ«إنجي» حقًّا؟

رفع رأسه، وقال:

- أشعر بالفضول فقط.

- بشأن ماذا؟

- من والد الطفل؟

ضحكتُ بصوتٍ عالٍ أثار انتباه الطاولات الأخرى، وقُلتُ:

- ليس «عثمان».

- ماذا؟! مهلًا، كيف عرفتِ؟

- تحدَّثت مع الخادمة التي طردتها «إنجي». سأعطيك عنوانها ويمكنك التحدُّث معها بنفسك. إنها ترحب بشرح كل شيء.

- ماذا تعرف وماذا تقول؟

- كل ما يتعلَّق بحياة «إنجي» الخاصة. لقد اتضح أن ابن المدرس لم يكن حبيبها الوحيد.

- ماذا؟! كيف استطاعت تدبير أمورها؟

- اشترت موبايل لكل حبيب.

- ما قصدكِ؟

- خصصت «إنجي» موبايل لكل حبيب. بمعنى أن كل حبيبٍ معه رقم موبايل مختلف. فمثلًا، لو أرادت لقاء الحبيب «أ» في يومٍ ما، ستغلق كل التليفونات ما عدا تليفون الحبيب «أ». وفي اليوم التالي ستغلق كل التليفونات ما عدا تليفون الحبيب «ب». لديها أرقامٌ بعدد الرجال. لا أعرف هل تُسمى أرقامًا أم شرائح. فأنا لست خبيرةً في هذه الأمور. المهم أنها تستغل التكنولوجيا أسوأ استغلال.

- لحظة. إن كان «موسى» يتبع «إنجي»، فلا بد أنه عرف بشأن أحبابها الآخرين.

- صحيح.

- ما نظريتكِ إذًا؟

- إن «موسى» لم يتتبَّع «إنجي».

- أكملي.

- إما أن إخوة «عثمان» هددوها لتتكلم أو عرضوا عليها المال. لا أعرف حقًّا، لكنه شيءٌ من هذا القبيل. كانت خائفة من انكشاف أمر أحبابها، لأن هذا كفيلٌ بتدميرها. مع بعض الضغط ستعطيك اسم وعنوان ابن المدرس. فهو لن يدخل السجن بتهمة القتل.

توقَّفتُ فجأةَ، وسألته:

- مهلًا، أنتم لا تعذبونها، صحيح؟

- هل تمزحين؟ أي تعذيب؟ نحن نعيش في بلدٍ دستوري، ونستعد للانضمام إلى الاتحاد الأوروبي. هل تظنّين أننا ما زلنا نستخدم أسلوب التعذيب؟ هل تعتقدين هذا حقًّا؟

- لا.

لكنني تفحصت ملامحه جيدًا. فأنا لا أثق بشرطة هذا البلد.

سألني «عثمان»:

- ماذا عن والد الطفل؟

- قالت الخادمة إنه ليس ابن «عثمان». لا أعرف والده، ولا أحد يعرف. كيف ستعرفون هذا الأمر؟

هززتُ كتفيَّ، وأضفت:

- تخلَّت «إنجي» عن فكرة رفع قضية نسب. لقد استشارت مُحاميًا بضع مرَّات، لكنها لم تفعل شيئًا في النهاية. بالتأكيد عرفت الخادمة ما يجري من خلال المحادثات التليفونية.

قال بدهشةٍ واحتقار وكأنه يبصق على «إنجي» وأحبابها:

- يا للأوغاد! لقد أصبحت حاملًا أيضًا. يا للقذارة.

ثم قال على مضض:

- لقد تحدَّثت مع «تيمال إكشي».

- لماذا؟

- ظهر اسمه كثيرًا في سجلات الاتصال في تليفون «عثمان». ذهبت إلى المجلس لأقابله. لم يقل شيئًا عن موضوع تخصيص الأرض. قال: «أعرف «عثمان». لديه جراجٌ في «باي أوغلو»، وأراد مكانًا من أجل جراجٍ آخر في «قاسم باشا». لذلك تحدَّثنا كثيرًا مؤخرًا». بدا كلامه منطقيًّا بالنسبة إليَّ، لذلك غادرت. ماذا عساي أن أفعل؟

وضع رأسه بين يديه ثم نظر إليَّ، وقال:

- نحن نقترب من الحل، صحيح؟

- لا أعرف. هل وجدتم بصماتٍ على السكين التي قتلت العجوز؟

- لقد أثرتِ نقطةً مهمةٌ جدًّا. أحسنتِ!

- لماذا؟

- لم نجد بصمات.

قالها بنبرةٍ توحي بأنه سيكتفي بهذا الكلام، فسألته:

- ماذا وجدتم إذًا؟

- شعرة في يد المرأة. لا بُدَّ أنها جذبت شعرةً من رأس القاتل بينما يطعنها.

سألته بانفعال:

- شعرة من؟

- ما زلنا نبحث. أخذنا عيناتٍ وننتظر تطابقًا.

- مِمَن أخذتم العينات؟

- من الجميع. فما زال الجميع مشتبهًا بهم.

- و«تيمال إكشي»؟

- لا، لم نأخذ منه. لم أشك به حتى تحدَّثت معكِ. لا أظنه سيوافق أصلًا. يجب أن نملك سببًا قويًّا. لا دليل ضده بخلاف بعض المحادثات التليفونية، لذلك من الصعب إقناع النائب العام. لننتظر، ونرَ ما سيحدث.

نظرت إلى ساعتي. الوقت يطير، وعليَّ الرحيل فورًا.

قُلتُ:

- هناك نقطةٌ أخرى. كلهم أعضاء مؤسسون للشركة التعاونية ما عدا «أوزجان». جعل «عثمان» كل فردٍ في العائلة مساهمًا، لكن لماذا استثنى «أوزجان»؟ ألا تجد هذا غريبًا؟

- قال وهو يطرقع أصابعه:

- نعم، هذا غريبٌ جدًّا.

- بالإضافة إلى أن العائلة اجتمعت على إلصاق التهمة بأشخاص عديدين، بدءًا من العم وصولًا لـ«إنجي» وأنا. إنهم يجربون حظهم.

قال «باتوهان»:

- لكنهم لم يفلحوا معكِ.

- ماذا تعني؟ لقد أخذت الشرطة أقوالي.

- حسنًا، لقد أخبرتهم أن والدكِ هو وزير الداخلية الألماني، صحيح؟

- والدي ميت.

- لكنهم لا يعرفون. لا بُدَّ أنكِ أخفتهم تمامًا.

وضعت رجلًا على رجل وأرجحتها. يسرني أن أعرف دومًا بأن هناك من يخشاني. سألته:

- ماذا ستفعل الآن؟

قال ساخرًا:

- سأبحث عن الراحة بين أحضان زوجتي.

نظرتُ له بذهول وتوقَّفتُ عن هزِّ رجلي. فقال:

- ليس لديَّ زوجة. أنا جاد! سأريكِ بطاقتي إن أردتِ.

لماذا أهتم إن كان «باتوهان» متزوجًا أم لا؟ لماذا أهتم بشأن زيجات الناس؟ أو إن كانوا متزوجين أم لا؟ لكنني قُلتُ له:

- أرني.

أفرغ جيوبه على الطاولة. هناك محفظةٌ ومفاتيح وكيس مناديل فارغ نصفه وقلم حبر ومفكرة. أما الموبايل والسجائر والولاعة فكانت على الطاولة بالفعل.

سألته:

- ما الأمر؟

- بطاقتي ليست معي.

- لا أصدقك. ابحث في محفظتك.

فتح كل جيوب محفظته، لكن للأسف لا يوجد سوى بعض العملات النقدية. الحياة صعبة على موظفي الحكومة في تركيا.

قُلتُ له:

- أحضرها حين نتقابل المرَّة المقبلة.

سار العشاء على خير ما يرام. أولًا، أحبت «بلقيس» هانم والدة سليم الهدية. ثانيًا، كل أقارب «سليم» كانوا هناك، ولم ينتظروا مني الحديث كثيرًا. حتى أن صمتي هو ما جذبهم إليَّ. لقد خلقت انطباعًا بأنني امرأةٌ جادة ومحترمة وغامضة. يعشق الأتراك هذه الصفات.

أما «سليم» فقد شك بالأمر بالطبع. بمجرد أن دخلنا المصعد وحدنا سألني لماذا أبدو كمن «أكل سدَّ الحنك». سألته عن معنى المثل، فأنا لم أسمعه من قبل. إنه تشبيهٌ غريب. من الواضح أنه يُقال على شخصٍ ثرثارٍ مثلي حين يصمت.

قُلتُ له:

- الفوضى تجتاح عقلي «Tahu va vohu».

سألني:

- ما معنى هذه الجملة؟

أجبته:

- إنها تعني فوضى. إنها موجودةٌ في التوراة في الإصحاح الثاني من سُفر التكوين. استُخدِمت الجملة في النص العبري الأصلي لوصف حال العالم قبل أن يخلق الله النظام. عندما تمت ترجمة التوراة إلى لغاتٍ أخرى، استُخدِمت صفاتٌ كثيرة مكان هذه الجملة. على سبيل المثال، كانت الأرض «مضطربةً وخاوية»، و«خرابًا وخاوية»، و«فوضوية وخاوية»، و«خاوية ومدمرة»، لكن معناها الحقيقي هو أن العالم كان في فوضى.

- حسنًا يا عزيزتي الفوضوية المهووسة باقتباسات التوراة. ما الجملة؟ «Tahutu...» ماذا؟

- «Tahu va vohu» وأنا لست فوضوية، بل هو بلدك.

أزاح شعري، وقبَّل عنقي. لماذا يستخف الرجال بآراء النساء السياسية والفكرية؟

سألني وهو يحيطني بذراعه ويجذبني نحوه:

- حسنًا يا آنسة «هيرشيل». ما الفوضوي في بلدنا؟

- جريمة القتل تلك مثلًا.

قال وهو يداعب شعري:

- بالفعل.

وصلنا إلى الجراج وخرجنا من المصعد.

بينما نقود إلى شقة «سليم»، أخبرته بعضًا مما يجري. استمع إليَّ بلا مقاطعة. وحكيت له باقي التفاصيل ونحن جالسان على الأريكة نشرب «براندي». سألني عندما انتهيت:

- إذًا، ما المشكلة الآن؟

- ما المشكلة؟ ماذا تعني؟

- ما الذي يزعجكِ؟

- كنت أتساءل؛ ربما لا علاقة لـ«تيمال إكشي» بالجريمة، وتكون عائلة «عثمان» هي المسؤولة. ربما جعلوا «أوزجان» ينفذ الجريمة لأنه قاصرٌ وسيأخذ عقوبةً قصيرة. أما قتل العجوز فكان لا بُدَّ منه لأنها ستتعرف على قاتل «عثمان». هناك احتمالٌ آخر؛ وهو أن «أوزجان» غضب لأنه لم يكن عضوًا مؤسسًا للشركة التعاونية، لذلك ذهب إلى أخيه ونشب شجارٌ بينهما. تعرف العائلة أن «أوزجان» هو القاتل، لكنهم لن يسلموه للشرطة. هذا يبدو أكثر منطقية.

- ليس حقًّا. لن يكون منطقيًّا أبدًا إلا بوجود سببٍ للعداء بين «أوزجان» وأخيه. وأقصد سببًا آخر بخلاف موضوع العضو المؤسس.

- ماذا تقصد؟

- إن كان «أوزجان» قاصر كما تقولين، فلا يمكن أن يكون عضوًا مؤسسًا. يجب أن يكون الأعضاء المؤسسون فوق الثامنة عشرة. يمكنه أن يكون مساهمًا من خلال وصيّ، لكن ليس مؤسسًا.

قُلتُ له بانفعالٍ شديد:

- كرَّر ذلك ثانية.

أعاد ما قاله.

ما أروع الحصول على حبيبٍ مُحامٍ. المحامون مفيدون حقًّا. ويا له من مُحامٍ صالح لأنه جعل اسم حبيبته كلمة السر لإيميله. إنه رجلٌ لطيف. بعض الأمور حلها سهل. أحبِّي مُحاميًا، وستعرفين أشياءَ كثيرةً وبسيطة يتجاهلها الناس العادية. حسنًا، «أوزجان» لم يكن يكره أخاه الكبير. ولو كان كذلك، فليس لديَّ المعلومات التي تؤكد ذلك. إذًا، من صاحب الشعرة التي في يد العجوز؟ «تيمال»؟

استيقظتُ صباح السبت، وغادرتُ المنزل، وتركتُ «سليم» نائمًا. لا أفهم كيف لشخصٍ يستيقظ في السابعة صباحًا طوال الأسبوع، أن يستطيع النوم حتى الظهر في العطلة الأسبوعية. لم أجد ملابس في منزل «سليم» تصلح للقائي مع «يلماز» في «فيروز أغا»، لذلك اضطررتُ للذهاب إلى منزلي أولًا لتغيير ثيابي.

كانت «بيلين» نائمة. دخلت المكتب لأرى إن كانت هناك رسائل صوتيةٍ بانتظاري. كان مصباح الغرفة يومض باضطراب. اتصلت بي مالكة العقار لتذكرني بضريبة جمع القمامة. عقل هذه المرأة ميؤوسٌ منه. لقد دفعتها بالفعل مع كل الفواتير السابقة.

لم يتصل بي شخصٌ آخر.

رنَّ موبايلي بينما أرتدي بنطلوني. أعرف من هو من دون أن أنظر. إنه «باتوهان».

قال:

- لقد وصلت تقارير الطب الشرعي.

ابتلعت ريقي، وسألته:

- من صاحب الشعرة؟

سمعت صوت ولَّاعةٍ على الجانب الآخر، ثم قال:

- لا يوجد تطابق في العينات التي معنا.

- هل أخذت عينةً من «أوزجان»؟

- نعم, بقيتُ ساهرًا طوال الليل أفكر في نظريتكِ. تبدو منطقية. لكن كما قُلتُ لكِ، هذه الأمور لا تكون واضحةً وسهلةً أبدًا. يجب أن نعود لأسلوب التجربة والخطأ. لا توجد أدلةٌ مادية على الإطلاق. لِنَر إن كان «تيمال» بك سيوافق على إعطائنا عينة. لقد تحدَّثت مع زملائه في بلدية «باي أوغلو». إنه شخصٌ نشيطٌ جدًّا.

يقولون إنه مسلحٌ دائمًا. لديه مسدس «ماجنام» ذو مقبضٍ ذهبي، وهو فخورٌ به جدًّا. من الواضح أنه يسير به في شارع «استقلال» بكل غطرسة مثل رعاة البقر.

ولديه سابقة في إصابة رجل شرطة خارج المركز الثقافي الفرنسي.

- هل مسدسه غير مرخص؟

- لقد تحرَّيتُ عن الأمر ووجدته يملك رخصةً لسلاحٍ واحد، وعلى الأرجح هو المسدس ذو المقبض الذهبي. إنه ليس المسدس الذي قتل «عثمان»، لكن رجال منطقة البحر الأسود مهووسون بالأسلحة، وبالتأكيد لديه مسدساتٌ أخرى. لقد اتصلتُ لأخبركِ بالمستجدات. لِنرَ ما سيحدث هذه المرَّة. لو نجحنا سأدين لكِ بالفضل.

- بكل سرور. إنه واجبي كمواطنة صالحة.

قبل إنهاء المكالمة، لم أمنع نفسي من سؤاله:

- هل عرفت من والد «إنجي»؟

- سنتحدَّث على العشاء.

(11)

كذبتُ على «سليم» يوم الأربعاء عندما ذهبتُ للقاء «باتوهان». فأنا لن أخبر العالم كله بأنني سأتناول العشاء مع ضابط شرطة في المباحث الجنائية. وبالتأكيد لن أخبر حبيبي!

ذهبنا بسيارة «باتوهان» الحمراء إلى مطعم الكباب الجديد الذي اكتشفه. قُدنا في الشوارع الخلفية الغريبة لحي «أكساراي»، ثم وصلنا فجأةً إلى ضفة المضيق.

إسطنبول مدينةٌ ضخمة. حتى سكانها لا يعرفون كل مناطقها، خاصةً من أصبح «إسطنبولي» وهو كبيرٌ مثلي. المهم، ما الذي يبحث عنه المهتمون بجمال إسطنبول في هذه المنطقة؟ إن مصدر جمالها الوحيد هو مسجد «أكساراي» الذي يحمل أيضًا اسم امرأة، وهي السلطانة الأم «برتونيال». هذا المسجد جميلٌ حقًّا. إنه الأكثر زخرفة من بين مساجد إسطنبول، لكن إن كنت سأختار أكثر مسجدٍ يهزني جماله فهو جامع السليمانية. صممه المهندس المعماري «سنان» على أحد تلال إسطنبول السبعة. في رأيي، إنه لا مثيل له في الطريقة التي يندمج بها مع الصروح المحيطة به، مثل مركز العلوم البشرية والمنح وجامعة إسطنبول، كما يتميز بالطريقة التي يسيطر بها على تاريخ المدينة الساحلية.

كان المطعم الذي ذكره «باتوهان» في منطقةٍ اسمها «سماتيا» بالقرب من «أكساراي»، تمشيتُ كثيرًا في شوارعها أيام الأحد خلال الأعوام الخمسة عشر التي عشتها في إسطنبول. «سماتيا» هو واحدٌ من أجمل أحياء إسطنبول القديمة. هناك مقبلاتٌ لذيذة، وخبزٌ عربي محشو باللحم المفروم المتبل، وهو معروفٌ باسم «عيش باللحم» أو «حواوشي». هذا الطعام يناسب جمال المنطقة. لكن مع وصول الكباب فقدت شهيتي بسبب موضوع الحديث.

ثَبُت أن قاتل العجوز هو «تيمال إكشي». الشعرة التي وجدوها في يدها تطابقت مع العينة التي أخذناها من «تيمال» الذي أنكر كل شيءٍ في البداية، لكنه اعترف أخيرًا بقتل العجوز.

احتجتُ إلى وقت لأستوعب كلامه، فهذا يعني أنني حللت لغز الجريمة! لا داعي للتواضع. أنا من حلها بالطبع. نظرت إلى «باتوهان» المشغول بوضع بعض الصوص الحار على الخبز. هل يعتقد حقًّا أنه لا صلة بين جريمتين وقعتا في بنايتين متقابلتين؟ ألن يصل إلى استنتاجي أبدًا؟

ربما يفعل.

لكن ما الفرق؟

هل سيقلل هذا من حقي في الشعور بالفخر؟

هل يجب أن يحدث هذا؟

لا!

أنا من حل لغز الجريمة!

قال «باتوهان» وهو يحشر الخبز في فمه:

- «عثمان»...

عدنا إلى «عثمان». من الواضح أن «تيمال إكشي» زعم أنه تشاجر مع «عثمان». وعندما اشتد العراك أطلق النار دفاعًا عن نفسه، فأصاب ساقه. ثم غادر «تيمال» وعرف خبر وفاة «عثمان» من الصحف.

قُلتُ له:

- هل تعني أنه سيُتهم بقتل العجوز وإيذاء «عثمان» بإصابةٍ خطيرة؟

- نعم على الأرجح. وهذا بسبب الظروف المريبة المؤدية للوفاة.

لم أفهم جملته الأخيرة. قُلتُ:

- إممم. لكن «عثمان» تعرض للقتل من مسدس الرجل.

وضع رأسه بين يديه، وقال:

- أنتِ لا تفهمين.

كان يمضغ الخبز. راقبت لقمةً تنزلق عبر حلقه ثم سألته:

- ما الذي لا أفهمه؟

من الواضح أن «باتوهان» منزعجًا مما سيقول.

- لم يكن «عثمان» سيموت لو تمكن من طلب النجدة. كان سينجو لو حصل على عنايةٍ طبيةٍ مناسبة.

هززت كتفيَّ وقُلتُ:

- حسنًا، لكنه لم يفعل. ربما لم يعرف رقم الإسعاف، أو أنه سقط فصدم رأسه وفقد الوعي. من يدري؟ ربما لم يستطع الوصول للتليفون.

سكتُ أنا، وقال هو:

- لم نجد تليفونًا في الغرفة.

شربتُ قليلًا من النبيذ الأبيض. قد لا يكون المشروب المناسب في مطعم كباب، لكنني ألمانية. لست مضطرةً للالتزام بالسلوك التركي. ليس عندما لا يناسبني الأمر.

قُلتُ:

- هل تعني أنكم لم تجدوا تليفونًا أرضيًّا؟!

بصراحة، لم أنتبه كثيرًا إلى هذا التفصيل من قبل. سألته:

- هل قال «تيمال» إن «عثمان» كان يستطيع فتح النافذة والاستغاثة؟

قال «باتوهان» مندهشًا من سؤالي:

- «تيمال»؟ لماذا يقول «تيمال» ذلك؟

- لينقذ نفسه.

- انسي أمر «تيمال».

وكأني أستمتع بالتفكير فيه. قُلتُ:

- حسنًا، لكنه القاتل، صحيح؟

ابتلع «باتوهان» جرعةً كبيرة من خمر الـ«راكي»، ثم قال وكأنه يُحدِّث نفسه:

- اسمعي. لقد تشاجر «تيمال» و«عثمان» بالفعل، لكن عليَّ أن أشرح شيئًا ما حدث قبل ذلك. لقد رنَّ موبايل «عثمان»، و«إنجي» هي المتصل طبعًا. لأنها قالت إنها اتصلت به في ذلك الوقت، ولأن «تيمال» قال إنه تلقى اتصالًا قصيرًا، ثم هناك طرقةٌ على الباب. أكدت «إنجي» أنها سمعتها عبر التليفون.

أعرف كل هذا، لذلك قُلتُ:

- أكمل.

أغلق «عثمان» الخط وذهب ليفتح الباب. سمعه «تيمال» يتحدَّث مع امرأة، بل كانا يصرخان في بعضهما.

اعتدلتُ في جلستي فجأةً، وسألته:

- وماذا بعد؟ هل رأت المرأة «تيمال»؟ وإن فعلت، لماذا لم تبلغ الشرطة بعد؟

- لا، لم تر المرأة «تيمال»، لكن هذه ليست المشكلة. دعيني أكمل كلامي من فضلك. توقفي عن مقاطعتي وسأشرح.

أشرتُ له بيدي ليكمل، وقُلتُ:

- حسنًا، اشرح.

- لم يدع «عثمان» المرأة للدخول، بل تحث إليها على الباب، ثم طردها، لكن أدرك «تيمال» من الصراخ أن المرأة غاضبة بشأن شيءٍ ما. لقد أهانت «عثمان» فصرخ فيها، ثم غادرت.

أقسم أنني لم أفهم حرفًا. فسألته بهدوءٍ شديد:

- هل بدأ الشجار بين «عثمان» و«تيمال» بعد ذلك؟

أومأ برأسه قائلًا:

- أنتِ تعرفين الباقي. أطلق «تيمال» النار ثم غادر. عندما غادر كان موبايل «عثمان» على المكتب.

كرَّرتُ سؤالي السابق:

- ألم تجدوا خطًّا أرضيًّا؟

- كان هناك تليفون غير مستخدم تم فصل الخط عنه لعدم دفع الفاتورة. أدار «عثمان» أعماله كلها من الموبايل.

- هل أخذ أحدهم موبايله إذًا؟

أومأ «بتوهان»، وقال:

- شخصٌ ما أراد منع «عثمان» من طلب النجدة. شخصٌ ما خمَّن أن «عثمان» لن ينجو إن لم يحصل على مساعدةٍ طبية. إنه شخصٌ ذكي للتفكير في هذه الخطة.

قال هذا وكأنما يجاملني.

كان ينظر إليَّ بخبث.

ينظر إليَّ كأنه يغازلني.

ما زلت لم أفهم.

وفجأةً، فهمتُ. لطمتُ بيدي على صدري وشهقتُ بصدمةٍ وقُلتُ:

- أنا؟ هل تقصدني أنا؟

هل يظن «باتوهان» حقًّا أنني أخذت موبايل «عثمان» ومنعته من طلب النجدة.

لم يبد «باتوهان» مندهشًا من كلامي، بل بدا أكثر جديةً من اليوم الذي أدليت فيه بأقوالي.

قال وهو يشير إليَّ:

- أنتِ المرأة التي طرقت الباب، بينما «تيمال» في المكتب.

بدأتُ أفكر وقُلتُ:

- مهلًا. ربما أخذه «تيمال» معه عندما غادر المكتب.

- كان يستطيع فعلها بالطبع.

- وربما قصة المرأة مزيفة.

- احتمال.

- ماذا تعني؟

- يظن «تيمال» أنه قتل «عثمان». قال: «لم أقصد قتله، لكنني أخطأت التصويب». «تيمال» لم ينبهني إلى مسألة التليفون.

- لو أنه من أخذ التليفون فلن ينهبك إليه بالطبع، أليس كذلك؟

- اعترف «تيمال» أنه قتل «عثمان». لسنا متأكدين من التوقيت، لكن لنفترض أنه في السابعة والنصف. لم يحل الظلام بعد. ناداه أحد الأشخاص في الشارع، وهي السيدة العجوز. فتحت النافذة ودعت «تيمال» لتناول الطعام. اضطر «تيمال» إلى تبادل بضع كلماتٍ معها، لكنه رفض دعوة الطعام وسار إلى «كاراكوي».

- والمسدس؟

- ماذا بشأنه؟

- هل رماه في البحر في «كاراكوي»؟

- لا. إن المسدس الذي أطلق منه النار على «عثمان» كان مميزًا. إنه «ماجنام». ما كان ليرميه أبدًا! لقد غيَّر الماسورة، ومسح الرقم التسلسلي. وجدنا المسدس في بيته.

لو لم نجد أدلَّةً أخرى بخلاف السلاح - أعني لو لم نجد بصمات أصابعه في مكتب «عثمان» مثلًا - لكان صعبًا إثبات تهمة القتل عليه، لكنه اعترف بالجريمة بكل سهولة.

- هل من العادي تغيير ماسورة المسدس؟

- هذا ما يفعله الناس حين يصبح سلاحًا غاليًا مشبوهًا، لكنهم لا يتحملون فكرة التخلص منه.

- «مشبوهًا»؟

أجاب «باتوهان» بضحكةٍ أظهرت أسنانه البيضاء:

- عندما يُستخدم سلاحٌ في جريمة قتل يصبح عندها «مشبوهًا». هل رأيتِ ماذا تتعلمين مني؟

- نعم، يا لها من أشياءَ مفيدة، لكن لماذا قتل العجوز؟

نظر لي بإعجابٍ وقال:

- كنتِ مُحقَّةً منذ البداية. لقد خاف من أن نستجوب العجوز بمجرد أن يبدأ التحقيق.

قُلتُ:

- خوفٌ بلا مبرر. فأنتم لم يكن لديكم وقتًا لاستجواب الجيران ما عدا امرأةٍ غريبة تملك مكتبة.

حكَّ مؤخرة عنقه، ثم مطَّ رقبته إلى الجانبين حتى طقطقت، وقال:

- هناك شيءٌ آخر بالطبع.

صمت قليلًا ليدقق في تعابير وجهي، فسألته:

- ما هو؟

- الشقة التي استخدمها «عثمان» كمكتب كانت على وشك أن تُعرض للبيع. كنتِ تريدين شراءها، صحيح؟

- نعم، ما المشكلة؟

- لا شيء، لا شيء أبدًا.

- قُلتُ في شهادتي إنني أردت شراء الشقة، لذلك أردت رؤيتها من الداخل. ولهذا السبب تشاجرت مع «عثمان».

أومأ برأسه.

عليَّ الاعتراف أن الأمور لم تبدُ سارةً بالنسبة إليَّ. تخيلت سيناريو القضية وهي ضدي كالتالي:

تشاجرتُ مع «عثمان» في مكتبه قبل مقتله بيوم. وفي يوم الجريمة جاء إلى مكتبتي وضربته بطفاية السجائر على رأسه. ثم لم أتمالك نفسي وعُدتُ إلى مكتبه لأتعارك مساء مقتله. رفضتُ المغادرة حين لم يفتح الباب، وانتظرته على السلم ثم سمعت صوت إطلاق نار. بعد ذلك غادر «تيمال» ودخلت أنا لأمنع «عثمان» من طلب النجدة.

كل هذا منطقي. حتى إن الدافع موجود. أردت شراء الشقة. هل كنت سأستطيع شراءها لو ظل «عثمان» حيًّا؟ لا أعرف. هل كان الإخوة سيسمحون لي؟

سألته:

- هل ترك «تيمال» باب المكتب مفتوحًا؟

- لا يتذكر. ربما فعل.

- من وجد الجثة في الصباح التالي؟ أعرف أنه أحد الإخوة، لكنني نسيت اسمه.

- «موسى».

- نعم، «موسى». هل كان الباب مغلقًا عند وصول «موسى»؟

- نعم.

- إذًا أنت تظن أنه في الوقت ما بين رحيل «تيمال» ووصول «موسى»، جاءت امرأة وأخذت الموبايل من على المكتب. وبذلك تكون هي قاتلة «عثمان» الحقيقية.

- هذا ما أظنه.

- كان يستطيع «عثمان» أن يفتح النافذة ويستغيث.

قُلتُ هذا من قبل، لكنني لم أحصل على ردٍّ شافٍ.

سحب «باتوهان» نفسًا عميقًا وزفره بقوةٍ، وقال:

- لو فتح النافذة ليستغيث، على من كان سينادي؟ يمكنكِ الصراخ طوال الليل عبر البوسفور، ولن يأتي صيادٌ واحد من «كاراكوي» لينقذكِ. ولم يكن هناك شخصٌ آخر في المبنى.

- إذًا فمكتب «عثمان» لا يطل على الشارع.

ضاقت عينا «باتوهان» بتركيزٍ، وسألني:

- ما الذي تحاولين قوله؟ أنكِ لم تري الشقة أبدًا؟

- لستُ بحاجةٍ إلى إثبات ذلك. أنا لم أرها بالفعل. رأيتُ فقط الورشة الموجودة في الطابق الذي أسفلها، حيث جلستُ في غرفةٍ تطل على الشارع.

أسند «باتوهان» ظهره على الكرسي. قُلتُ له:

- مهلًا، ماذا قلت للتَّوّ؟

- لا أعرف. ماذا قُلتُ؟

- قُلتُ إنه لم يكن هناك شخصٌ آخر في المبنى. ماذا عن عمال البناء في الأعلى؟

- هل تقصدين العمال غير الشرعيين؟

ما الفارق في كونهم يعملون بشرعيةٍ أم لا؟! سألته:

- ألم يسمعوا شيئًا؟

- في ذلك اليوم أغلق المجلس الشقة العلوية، لأنهم لم يكن لديهم ترخيص بناء. هذا المبنى مصنفٌ كمبنى تاريخي، لذلك أقل تعديلٍ فيه يتطلب تصريحًا، وهو ما ليس لديهم. لو أثبتنا أن «تيمال إكشي» أمر بوقف أعمال البناء ليتأكد من خلو المبنى، عندها يمكننا الجزم بأنه خطط لقتل «عثمان»، لكنني أشك في صحة هذا.

- هل يمكنك إثبات ذلك؟ هل قال «تيمال» شيئًا بشأن وقف العمل؟

- يبدو أنه لا علاقة لـ«تيمال» بوقف العمل. لقد استجاب المجلس لشكوى أحد الجيران. أحد المثقفين الذين يعيشون في «كوليديبي» اشتكى من أعمال البناء.

- من هو؟

ضحك «باتوهان» ساخرًا، وقال:

- شخصٌ ما مهووسٌ بمنطقة «كوليديبي». إنه هاوٍ. لدينا كثير من المجانين في هذا البلد.

- هل تحدَّثت مع الرجل؟

- بالطبع. لقد قدَّم عريضةً إلى المجلس ورفض مغادرة المبنى. كلما حاول أحدهم التحدُّث معه، ناوله عريضة. إنها ليست المرَّة الأولى التي يحدث فيها شيءٌ كهذا.

- أظنه مُحقًّا. من فضلك، لا تظن أنني أحب الواشين. لكن ليس كل الواشين سواء. الناس الذين يحاولون حماية منطقتهم ومدينتهم من الأشرار ليسوا كمن كان يبلغون عن العائلات اليهودية المختبئة في أقبية المنازل خلال زمن ألمانيا الفاشية. أليس كذلك؟

كل من ذهب إلى «كوليديبي» سيدرك لماذا اخترت كلمة «أشرار». في السبعينيات والثمانينيات أضيفت طوابق إلى المباني الرائعة المحيطة بميدان «كوليديبي».

والنتيجة هي أن أساسات كثير من المبانٍي لم تحتمل لثقل الزائد فانهارت، وكأن الزلازل التي مرَّت بإسطنبول على مدى قرون انطلقت دفعةً واحدة، لكن لم يتم اتخاذ إجراءاتٍ بسبب الرشاوي الكثيرة التي تم دفعها للتستر على البناء الزائد غير القانوني والخطير جدًّا.

- إذًا، لم يكن العمال في المبنى وقت الجريمة؟

- جمعوا أغراضهم وغادروا عندما تم إغلاق الشقة العلوية.

- أي أغراض؟

- العمال المهاجرون يعيشون في الشقق التي يعملون فيها لكي لا يدفعوا تكاليف الإقامة.

- هل وجدت هؤلاء العمال؟

- هل تعرفين كم عدد العمال غير الشرعيين في هذا البلد؟

- لا، لا أعرف.

- نظن أنهم يزيدون على مليون. في تركيا أكثر من مليون عاملٍ غير شرعي بلا محل إقامة أو أوراق إثبات شخصية. ومعظمهم في إسطنبول.

هذا لا يزعجني أبدًا بصراحة. لقد كافحتُ كثيرًا في الماضي لأدعو إلى حرية الانتقال.

- هذا يعني أنك لم تجدهم.

- لم أجدهم ولم أبحث عنهم أصلًا. عندما فتَّشنا مسرح الجريمة في الصباح التالي للجريمة، كان ختم الشمع الأحمر على الشقة العلوية سليمًا. وليس لدينا ما يدفعنا للشك بأن أحد العمال دخلها ليلًا.

أزعجني كلامه، فقُلتُ:

- وليس لديك دافعٌ للشك بأن هناك امرأة أخذت موبايله.

لم أتورط في موقفٍ كهذا من قبل. ولم أتوقع أن أكون فيه. أنا أجلس في سيارةٍ يقودها رجلٌ يظن بأنني قاتلة، أو ساعدت على القتل. وفي الوقت نفسه يحاول أن يلاطفني بيده، فابتعدت قليلًا جهة الباب، وقُلتُ:

- أصبحتُ مشتبهًا بها مجددًا، أليس كذلك؟

ضرب مقود السيارة بيده ولم يرد.

مررنا بجامع «السلطانة الأم» المسمى أيضًا بمسجد «والدة السلطان»، وقُدنا باتجاه جسر «أتاتورك» المعروف أيضًا باسم «أونكاباني». سألته:

- هل تم استخدام الموبايل مجددًا بعد تلك الليلة؟

لم يرد فبدأت أعيد سؤالي:

- هل تم استخدام الموبايل...؟

قاطعني قائلًا:

- أعيش منفصلًا عن زوجتي. نعمل على إجراءات الطلاق حاليًا.

نظرتُ إلى سقف السيارة، ولم أعرف ماذا أقول.

- يؤسفني ذلك.

- يؤسفكِ؟

- من المحزن أن ينفصل الأزواج. هل لديك أطفال؟

أشعل سيجارةً وأومأ بهدوء. قُلتُ:

- أنا أفهمك. أفهمك تمامًا.

سكتنا حتى لم أعد أحتمل صمت السيارة. ثم رد على سؤالي السابق:

- لم يتم استخدام الموبايل مجددًا. إنه يرقد في قاع البوسفور على الأرجح.

- ألم تلحظ من قبل أن الموبايل مفقود؟

بدا أنه يتمالك نفسه، ثم قال:

- نعم، لاحظت، لكن المسدس الذي يحمله «عثمان» دائمًا كان مفقودًا أيضًا، لذلك افترضت أن القاتل أخذهما. عرفنا بعدها أن إخوة «عثمان» تخلصوا من سلاحه قبل وصول الشرطة إلى مسرح الجريمة، لأنه لم يكن مرخصًا، لكننا ما زلنا لا نعرف ماذا حل بالموبايل.

- كيف نعرف أن «تيمال» لم يكذب عندما قال إنه لم يأخذ الموبايل؟ ربما أخذه.

- لا. لو رأيته لعرفتِ لماذا لم أشكُّ في كلامه.

- لماذا؟

- إنه غريب. شخصٌ دقيقٌ وشكاك، يتجول حاملًا معه كثير من المال نقدًا. ليس من النوع الذي يفكر قائلًا: «سآخذ موبايله حتى يعجز عن طلب النجدة فيموت».

لو أراد قتل «عثمان» حقًّا، لأطلق رصاصةً أخرى عليه بدلًا من إهدار وقته مع الموبايل.

- تعني أنه أغنى من أن يسرق موبايل حتى يبيعه.

- نعم. أخذ «تيمال» للموبايل لا يتوافق مع الموقف.

- ماذا؟

- لا يتوافق.

- لكن من الممكن أن شخصًا ما دخل وأخذ الموبايل من على المكتب. يمكن أن يرمي الشريحة ويبيع التليفون.

كنت أفكر في عمال الطابق العلوي.

- احتمالٌ ضعيف. كان جسد «عثمان» قريبًا جدًّا من باب الشقة. بالتأكيد زحف إلى هناك. لو كان الموبايل على المكتب، لزحف إليه بدلًا من الباب، لكنه زحف إلى الباب الذي كان السبيل الوحيد لطلب النجدة، ما يعني أن «عثمان» كان حيًّا عندما غادر الشخص الذي أخذ التليفون.

سألته:

- ماذا تستنتج من كل هذا؟

- أولًا؛ لو اتصل «عثمان» بالنجدة، لما زحف إلى الباب. ثانيًا؛ لن يدخل أحدٌ مكان ويعبر فوق جثة ليسرق موبايل، على الأقل ليس موبايل فقط. كانت محفظة «عثمان» في جيبه، وساعته في يده، ومسدسه في درج مكتبه. لو كان القادم لصًّا لأخذ كل هذا.

(12)

عندما أوصلني «باتوهان» أمام منزلي، رأيتُ كل الأنوار مضاءةً في غرفة جلوسي. من الواضح أن «بيلين» في البيت. ضربت جرس العمارة العمومي لتفتح لي الشقة من باب الأدب بدلًا من أن أستخدم مفتاحي.

وجدتُ شابًّا لم أره من قبل يرتدي حذاءً ضخمًا ويتمدد على الأريكة في غرفة جلوسي. من الغريب أن تحضر ضيفًا إلى منزلٍ تكون أنت فيه ضيفًا. هناك كلمةٌ واحدة تصف الضيف الذي يوسخ أريكة المضيف بقدميه، وهي كلمة «بغيض».

ألقيتُ التحية ببرودٍ على «بيلين» التي فتحت لي الباب بوجهٍ أحمر من الإحراج، ثم ذهبت إلى مكتبي مباشرةً. سمعت ذلك الأحمق يقول لها: «مضيفتكِ جميلة».

لقد وصلت إلى سن النضج التي تلفت أنظار الشباب إليَّ. لكن أسوأ ما في الأمر هو أنني لم أسعد بهذا أبدًا.

جلستُ على مكتبي قبل تغيير ثيابي، ونظرتُ إلى قائمة الأفكار التي كتبتها الأسبوع الماضي. شطبتُ إحدى النقاط وهي؛ «حبيبة» أم «إنجي»، أيهما تكذب؟

نهضتُ وأغلقتُ الباب لكي لا أسمع الأصوات القادمة من غرفة الجلوس، لكن بمجرد أن جلستُ أدركتُ أنني عطشى. لذلك ذهبت إلى المطبخ لأحضر كوبًا من الماء.

عُدتُ إلى مكتبي ومعي كوب ماءٍ كبير ووعاء آيس كريم وزجاجة «ويسكي». فالشقة كبيرةٌ كفاية ليتحرك ثلاثة أشخاص دون إعاقة بعضهم.

جلستُ على مكتبي مجددًا.

جلستُ أنظر إلى الأرفف، بينما أدخن وأشرب الـ«ويسكي».

كسلت تلك الليلة أن أمسح مكياجي وأدهن كريمًا ليليًّا لوجهي وأنا أُدلِّكه. والنتيجة هي أني فقدت بضعة رموشٍ في الصباح، بينما أحاول فصل الرموش العلوية عن السفلية في عيني اليمنى، كما أنني لم أغسل أسناني قبل النوم. أنا في أسوأ حال.

دخلت الحمَّام فساءت حالتي أكثر حين رأيت عينيَّ المنتفختين في المرآة. ملأتُ البانيو لأستحمَّ. الاستحمام في البانيو صباحًا تجربةٌ غريبة. تجعلك تشعر بأنك لست مضطرًا للعمل، وأنك محظوظٌ كفاية لتتفرغ وتستمتع في أي وقتٍ من اليوم. الجانب السيئ هو أن ماء البانيو لا يمنحك تأثير انتعاش الدُّش، كما أنك تشعر بالنعاس عندما تتمدد في البانيو.

ارتديتُ روب الاستحمام ولففتُ منشفةً حول رأسي، ثم دخلت المكتب. لم أقم بتهوية الغرفة منذ مساء أمس، وهي تفوح برائحة السجائر الكريهة. استيقظت «بيلين» ومن الواضح أنها بمفردها. أطلت عليَّ من الباب وقالت بابتسامةٍ مشرقة:

- صباح الخير.

سألتها:

- هل ستفتحين المكتبة؟

كانت في مزاجٍ جيد لدرجة أنها لم تنزعج من سؤالي، وقالت:

- أنا على وشك الذهاب.

فتحت باب البلكون لتهوية الغرفة وأطفأت سيجارتي، ثم ذهبتُ لألبس.

عُدتُ للمكتب ومعي كوبٌ من الشاي الأخضر، ثم جلست لأتصل بـ«حبيبة»، لكن الوقت ما زال مبكرًا بالنسبة للأشخاص غير العاملين.

رنَّ التليفون لفترةٍ طويلة قبل أن يجيب أحدهم. وأخيرًا ردَّ صوتٌ ناعس:

- مرحبًا.

- مرحبًا، أنا «كاتي».

ثم سكت لأفكر في طريقةٍ لأذكرها بي.

قالت المرأة بصوتٍ نعسان:

- مرحبًا، كيف حالكِ؟

سألتها:

- هل تذكرينني؟

- وكيف أنساكِ؟

ضحكنا. من الواضح أن «حبيبة» من القلائل الذين يمكنهم الضحك فور استيقاظهم. قُلتُ لها:

- يبدو أنكِ لم تعودي إلى جبل «إيدا» بعد.

- لا يستقبل دار الضيافة هناك كثير من النزلاء في هذا الوقت من السنة. يدير والداي الأمور هناك.

- هل أيقظتكِ؟

- لا، بل كنتُ مستيقظة، لكن ما زلتُ في السرير. من الجيد أنكِ اتصلتِ.

- أريد رؤيتكِ لأسألكِ عن شيء.

- أنتِ في الجانب الأوروبي من المدينة، صحيح؟

- نعم.

- سأقابل شخصًا ما في حي «تشويقية» اليوم. يمكننا اللقاء عصرًا إن أحببتِ. ماذا حدث؟ هل ما زلتِ في دائرة الاشتباه؟

- يمكنكِ قول ذلك.

- هل يناسبكِ اللقاء في الخامسة؟

- نعم. أين؟

- قرري أنتِ. فأنتِ تعرفين المنطقة أفضل منِّي.

لن أزعم أنني عبقريةٌ في اختيار أماكن اللقاءات، لذلك قُلتُ لها:

- لم لا تأتين إلى منزلي؟

وأعطيتها العنوان.

لم أخرج طوال النهار، بل تجوَّلتُ في الشقة أدخن وأفكر. بعكس «باتوهان»، أرى أن الأمور كلها متوافقة مع بعضها بشكلٍ ممتاز. لكن ماذا لو كنت مخطئة؟

أخاف عندما تسير الأمور على ما يُرام؛ عندما لا تظهر مشكلاتٌ في علاقاتي، ويسير عملي بسلاسة. أشعر دومًا أنني لا أستحق السعادة أو النصر أو الحب، وأنه ينتظرني في كل خرابةٍ عفريت. حياتي تصبح أفضل عندما تنقصها المثالية. عندها فقط أشعر بالسعادة. فمثلًا عندما تزيد مبيعات المكتبة وتسير حياتي العاطفية باستقرار، أبحث عن شيءٍ يزعجني. أصر على ارتداء حذاءٍ يؤلم أصابع قدمي. أو أقلع عن السجائر وأتبع نظامًا رياضيًّا مكثفًا لثلاثة أيامٍ في الأسبوع. أو لا أشرب القهوة والشاي. حتى إنني أمتنع عن ساندويتشات الجبن بالخبز المحمص.

أؤكد لكم أن سير الأمور على ما يُرام هو من أسوأ ما قد يحدث لي.

إنه نصرٌ مُذهل أن أحل لغز جريمة قتلٍ بلا مشاكل. يا له من نجاحٍ مدهش بالنسبة لمحققةٍ هاويةٍ مثلي، ألا تظنون ذلك؟

لكني لن أوجه الاتهام لأحدٍ من باب المتعة. فأنا لست ضابط شرطةٍ قاسيًا، بل أنا صاحبة مكتبة لا علاقة لها بشيء. ليس عملي أن أحل الجرائم وأقبض على المجرمين وأسلمهم للعدالة. لن أوجه إصبع الاتهام لشخصٍ ما وأصرخ «قاتل!». لن أمتهن التحقيق وأطلب أجرًا وأجازة، وبالطبع لن أطلب ميدالية الخدمة المثالية تكريمًا لجهودي في حل الجريمة.

لا أهتم. ربما هناك امرأةٌ بالفعل تركت «عثمان» يعاني وأخذت موبايله ورحلت. قد تكون «حبيبة». ربما فعلت ذلك لتنتقم. بالنسبة لها، ربما كان هذا أفضل ما تفعل.. أو أسوأ.

لا أهتم.

لن أقول شيئًا عن الجريمة لـ«حبيبة» عندما تصل.

لن أقدم ادعاءات أو أوجه اتهامات.

ما أقوله لن يعتبر اتهامًا أصلًا.

يرجع الأمر لـ«حبيبة» لتؤكد أو تنفي صحته. إن لم ترغب في التحدث معي فلترحل وتغادر. وسينتهي الموضوع. لن أجبرها على سماع نظريتي.

رقدتُ على الأريكة وغفوتُ.

استيقظتُ عندما سمعتُ صوت جرس. جريتُ إلى الباب وضغطتُ على الزِّرِّ الذي يفتح المدخل الرئيسي، لكن الجرس ظل يرنُّ. فأسرعتُ إلى التليفون الذي في مكتبي، لكنني لاحظتُ أن الصوت يبتعد. فأسرعتُ إلى موبايلي في غرفة الجلوس، لكن الجرس توقَّف.

جلستُ على الأريكة ومعي الموبايل، ثم ضغطتُ على الأزرار لأعرف من المتصل. رقمٌ سري، هذا يعني أنه «سليم».

لا أملك طاقةً للحديث.

رنَّ جرس الباب في الخامسة تمامًا، فتمالكتُ نفسي. لم أتوقع أبدًا أن الأتراك دقيقون في مواعيدهم. في الواقع، حتى الألمان يصعب عليهم الالتزام بالمواعيد في إسطنبول. هناك زحامٌ مروري دائم، ومن الصعب تخمين الوقت الذي تحتاج إليه للانتقال من مكانٍ إلى آخر. وهكذا تتأخر لا محالة.

ضغطتُ زِرَّ الفتح الآلي لأفتح باب العمارة.

صعدت «حبيبة» السلالم وهي ترتدي ثوبًا أسودَ طويلًا. بدت أكثر أناقةً منذ المرَّة التي التقينا فيها. اختلفت تسريحتها أيضًا.

قُلتُ لها بينما أعانقها بخفَّة:

- تسريحتكِ تليق بكِ.

قالت وهي تعطيني علبة:

- جئتُ إليكِ بعدما خرجتُ من الكوافير مباشرةً. لقد قصصته. اشتريتُ لكِ بعض الجاتوه، أتمنى أنكِ لا تتبعين نظامًا غذائيًّا.

قُلتُ ردًا مبهمًا قد يعني نعم أم لا.

دخلنا غرفة الجلوس أولًا، ثم أدركتُ أن الجلوس على مقاعد الأنتريه لا يساعد الناس على إخراج أسرارهم الدفينة. يمكننا الجلوس هنا لأيامٍ نأكل جاتوه الشوكولاتة، ونتحدَّث عن موضة الشتاء، ومحلات الكيك في «نيشانتاشي»، والكوافيرات في «إتيلير»، وبوتيك «ياماموتو» الجديد. ولن نفكر أبدًا في جريمة القتل أو «عثمان» أو الموبايل أو «إنجي».

قُلتُ لها:

- لنجلس في البلكون حتى نستمتع بآخر الأيام المشمسة في السنة.

يطل البلكون على الحدائق الخلفية لبنايتي والبنايات الأخرى. صحيح أنه ليس منظر البوسفور، لكن ما زلتُ أرى الكثير من أشجار إسطنبول المتبقية، وأشعر بأنني بعيدةٌ إلى حدٍ ما عن صخب الشارع.

دخلنا البلكون الملحق بمكتبي. قالت «حبيبة»:

- المكان لطيف.

وضعتُ الشاي والجاتوه على الطاولة الصغيرة وأسندتُ ساقيَّ على سور البلكون. ثم قُلتُ:

- أريد التحدَّث معكِ في موضوعٍ ما.

- نعم. هذا ما قلته في التليفون هذا الصباح.

ترددتُ فحثَّتني على الكلام:

- نعم؟

- حسنًا. في الليلة التي قُتِل فيها «عثمان».. أو في المساء تحرّيًا للدقَّة..

توقَّفتُ لألتقط نفسي حتى أكتم انفعالي، ثم واصلتُ:

- في المساء الذي قُتِل فيه «عثمان»، هل ذهبتِ إلى مكتبه؟

نظرت إليَّ بحدةٍ بعينيها الخضراوين الجميلتين، ثم أومأت برأسها قليلًا، وقالت:

- لماذا تسألين؟

- أنزلتُ ساقيَّ من على السور ورَبعتهما وقُلتُ:

- اسمعي، أنا لستُ من الشرطة ولا أعمل معهم.

بعد قضيتي الأولى، تعلَّمتُ أنه عند اتهام شخصٍ ما بالقتل من الأفضل البدء بقول إنني مجرد محققةٍ هاوية فضولية.

سألتني وهي ما زالت تدقق النظر بي:

- ما قصدكِ؟

- حسنًا، لديَّ نظريةٌ أظنكِ قادرة على تأكيدها. إنها مجرد نظرية، وحتى لو أكدتها ستظل نظرية.

أبعدتُ طبق الجاتوه عنها، وقالت:

- تقصدين أنكِ لن تذهبي إلى الشرطة؟

أومأتُ برأسي مؤكدة.

مرَّرت لسانها على أسنانها، وسألت:

- لماذا؟

- لماذا ماذا؟

- لماذا لن تذهبي إلى الشرطة؟

- ولماذا سأذهب؟

أعرف أنه ليس جوابًا شافيًا.

- في هذه الحالة، ماذا سيحدث لو أكدت نظريتكِ؟

كيف تشرح اهتمامكِ بحل قضايا القتل لشخصٍ لا يقرأ الروايات البوليسية؟ هل يمكنك ذلك عزيزي القارئ؟ سأحاول.

- تعرفين أنني أبيع روايات الجريمة.

- في «كوليديبي».

- لا أبيعها وحسب، بل أقرؤها أيضًا.

- لم أقرأ واحدةً من قبل، لكن أحبَّت «إنجي» قراءتها منذ أن كانت طفلة.

تنحنحت. من الأفضل أن أدخل في صلب الموضوع.

- «إنجي» هي قريبتكِ.

قُلتُ لنفسي إنه عليَّ التوضيح أنني عرفتُ هذه المعلومة من السيدة «حفيظة» خادمة «إنجي» السابقة.

قالت:

- إنها ابنة خالتي.

في اللغة التركية هناك مصطلحاتٌ لوصف كل صلات القرابة. إنهم لا يكتفون بقول «قريبي» أو «قريبتي»، بل يوضحون قائلين «ابنة خالتي» أو «ابن عمِّي»، وهكذا.

كرَّرت:

- ابنة خالتكِ.

- لكنها كانت كأختي. أحببتها أكثر من أختي.

- حتى واعدت «عثمان».

ضاقت عيناها الخضراوان بغضبٍ، وقالت:

- حتى سرقته منِّي. إنها لا تعترف بأنها فعلت. أعرف أنها تنكر الأمر. تقول إنها ليست غلطتها.

- لم أتحدَّث إلى «إنجي» بشأن هذا الموضوع.

لم أكذب، فنحن لم نتحدَّث بالتفصيل.

نظرت إلى أظافرها المطلية، وسألت:

- كيف عرفتِ إذًا أنها ابنة خالتي؟

- تحدَّثت مع خادمة «إنجي».

هزَّت رأسها وكأنها أدركت أخيرًا أهمية الملاحظات السابقة، وقالت:

- الخادمة الشهيرة. بالطبع، هذه المرأة تعرف كل ما يدور في عائلتنا. قُلتُ لـ«إنجي»: «اطرديها لأنها تتنصَّت كثيرًا». إذا جلسنا في البلكون، وقفت تنظف النوافذ. وإذا جلسنا في المطبخ، أخذت تغسل الأطباق. أينما كنا نجدها معنا.

- هل كنتِ تزورين «إنجي» كثيرًا في شقتها؟

ابتسمت «حبيبة» بسخريةٍ مريرةٍ، وقالت:

- ألم تخبركِ الخادمة أيضًا؟ فعلت ذلك في البداية طبعًا. عندما كان لديَّ أمل في أن تتراجع «إنجي».

- لماذا كنتِ تلحين عليها في ترك «عثمان»؟

عبست «حبيبة» وكأنني سألت سؤالًا غريبًا، ثم ضاقت عيناها ونظرت إليَّ وقالت:

- أحببتُ «عثمان»، وكنتُ حاملًا منه. أردتُ العيش معه وإنجاب أطفاله.

ثم أسندت رأسها إلى يدها، وقالت:

- وهل من سببٍ آخر في رأيكِ؟

- إذًا، ألم تفعلي ذلك لمصلحة «إنجي»؟

- بل فكرت في صالحها أيضًا. كان لديها مستقبلٌ باهر. كانت تستطيع إتمام دراستها. وكنتُ سأدفع التكاليف. لم تكن مضطرةً لأن تصبح عشيقة رجلٍ وهي ما زالت صغيرة. كانت ذكيةً جدًّا.

أشعلتُ سيجارةً وسألتها:

- هل كنتِ حاملًا عندما انفصلتِ عن «عثمان»؟

نظرت إلى نوافذ المبنى المقابل ولم ترد، فسألتها بصوتٍ مهزوز:

- ماذا حدث للطفل؟

- توفِّي جنينًا في رحمي. «انتحرت» بتناول أقراص الدواء. أنقذوني لكنهم عجزوا عن إنقاذ الطفل.

- تقصدين أنكِ «حاولتِ الانتحار». لو أنكِ «انتحرتِ» لما كنتِ حيَّةً الآن.

هل عليَّ إصلاح اللغة التركية للأتراك؟ تجاهلت ما قلته ونظرت إليَّ بشرود.

قالت:

- جاءني «عثمان» و...

أخذت نفسًا عميقًا، وواصلت:

- انجذبت «إنجي» لأمواله، وانجذب «عثمان» لشبابها وجمالها.

- وفي النهاية توقفتِ عن محاولة تغيير رأيها وعن زيارتها.

- لا خيار لديَّ. فالعائلة كانت ستنقض عليَّ. فعلت «إنجي» ما عجزت أنا عن فعله. جعلت «عثمان» يشتري لها شقةً باسمها، وكانت تعتني بالعائلة كلها. كان «عثمان» منجم ذهبٍ لنا. حصلت «إنجي» على الجميع في صفها؛ أمي وخالتي وإخوتي، كلهم. كانت تزورهم شهريًّا ومعها مالٌ كثير. لقد اشترتهم جميعًا حتى كرهوا رؤيتي. حتى والدتي تخلَّت عني، وكذلك والدة «إنجي» التي كانت كأمي حين كبرت مع «إنجي».

- لكنكِ في النهاية تخلَّيت عن كل شيء.

- ماذا عساي أن أفعل؟ قلت لنفسي انتظري قليلًا، فالناس لن تدعمها بعد ما فعلت. لذلك أصدرت أغنية.

- «أفتاليا».

- لم تبع جيّدًا، ولم يرغب أحدٌ في إنتاج أغنيةٍ أخرى لي. في النهاية قررت مغادرة إسطنبول. لم أتحمل البقاء والذهاب إلى الأماكن التي اعتدت زيارتها مع «عثمان».

قُلتُ بتعاطف:

- ربطتِ بين المدينة والشخص.

دمعت عيناي لأجلها، «حبيبة» امرأةٌ حساسة.

- لا يمكن الرجوع بالزمن. لو لم يحدث أي من هذا، لاختلفت حياتي تمامًا. كنا في غاية الفقر. أفقر مما تخيلين. لكننا آمنا بأن حالنا سيتحسن. التحقنا جميعًا بالمدرسة، وتخرجت «إنجي» في الثانوية. أما أنا فلم أفعل لأنني اضطررت للرحيل مبكرًا.

- نعم، عرفت ذلك عن الأتراك. الشباب عديمو الطموح يرون في التعليم ملاذًا لهم.

- ليس بعد الآن. حاليًا يرد كل الأطفال الفقراء أن يصبحوا مطربين أو لاعبي كرة.

- أنتِ أصبحتِ مطربةً بالفعل.

أصدرت صوتًا لا أعرف إن كان ضحكًا أم بكاءً. قُلتُ:

- بأي حال، الدراسة ليست ضرورةً للجميع.

طلبت منِّي سيجارةً لأن سجائرها نفدت، ثم سألتني:

- كيف عرفتِ أنني ذهبت إلى مكتب «عثمان» مساء مقتله؟

- لم أعرف يقينًا، بل كنت أخمن.

- وجودي في الجبال منحني وقتًا للتفكير.

- هل تتحدَّثين عن دار الضيافة؟

أغمضت عينيها بمعنى «نعم»، وقالت:

- لكن كلما فكرت في الموضوع، أدركت أنني لن أتحمل أبدًا.

أشارت لقلبها وواصلت:

- وكأن أحدهم طعنني هنا. لم أعد أستطيع النظر إلى الأطفال أو الأحباب أو الحوامل. لم أحتمل. كل شيءٍ أصبح لا يطاق.

- لكن لماذا عدتِ فجأةً بعد هذه السنوات؟ ماذا حدث؟

صرخت «حبيبة» وهي تبكي حتى طارت دمعةٌ على الطاولة وفاضت عيناها وهي تقول:

- ماذا حدث؟! ماذا حدث؟! اتصلت بوالدتي على الرغم من أننا بالكاد نتحدَّث. غادر والدي حين كنا أطفالًا. سافر إلى ألمانيا كعامل ولم يعد أبدًا. في البداية كان يرسل المال وبعض الأغراض، لكنه توقف بعد مدة. عرفنا فيما بعد أنه يعيش مع امرأةٍ أخرى في ألمانيا على الرغم من أنه لم يطلق والدتي.

هذه القصة مألوفةٌ لي. واصلت «حبيبة»:

- أنجب أبي من امرأته فتاة أرادت البحث عنا. ذهبت إلى القنصلية التركية في ألمانيا، وحصلت على رقمي منهم.

- ووالدكِ؟

ردت «حبيبة»:

- مات.

ثم واصلت موضوعها:

- عندما تحدثت مع ابنته قالت إنها تريد القدوم إلى تركيا والتعرف علينا. لذلك اتصلت بوالدتي. لم أستطع تركهم يتفاجؤون بقدوم الفتاة ولا أحذرهم.

- ثم؟

- اتصلت بوالدتي وعلمت منها أن «إنجي» حامل. لم أنم لأسبوع.

- كانت «إنجي» على وشك الحصول على السعادة التي سرقتها منكِ.

- ليس كذلك. لم أقل لنفسي: «لماذا تحصل «إنجي» على ما حُرِمت منه؟»، بل شعرت بالحزن.. الحزن الشديد!

سالت دمعةٌ أخرى على الطاولة. تعلمت طريقة التعامل مع النساء الباكيات. قُلتُ لها:

- ما رأيكِ بمشروب؟

أومأت برأسها.

الخاتمة
بانيو ومدفأة وجارٌ جديد

بالكاد يمكن ملاحظة الخريف في إسطنبول. فنحن - أهل إسطنبول - لدينا موسمان فقط في حياتنا؛ الصيف والشتاء. لكن هذه السنة استثناء. استمر الخريف وطال. وهكذا فعل الشتاء، وكأنه سيبقى للأبد، لكن على الأقل طال الربيع مثلهما.

تتغير الموضة مع كل موسم، وأنا لا أريد ارتداء ملابس العام الماضي، لذلك عليَّ التسوق لشراء أجدد الألوان والأذواق. لا وقت لأضيعه! هناك «سولوبيتات» وفساتين شرقية بياقاتِ عالية وتيشيرتات ممزقة على الموضة...

لكنني فقيرةٌ جدًّا! لقد أفلسني شراء تلك الشقة الرائعة. من الغريب أن أسحب قرضًا لأشتري حذاءً وبعض الملابس، خاصةً في سني. يا له من موقفٍ وضعت نفسي فيه لأجل شقةٍ تمليك.

بالطبع خمنتم أن تلك الشقة الرائعة في شارع «باباغان» أصبحت مُسجَّلةً باسمي. قُمتُ بحساباتي وبدأتُ أوضِّبها. عليَّ القيام ببعض التنازلات بالطبع، لكن لا شيء سيمنعني من تركيب بانيو.

في الواقع.. لم يبق لديَّ مالٌ لتركيب جهاز تدفئةٍ مركزي، لكن «سليم» قال إنه سيقدمه لي كهديةٍ بمناسبة الشقة الجديدة. سنرى بهذا الشأن. على كل حال، بما أنني عشتُ في برلين الباردة، أستطيع تدبُّر أمري بإشعال مدفأة الجاز. أنا خبيرةٌ في هذا الأمر. إشعالها مثل ركوب الدراجة أو السباحة، بمجرد أن تتعلمه لن تنساه.

لم تتصالح «بيلين» مع حبيبها، بل قضت معي موسم الشتاء. لم يكن الأمر ممتعًا مثلما كان مع «فوفو» شريك سكني العزيز، لكنني اعتدتُ على وجودها. ازدحم المكان قليلًا عندما جاءت والدتي ومعها صديقتها السيدة «هيليرسدورف»، فأنا لم أستطع الذهاب إلى «مايوركا»، لكننا تدبَّرنا أمرنا. أفضل أن أكون محاطةً بالناس على أن أسافر لأكون وحدي مع أمي.

سأنتقل إلى بيتي الجديد في مايو. تقول «بيلين» إنها ستجد سكنًا جديدًا قبل هذا الوقت. أظنها على علاقةٍ مع ذلك الفتى الذي وجدته مُمدَّدًا بحذائه على أريكتي، لكنها تحاول إخفاء الأمر عنِّي. ستنتقل للعيش معه على الأرجح.

تشتكي «لالي» كثيرًا من وظيفتها الجديدة، إلا أنها لن تتركها طالما تتذكر شعور البطالة، لكن بمجرد أن تنساه، ستستقيل فورًا. تحلم «لالي» بالعيش في قريةٍ خالية من الزلازل، وأن تكسب رزقها بالترجمة. في رأيي هذه نسخةٌ أخرى عن فكرتها السابقة بالاستقرار في كوبا، لكنني لم أخبرها بذلك.

أثناء ذلك حدث شيءٌ لا يصدق. تصالحت «أوزلم» مع زوجها، على الرغم من أنها طلقته. تقول إنهما أسعد الآن، ولن يتزوجا مجددًا، لأن الزواج يقتل الحب. أرى أن كل الحب يموت في النهاية، لكن هذا لا يمنعنا من الوقوع في الحب مجددًا.

وبالمناسبة، قابلتُ الأسبوع الماضي الرجل الغامض الذي اشترى الشقة التي تعلو شقتي. إنه رجلٌ مُذهل وله لحية. ذهبنا معًا لشراء بلاطٍ لمطبخي. إنه يفهم في هذه المسائل. بالتأكيد سأدعوه إلى حفلتي بمناسبة الشقة الجديدة.

Contents

مكتبة Telegram Network
(1)
(2)
(3)
(4)
(5)
(6)
(7)
(8)
(9)
(10)
(11)
(12)
الخاتمة بانيو ومدفأة وجارٌ جديد